أحمد حمروش

مصر و السودان كفاح مشترك

دار الهلال

اهـــداء

الى ذكرى محمد على محمد
وصلاح بشرى .. طالبين من
السودان استشهدا فى مصر
خلال كفــاح مشترك ضد
الاســـتعمار البريطــانى
والرجعيــة . ومن أجــل
اســتقلال الوطن والحرية
والاشـــتراكية . . .

الباب الأول

مؤامرة الاستعمار البريطانى ضد الوجود المصرى بالسودان

- نصيحة استعمارية باخلاء السودان
- عودة الاستعمار الى السودان
- اللواء الأبيض
- تآمر الاستعمار ضد الوجود المصرى

فى هذه الأيام التى يتغير فيها وجه السودان ، وتستقبل الجما
حكومة ثورية جديدة .. لا تصبح الكتابة عن هذا البلد الشـ
متعة ذهنية أو سياحة فكرية .. وانما تتحول الى واجب ومسئولية و
وكثيرا ما نسمع من الأصدقاء فى الخرطوم أن أبناء مصر لا يعرفـ
شيئا عن السودان .. بينما عدد كبير من أبناء السودان يعرف
شىء عن مصر . وهذا صحيح .. فان السودانى اذا فكر فى مغا
وطنه ، اتجه شمالا الى القاهرة .. والمصرى أيضا يتجه شمالا
ولا يعرف عن الجنوب الا قليلا . ولكن ذلك لا يضعف الصلا
الانسانية العميقة للشعبين اللذين يجمعهما وادى النيل .. والسود
فى مصر يشعر أنه فى وطنه وأرضه والمصرى فى السودان لا يشـ
مطلقا أنه غريب .. وكثير من أبناء مصر ينتشرون فى أنحاء السود
وأقاموا هناك منـــذ تاريخ طويل كأنهم لم يبتعدوا عن الدلتا
الصعيد ..

تحرك المصريون الى الجنوب فى ألفة ، وهم الذين لم يعتاد
الهجرة وربطت بينهم وبين شعب السودان صلات وذكريات تاريـ
توطدت على مر الزمن .

المادة ٢٤ من اللائحة الأساسية التى تقدمت بها وزارة شر
الى مجلس شورى القوانين فى ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ كانت تنـ
على الآتى :

« ان أعضاء مجلس النواب لا يزيدون عن ١٢٠ نائبا بما فـ

نواب السودان » .

وكانت المادة ٨ تقول « كل نائب يعتبر وكيلا عن عموم الأمة المصرية وليس فقط عن الجهة التى انتخبته » .

ونصت المادة ٢٥ من لائحة الانتخابات على انتخاب ٢٦ نائبا عن السودان .

صحيح ان بعض الحكام الذين أوفدتهم الحكومة المصرية سواء فى ذلك المصريون أو الأجانب قد تميزوا بسوء الادارة ، ولكن ذلك كان يلحق بالمصريين كما يلحق بالسودانيين تماما .

وثورة عرابى ضد الخديوى توفيق وبقايا الحكم التركى والتدخل الاستعمارى البريطانى فى مصر التقت مع ثورة المهدى التى نشبت ضد ظلم الادارة سنة ١٨٨١ والتى انتصرت سنة ١٨٨٥ وجعلت السودان أول بلد عربى افريقى مستقل .

وكان واضحا منذ ثورة المهدى أن الاستعمار البريطانى يهدف الى قطع الصلة التاريخية بين مصر والسودان ، كما حاول منذ اللحظة الأولى أن يسحق الجيش المصرى .

احتلت القاهرة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

وألغى الخديوى توفيق الجيش المصرى بمرسوم صـــدر بعد خمسة أيام فى ١٩ سبتمبر !

ثم عهد توفيق أيضا بتنظيم جيش جديد الى السير فالنتين بيكر .. وعين السير ايفلين دود سردارا أو قائد عاما للجيش فى ١٦ يناير سنة ١٨٨٣ وظهرت بدعة البدل النقدى للاعفاء من التجنيد بمرسوم صدر فى ٩ يونيو سنة ١٨٨٦ .

نصيحة استعمارية باخلاء السودان

وسحب الخديوى آخر قائد مصرى فى السودان ــ عبد القادر باشا حلمى ــ واستبدله بهيكس باشا الذى عين رئيسا للأركان فى الجيش السودانى ..

وبعد هزيمة هيكس باشا من المهدى يوم ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ .. نصحت الحكومة البريطانية مصر باخلاء السودان .

رفض شريف باشا ..

وهنا أرسل اللورد جرانفيل وزير المستعمرات برقيته الشهيرة فى يناير سنة ١٨٨٤ يقول فيها « لا أرى حاجة الى أن أوضح لكم أنه من الواجب ما دام الاحتلال البريطانى « المؤقت » قائما فى مصر أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى اسداءها للخديوى فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها ادارة مصر وسلامتها من الخطر .. ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومه البريطانية تضطرها الى أن تصر على اتباع السياسة التى تراها ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقا لهذه السياسة !!

واستقال شريف باشا فى ٧ يناير سنة ١٨٨٤ قائلا « اذا تركنا السودان فالسودان لن يتركنا » .

وجاءت وزارة نوبار باشا فى يوم ١٠ يناير خاضعة للاحتلال البريطانى ساجدة لأوامره ، مصدرة تعليماتها باخلاء السودان وترحيل الموظفين وسحب الحاميات المصرية التى بلغت ٢٥٫٠٠٠ جندى ، وصدر مرسوم فى ١٥ يناير بالحاق ادارة السودان بوزارة الحربية بدلا من رئاسة الوزراء .

وعين غوردون حكمدارا عاما للسودان لارجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار الى مصر .

وحوصر غوردون فى الخرطوم التى سقطت فى يد المهدى يوم ٢٦ يناير ١٨٨٥ ومع ذلك أعطت بريطانيا لنفسها حق توزيع أراضى السودان ..

أبرمت اتفاقيات ومعاهدات تنازلت بموجبها عن مساحات كبيرة من أراضى القطر الشقيق .. الذى كانت تمتد حدوده الى خط الاستواء فى عهد الخديوى اسماعيل وتوفيق .

عقدت معاهدة مع ايطاليا فى ١٥ ابريل سنة ١٨٩١ ، ٥ مايو ١٨٩٤

ومعاهدة أخرى مع ألمانيا أول يوليو سنة ١٨٩٠ .

وثالثة مع الكونغو فى ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ .

وهكذا حقق الاستعمار البريطانى رغبته بقطع الصلة التاريخية بين مصر والسودان ليعودويضع السودان من جديد تحت نفوذه بجنود مصرية يقودها بريطانيون ..

عودة الاستعمار الى السودان

كان الخديوى توفيق عميلا بريطانيا ينفذ أوامر الحكومة البريطانية بلا تردد ..

وعين اللورد كيتشنر سردار الجيش المصرى قائدا للحملة التى انتهت بدخول أم درمان يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ بعد فترة حكم مستمر للمهدى عقب انتصاره فى سنة ١٨٨٥ ..

وبعد يومين صدر التبليغ التالى :

• نظرا للمساعدات المادية برفع العلم البريطانى بجانب العلم المصرى فى البر والبحر بجميع أنحاء السودان ماعدا مدينة سواكن فلا يرفع الا العلم المصرى فقط لأن القوات المصرية كانت تعسكر هناك

• حكومة جلالة الملكة تعتبر أن لصوتها الغلبة فى جميع المسائل المتعلقة بالسودان .

• ووقعت اتفاقية السودان التى كانت تقرن دائما باسم المشئومة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ .. وقع عليها اللورد كرومر عن الجانب البريطانى .. وبطرس باشا غالى عن الجانب المصرى .

ومن واجبنا أن نتساءل وصولا الى الحقيقة :

لماذا أصر الاستعمار البريطانى على اخلاء السودان من المصريين ؟ ثم .. لماذا عاد واحتله من جديد بجنود مصريين وقادة بريطانيين ؟!

كانت خطة الاستعمار البريطانى تقضى بقطع الصلة بين مصر والسودان نهائيا ، وتحويله الى مستعمرة بريطانية تعطى عمقا لمستعمراته فى شرق ووسط أفريقيا .

والعلاقة التى كانت قائمة لم تكن تسمح مطلقا بتنفيذ هذه الخطة .. فان وجود الجنود والاداريين المصريين — رغم شبهته الاستعمارية وكراهية الأحرار له — كان يمثل ارتباطا تاريخيا قائما بين الشعبين ، ولم يكن يسمح للمستعمرين بأن يقيموا سياجا حديديا يعزل السودان عن مصر عزلا نهائيا .

وبدأ الاستعمار البريطانى فى تنفيذ خطته ، ولا نريد أن نؤكد أو ننفى الواقعة التى تقول بأنه كان يمكن للاستعمار البريطانى أن يدخل الخرطوم بقوات جديدة من مصر يحرر بها غوردون .. ولكننا نقول فقط انه لم يكن عاجزا عن ذلك ..

وأراد الاستعمار البريطانى أن يكسب السودان صفة الدولة التى لا يستعمرها أحد فى أفريقيا لمدة سنوات تبعد به صلتها عن مصر وتتلاشى العلاقات الشعبية الوثيقة بينهما بصفة تدريجية .. ثم يهجم عليه من الجنوب .. من كينيا وأوغندا ليحتله بقواته ويصبح مستعمرة بريطانية كاملة لا صلة لها بمصر .

كان الاستعمار البريطانى يريد أن يقيم « عازلا زمنيا » بين مصر والسودان ..

ولكن عاملا هاما لم يكن قد دخل ضمن خطة الاستعمار البريطانى انقض عليها ، وقلبها رأسا على عقب .

كانت فرنسا تزحف على أفريقيا من الغرب .. ولما كان السودان

بعد سنة ١٨٨٥ يعتبر دولة مستقلة فانها قررت أن تحتله وزحفت عليه بعثة مارشان حتى وصلت الى حدوده عام ١٨٩٨ .

وهنا جابه الاستعمار البريطانى موقفا اضطره الى تصرف سريع لم يكن الوقت كافيا للقيـــام بهجوم من الجنوب لصعوبات فى النقل البحرى والبرى وصعوبات جغرافية أيضا .

ولذا فقد اضطر الاستعمار البريطانى لاستخدام الجنود المصريين حتى يظهر أمام الاستعمار الفرنسى أن مصر هى التى تعود الى هناك

كانت هذه الحجة بالاضـــافة الى ضيق الوقت الذى لا يسمح بهجوم من الجنوب هما العاملان اللذان حركا الاستعمار البريطانى فجأة للقيام بهذا الهجـــوم ، والوصول الى صيغة « الاحتلال ــ المشترك » التى لم يعرفها العالم من قبل !

وفى مواجهة مطامع فرنسا ورغبة فى تقسيم أفريقيا بين الدولتين عقدت معاهدة سنة ١٩٠٤ التى أعطت انجلترا حق التصرف فى مصر والسودان وأعطت فرنسا حق استعمار دول المغرب العربى « تونس والجزائر والمغرب » .

كان هدف الاستعمار واضحا فى القضاء على العمق العربى الكبير الممتد الى قلب أفريقيا حتى لا تعود من جديد مظاهر القوة التى لمعت بشائرها فى عهد محمد على ثم سرعان ما انطفأت بضغط الدول الكبرى وخطأ سياسته التوسعية .

وفى تيار النضال ضد الاستعمار البريطانى التقت الادارة المصرية والادارة السودانية ، وامتزجت الدماء والتضحيات ..

ورغم تكوين ثورة المهدى لحكومة مركزية ، فان الشكل القبلى

للسودان ظل قائما ، وان كان قد اهتز بالتحولات التى أحدثها دخول الاستعمار ، وهو الذى ظل حريصا على الاحتفاظ بالنظام القبلى تسهيلا لمهمته فى السيطرة على البلاد ، وتحقيق مبدئه السياسى الشهير (فرق تسد) .

بعد عشر سنوات من الاستعمار ثارت قبيلة الحلاوين بزعامة عبد القادر ودحبوبه سنة ١٩٠٨ وحدثت انتفاضة ملك الزاندى فى الجنوب ثم سارت عدة قبائل سنة ١٩١٧ ، ولكن تلك الثورات فشلت لأنه لم يتوافر لها النفوذ المادى والروحى الذى توفر لثورة المهدى ولأنها ظلت محصورة فى اطار القبيلة عاجزة عن تحقيق تعبئة جماهيرية واسعة ..

يتوافق ذلك مع نضال الحزب الوطنى المصرى بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد الزعيم الذى كان يعلن فى المحافل الدولية وأمام شعب مصر ضرورة اقامة علاقة أخوية وثيقة بين القطرين .

ومع ذلك بدأت تظهر فى السودان طبقات وفئات جديدة عندما أصبحت التجارة مهنة رائجة بعد دخول الاستعمار واغراقه للأسواق بمنتجاته وهنا ظهرت فئة « الرأسمالية الوطنية » من التجار ، وتحولت أيضا طائفة المهدى الى دائرة اقتصادية كبيرة متعاونة مع الاستعمار ، جعلت الناس الذين تعلقت آمالهم بهم واعتبروا من أنصارها ينظرون الى القصور والحدائق ويقولون « لو كان المهدى حيا لثار ضد الطائفة ودائرتها » فلم يترك المهدى الملك لعائلته كما يقول الدكتور يوسف محمد بشارة فى كتابه « حول قيام التنظيم الشعبى لثورة مايو » قصرا ولا باخرة ولا طائرة بل سيفا ودرعا

وراثيا كانت كل ما يملك بجانب حبه لوطنه وجنده .

وفى عام ١٩١٩ ركبت الطبقة المتوسطة فى مصر موجة الثورة الشعبية ضد الاحتلال البريطانى ، وأدى هذا الى تشجيع الادارة المصرية فى السودان لكل الحركات المضادة لبريطانيا .. ولعب الموظفون المصريون فى مدن السودان المختلفة دورا ملحوظا فى التعاون مع المواطنين السودانيين من أجل اثارتهم ضد الاستعمار .

وقد حاول الاستعمار أن يفرق بين ثورة مصر والسودان ، فأعلن سير لى ستاك الحاكم البريطانى الثالث الذى تولى عام ١٩١٦ بعد ونجت وكتشنر قائلا ان آلافا من الخطابات قد وصلته من شخصيات سودانية تطلب فيه ألا يسمح بتسرب الفوضى !

ولكن بدأت الطبقة الوسطى السودانية تشكل تنظيماتها السرية لمقاومة الاستعمار ، منادية بوحدة وادى النيل .. وقامت مظاهرات فى الخرطوم عام ١٩١٩ ، وبعد صدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذى قرر انهاء الحماية على مصر والاعتراف بها دولة مستقلة مع الاحتفاظ بحق تولى البريطانيين لأربعة أمور كان السودان احداها .

ولكن الحكومة المصرية رفضت ذلك .. وكانت تقدم أوراق مبعوثيها لكل الدول فى الخارج باسم ملك مصر والسودان وصاحب دارفور وكردفان ، أما الى انجلترا فان أوراق المبعوث المصرى لم تكن تحمل هذه الكلمات !!

اللواء الأبيض

وتكونت فى هذه المرحلة جمعيات سودانية خارجة على النطـاق القبلى معتمدة على أسس سـياسية ولكنها لم تكن متطلعـة الى أهداف اجتمـاعية .. تنـادى بالوحـدة مع مصر .. وكان أبرز قادتها الملازم أول على عبد اللطيف من الكتيبة التاسعة السودانية الذى طلب أن يقسم الجيش السودانى يمين الولاء للعرش المصرى .. وفى ١١ مايو سنة ١٩٢٢ أذاع منشورا بعنوان « مطالب الأمة السودانية » نشرته جريدة الأخبار فى القاهرة ، يطلب فيه استقلال السودان وضمه الى مصر فقبض عليه وحوكم بتهمة اثارة الشغب والاضطراب ، ففصل من الجيش وسجن لمدة عام ، ثم خرج من السجن فى أبريل سنة ١٩٢٣ وهو أشد مايكون حماسة لفكرته وكراهية لبريطانيا ..

ونشرت جريدة الأهرام يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٢٢ خبرا عن تكوين هيئات الدفاع عن السودان والاتحاد السودانى .

وبعد شهر واحد من خروج على عبد اللطيف من السجن أعلن فى اجتماع عام لم يحضره مصريون تكوين جمعية (اللواء الأبيض) التى انتشرت فى مدن كثيرة بشمال السودان واختارت علما أبيض رسمت عليه خريطة النيل ، وفى ركن منها العلم المصرى الأخضر وقد كتب على أرضيته البيضاء « الى الأمام » وبدأت المظاهرات

فى مصر تنادى «النيل لايتجزأ» وقال على عبد اللطيف « لهذا الشرف عملت ، وفداء للوطن ولدت، وللوحدةالمصرية السودانية جاهدت» .

وقررت الجمعية ارســال وفد لمصر ينقــل للبرلمان فيهــا رأى السودانيين فى مســتقبل بلادهم ، وتمــكن الوفــد من الهــرب من الرقابة الانجليزية الا أنه اعتقل فى حلفا وعاد تحت حراسة مشددة الى الخرطوم ، حيث استقبله فى المحطة حشد كبير من المواطنين على رأسهم على عبد اللطيف .

وأمام هذا الموقف ناقش البرلمان المصرى قضية احتجاز الوفد السودانى فى جلسة عاصفة ، وانتقلت المناقشة أيضا الى مجلس اللوردات البريطانى فى جلسة ٢٥ يوليو ١٩٢٤ ، مما وضع القضية أمام الرأى العام العالمى .

وقامت مظاهرة أخرى فى أم درمان بعــد تشييع جنازة مأمور أم درمان المصرى عبــد الخــالق حسن وكان اداريا مصريا يتميز بوطنيته ومساندته للنضال السودانى .

ووقف الشيخ عمر دفع الله ينادى بحياة الأمة المصرية والسودانية ووحدة وادى النيل وحياة سعد زغلول ، فحكم عليه بالسجن ستة شهور ..

ثم مظاهرة أخرى يوم ٢٣ يوليــو فى الخرطوم هتفت بخروج الانجليز فاصطدم بها رجال الأمن وأحدثوا عددا من الاصابات فى جماهير المواطنين ..

واشتعلت المظاهرات بعد ذلك فى العاصمة الثالثة وبور سودان وعطبرة وشندى ومدنى والأبيض .. ثم أخذت شكلها الصــدامى

المسلح يوم ٩ أغسطس ١٩٢٤ ، عندما تظاهر طلبة الكلية الحربيه بزيهم العسكرى وهم يحملون البنادق وخمسين طلقة رصاص ، ومروا بمحطة السكة الحديد ليرى المسافرون الى الاقاليم ان الخرطوم تتظاهر ضد البريطانيين .

ثم اتجهوا الى منزل الزعيم على عبد اللطيف وهتفوا بحياته وسقوط الانجليز والحاكم العام ، ثم مروا أيضا خارج سجن كوبر .

ولم يتحمل الاستعمار هذا الاتجاه الجديد .. فقبض على رئيس الجمعية على عبد اللطيف للمرة الثانية وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات فى سجن كوبر بالخرطوم .

وعاصرت هذه الثورات حرب النوير فى الجنوب أيضا التى شبت أساسا ضد الوجود الاستعمارى البريطانى .

تآمر الاستعمار ضد الوجود المصرى

وفى مصر كان هناك صراع من نوع آخر .. وزارة سعد زغلول الأولى عام ١٩٢٣ كانت موضع تآمر الاستعمار والملك منذ اللحظة الأولى باعتبارها حصادا لثورة ١٩١٩ وتعبيرا عن ارادة الجماهير .

أزمتها الأولى كانت مع الملك حول حق تعيين أعضــاء مجلس الشيوخ التى احتكم فيها الى النائب العام للمحاكم المختلطة وقتئذ ، الذى حضر جلسة مناقشة بين الملك وسعد زغلول ، انتهت الى قول زغلول « اذن سأستشير الشعب .. » وهنا رضخ الملك .

وفى هذه الوزارة قرر البرلمان حذف مبلغ ١٤٠٠٠ جنيه كانت تدفعها الحكومة المصرية لجمــارك السودان عن مهمــات وذخائر الجيش المصرى فى دخولهــا للسودان وكان ذلك بناء على اقرار الحاكم العام البريطانى .

وكان سعد زغلول حريصا على التفاوض مع بريطانيا التى غيرت من أسلوب سيطرتها المباشر بعــد ثورة ١٩١٩ وآثرت أن تحظى بشرعية لاحتلالها بدلا من الحكم السافر .. وسافر سعد زغلول فى ٢٥ يوليو ١٩٢٤ ليفاوض رمزى مكدونالد رئيس حكومة العمال ، الذى كانت حكومته تقمع الحركة الوطنيــة فى السودان « جمعية اللواء الأبيض والاتحاد السودانى وغيرها .. بوحشية بالغة » .

وأعلن اللورد بارمور فى البرلمان البريطــانى « ان الحــكومة

البريطانية لا تترك السودان بحال وهى تقدر التعهدات الواجب تحملها والتى لا يمكن تركهـا من غير أن تصاب سمعة بريطـانيا بخسارة عظمى ، وأستطيع أن أقول من غير تردد أن نظام السودان لن يسمح بتغييره ولا أن ينفذ ذلك التغيير من غير موافقة البرلمان .

وكانت هذه الكلمات صدمة شديدة لسعد زغلول الذى ذهب حاملا مطالبه التى جاء فى مقدمتها :

١ ــ سحب جميع القوات البريطانية من الأرض المصرية .

٢ ــ عدول الحكومة البريطانية عن دعواها الاشتراك بأية طريقة كانت فى حماية قناة السويس .

٣ ــ استندت مصر بحقهـا الـكامل فى السودان ، واعتبـار الحكومة البريطانية غاصبة .

وكان الجواب الوحيد عند البريطانيين هو الرفض المطلق لهذه المطالب وفشل المفاوضات بعد ثلاث جلسات فقط !

وعاد سعد يواجه المؤامرات ..

وكان واضحا ان هدف الاستعمار البريطانى ليس التخلص من الوزارة الوفدية فقط ولكنه تنفيذ سيطرته واحتلاله للسودان،وضرب الحركة الوطنية السودانية التى ربطت نفسها بالحركة الوطنية فى مصر.

وكانت الحكومة المصرية برئاسة سعد زغلول قد أبلغت الحكومة البريطانية فى ٢٥ يونيو ١٩٢٤ عن طريق مفوضيها بلندن ان بعض الموظفين البريطانيين فى السودان يشجعون حركة مصطنعة ترمى الى انفصاله عن مصر ، وانهم يقمعون بقسوة وشدة المظاهرات التى يقوم بها المواطنون الموالون لمصر والتى تدفعهم اليها تلك الحركة المصطنعة

وطلب سعد زغلول من رئيس الحكومة البريطانية أن يساعده فى القضاء على تلك الأعمال التى تجرح شعور الشعب المصرى وتمس حقوقه.

وأرسل سعد زغلول برقية بنفس المعنى الى الحاكم .

لم يجب الحاكم العام للسودان على البرقية !

وأجاب وزير الخارجية البريطانية بأن الحكومة البريطانية تؤيد الحاكم العام للسودان فى أخذ المشاغبين الذين يثيرون الاضطرابات عمدا بالشدة !

ولكن فى أوائل أغسطس ١٩٢٤ اشتد الاضطراب فى السودان ، وتظاهر طلبة المدرسة الحربية فى الخرطوم وأورطة السكة الحديد المصرية .. وأطلقت الحكومة السودانية النار على المظاهرات .

وأرسلت الحكومة المصرية خطابا فى ١٥ أغسطس تقول فيه انها تتتبع بمزيد الحزن والأسف الحوادث الأليمة التى تتوالى فى السودان منذ بضعة أسابيع والتى اعتبرتها نتيجة طبيعية لخطة الموظفين البريطانيين فى السودان .

وأجابت الحكومة البريطانية فى نفس اليوم بأنها « تريد أن تعلن الحكومة المصرية بأتم الصراحة بأنها تعد نفسها مسئولة عن حفظ النظام فى السودان »

وأضافت القول بأنها قد « اتخذت العدة لتعزز الحامية البريطانية واجازت لحكومة السودان أن تبعد فى الحال عن السودان أورطة السكة الحديد وأى وحدة أخرى من الجيش المصرى قد يرى منها عدم الولاء . كما هددت بأنها لن تتردد فى اتخاذ أى تدابير أخرى لحماية الأمن العام .

ورد سعد زغلول فى ٢٢ أغسطس ... رفض أن يكون للحاكم العام حق اتخاذ قرار بابعاد جنود مصرية أو تعزيز الحاميات الموجودة هناك قبل الرجوع للحكومة المصرية .

ثم جاء تمثيل السودان فى معرض دمبال الاستعمارى موضع رفض للحركة الوطنية السودانية التى ثارت والتهبت ، وأدت الى حدوث احتكاك مباشر بين الوزارة الوفدية والاستعمار البريطانى .

وفى فترة الصدام المسلح بين القوى السودانيةوالقواتالبريطانية أرسلت الحكومة المصرية احتجاجا تقول فيه « ان الحكومة لتشعر بشعور الأمة تلقاء هذه الحوادث المشئومة وهى ساهرة على معالجتها بما يحفظ كرامة البلاد ويصون حقوقها .

كانت هذه الكلمات تعبيرا عن موقف وطنى بصورة شكلية ، فان الحكومة المصرية لم تكن تملك وسيلة ايجابية للعمل .. ولكنها على أية حال تثبت أن الحكومة المصرية كانت تنتهز كل فرصة للتعبير عن رأيها فى أهمية بقاء الرابطة العضوية بين شعب مصر والسودان .

وفى هذه الثورة السياسية الجارفة قتل سيرلى ستاك عام ١٩٢٤ الساعة الثانية ظهرا يوم ٢١ نوفمبر بشارع اسماعيل باشا أباظة بالزمالك بالقاهرة .. فانتهزت انجلترا الفرصة وقدمت انذارين الى الحكومة المصرية التى كان يرأسها سعد زغلول تطالبها بالآتى :

أولا ــ اعتذار الحكومة المصرية عن الجناية .

ثانيا ــ ان تبحث عن الجناة وتنزل بهم أشد العقاب .

ثالثا ــ أن تمنع وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية .

رابعا ــ أن تدفع للحكومة البريطانيةغرامةقدرها نصفمليونجنيه.

خامسا ـ سحب الجيش المصرى من السودان وتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى الى قوة سودانية تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وحدها .

سادسا ـ اطلاق يد حكومة السودان فى مساحة أطيان الجزيرة من ٣٠٠٫٠٠٠ فدان الى مقدار غير محدود .

سابعا ـ أن تعدل الحكومة المصرية عن كل معارضة لرغبات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بحماية مصالح الأجانب فى مصر ، وان يعاد النظر طبقا لهذه الرغبات فى شروط خدمة الذين لا يزالون فى خدمة الحكومة المصرية وفى الشروط المالية لتسوية معاشات من اعتزلوا الخدمة منهم ، وأن تبقى منصب المستشار المالى والقضائى وتحترم سلطتهما وامتيازاتهما كما نص عليها عند الغاء الحماية وان تحترم أيضا نظام القسم الأوروبى فى وزارة الداخلية واختصاصاته وتنظر بعين الاعتبار الوافى الى ما قد يبديه مديره العام من المشورة.

وهكذا أسفرت بريطانيا عن حقيقة مطالبها بعد مقتل السردار ..

وقبل سعد زغلول البنود الأربعة من الانذار .. ورفض الباقى !

وكان قبول سعد زغلول لقمع المظاهرات الشعبية التى حملته الى رئاسة الوزارة غريبا ومثيرا .. ودليلا على أنه لم يكن يقدر قوة الجماهير التى تساند حكومته . ربما وجد فيه أسلوبا يقنع البريطانيين بتهاونه معهم .. ولكنه نسى أن ذلك الموقف قد اثر على ثقة جماهير الشعب التى تصورته مدافعا عنها وبطلا يحمى حريتها ... وارجع الوفد نفسه بذلك خطوات خلف القوى الحقيقية التى يمكن أن تدافع عنه فى مواجهة الملك والسراى .

ومع قبوله لهذا الموقف المرفوض من الشعب ، الا أن الاستعمار كان يمضى فى تنفيذ خطته بأسلوبها المرسوم .. استند الى عـدم قبول الانذار كاملا ، وتحركت القوات البريطانية ، واحتلت جمرك الاسكندرية ، واستقالت الوزارة فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٣ بعد عشر شهور فقط من توليها الحكم بعد أن قال سعد زغلول كلمته المعروفة «ان جريمة اغتيال السردار قدأصابت مصر وأصابتنى شخصيا»

وجاء زيور باشا رئيس الوزراء ، قابلا للانذار ، متساهلا فى كل شيء ، قائلا كلمته المشهورة التى جعل منها أساسا لسياسته « انقاذ ما يمكن انقاذه »

أسرعت الحكومة البريطانية لتنفيذ مخططها .. فحاصرت القوات البريطانية القوات المصرية فى الخرطوم .. ورفضت الكتيبة الثالثة السفر الا بأوامر وزير الحربية المصرى .

ولم يقف السخط والرفض عند حد القوات المصرية بل تعداه الى القـوات السودانية .. ثارت الكتيبة الحادية عشر السـودانية وتحولت الى كـوبرى الخرطوم الشمالى حيث قررت الاتحاد مع الجيش المصرى ببحرى ، وهنا خرجت قوة بريطانية حاولت منعها من الوصول ، فأمر القـائد السودانى عبد الفضيل المظ بالضرب فى البريطانيين فحصدت الذين تعرضوا لها وظلت تقـاتل حتى انتهت ذخيرتها عند منتصف الليل وهنا هجمت على المستشفى العسكرى البريطانى وقتلت بعض ضباطه ، واحتلوا نادى الضباط المصريين خلال الليل ، ولكن القـوات البريطـانية حاصرتهم وأطلقوا عليهم النيران ونسفوا المستشفى الذى أخذته القوات السودانية حصنا لها ،

وظلوا يقــاومون حتى انتهت ذخيرتهم صباح ٢٩ نوفمبر . وقتل قائدهم عبد الفضيل المظ . بينما كانت القــوات المصرية ترحــل بالقطار الى بور سودان ..

وصدر الحكم باعدام ثلاثةضباط سودانيين واعتبر يوم ٥ ديسمبر يوم حداد عام ..

ودخلت الثورة سجن كوبر مرة أخرى عنــدما علم المسجونون السياسيون بالحوادث فقدموا الى المحاكمة بتهمة محاولة قلب نظام الحكم ، وصدر حكم ثالث بالسجن لمدة ٧ سنوات ضد على عبد اللطيف غير الثلاث التى كان ينفذها وانتقل من سجن كوبر الى سجن واو .

وثارت القوات السودانية « الأورطة ١٠ » فى ديسمبر ١٩٢٤ واستولت على مدينة واو بعد سماع أحكام الاعدام ، وكذلك ثارت الكتيبة ١٣ ، والقوات السودانية فى الأبيض ، وامتنع الطلبة أيضا عن الدراسة يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٢ .. ولكن الاستعمار البريطانى استطاع فى النهاية أن يفرض نفوذه على الموقف .

وأصبح الجنود والضــباط الســودانيون يقسمون يمين الولاء للحاكم العام البريطانى ، ومع ذلك قبلت حكومة زيور أن تشترك فى نفقات هذه القوة بمبلغ سنوى مقداره ثلاثة أرباع مليون جنيه !!

ورفض ١٣ ضابطا أن يقسموا للحاكم العام البريطانى فكانت النتيجة تشريدهم وطردهم من القوات المسلحة .

وهكذا اكتملت حلقات مؤامرة الاستعمار البريطانى ضد الوجود المصرى فى السودان ...

الباب الثانى

مابعد نكسة ١٩٢٤

- براعم اشتراكية
- مابعد نكسة ١٩٢٤
- مد ثورى جديد
- مؤتمر الخريجين

براعم اشتراكية

لم تكن مؤامرة الاستعمار البريطانى ضـد الوجود المصرى فى السودان موجهة ضد الشعب المصرى الذى عزلت وزارته الشعبية برئاسة سعد زغلول فقط .. ولكنها أيضا كانت موجهة ضد الشعب السودانى ..

وهناك عدة شواهد تثبت أن المؤامرة الاستعمارية كانت تهدف الى اقامة سياج حديدى حول السودان لعزله عزلا كاملا عن بقية الدول العربية التى كانت فى ذلك الوقت أكثر صلة بالدول الأوربية وانفتاحا على أفكارها التحررية ، ومعظمها قامت به ثورات بعد الحرب العالمية الأولى ظلت نيرانها جمرا لا يخمد ..

الغريب أن قرار الحكومة البريطانية بطرد القوات المصرية من السودان قد اقترن فورا بزيادة المساحة المزروعة قطنا فى السودان بواسطة شركة بريطانية فى الجزيرة احتكرت الزراعة والشراء والحليج والتمويل والعمليات المصرفية أيضا تحت اسم نقابة زراع القطن فى الجزيرة . وتكونت شركة بريطانية أخرى هى شركة أقطان كسلا لتقدم المواد الخام الى مصانع لانكشاير ..

ذلك يؤكد أن الانذار البريطانى كان معدا قبل مقتل السردار ، لأنه من غير المعقول أن يدرس موضوع اقتصادى ويقدم عنه انذار خلال ٢٤ ساعة !

كانت بريطانيا لا تريد أن تقع مرة أخرى فيما سبق أن وقعت فيه بين عامى ١٨٦١ ، ١٨٦٥ عندما حدث ماسمى وقتها « مجاعة القطن » بعد الحرب الأهلية الأمريكية حيث كانت بريطانيا تعتمد على قطن أمريكا الذى منعته عنها ظروف الحرب الأهلية خلال هذه السنوات ..

كان الاستعمار البريطانى لا يكتفى بقطن مصر وانما يطلب احتكارا جديدا لقطن السودان .

وفى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات انفجرت أزمة الاقتصاد الرأسمالى على نطاق عالمى وعانى الشعب السودانى من ذلك معاناة شديدة .. انهارت أسعار القطن والسلع الزراعية انهيارا تاما .. وتقلص حجم تجارة السودان من ١٣٫٥ مليون جنيه الى ٢/١ ٥ مليون ، وخفضت الأيدى العاملة وعدد الموظفين بنسبة من ٥ ٪ الى ١٠٪ .. ونقصت أرقام الميزانية السودانية من ١١ مليون سنة ١٩٢٦ الى ٩ مليون سنة ١٩٣٠ الى ٧ مليون سنة ١٩٣٢ مما أدى الى وقف جميع الانشاءات ..

والحقيقة أن الفصل الذى فرضته الادارة البريطانية على العلاقات المصرية السودانية قد أثر فى كثير من المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .. واقتصرت أهداف الاستعمار البريطانى على احتكار القطن كمادة خام تحتاجها مصانعه .. ولم يحاول طوال سيطرته على مقدرات الشعب السودانى أن يكتشف ثرواته المعدنية أو يطور وسائل الرى أو يضع أساسا للتصنيع ، وترك كل وسائل الانتاج الصناعى أو الزراعى فى صورتها البدائية .

كذلك كانت الحـرب العالميـة الأولى قـد أثرت على الحالة الاقتصادية فى مصر فظهرت مصانع كبيرة للدباغة والغزل والنسيج وانتشرت معاصر الزيوت وورش سبك الحديد والمحلات التجارية ... وأثرى بعض التجار الوطنيين ثراء كبيرا .

وعموما تطورت الرأسـمالية المصرية وبدأت تفـرض وجودها الاقتصادى .. واهتمت بالصناعة بعد أن أكسبها وقف الواردات خلال الحرب خبرة الربح الوفير من الصناعة المحلية .

وعندما ظهر طموح هذه الطبقـة الناشئة فى الوصول عن طريق نفوذها الاقتصادى الى مكاسب سياسية .. ظهـرت بذور تناقض بينها وبين الاستعمار .. حيث بدأت تتدفق السلع الأجنبية بعـد الحرب لتغرق السوق المصرية .. حتى اضطرت صناعات كثيرة ناشئة الى اغلاق مصانعها وورشها .

وكانت الثورة الاشتراكية العظمى التى اندلعت فى روسـيا ذات تأثير شديد أيضا على الحياة السياسية فى مصر .. وظهرت مواقف محمد فريد الاشتراكية التى بدأت عام ١٩١١ عندما دعا الى ربط الحركة الوطنية المصرية بحركة السلام العالمى .. ودعا الى تأسيس (جمعية سلام فى وادى النيل) وليس فى مصر فقط ..

وأيد الاتحاد السوفييتى ثورة ١٩١٩ بخطاب الى سعد زغلول .

وهنا بدأت تظهر فى مصر براعم منظمات اشتراكية بعد الحرب مباشرة ..

تأسس الحزب الاشتراكى عام ١٩٢٠ وتـكون سرا الحـزب الشيوعى المصرى الذى نشرت جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ١٤

فبراير ١٩٢١ برنامجه الذى يقول :

وكان الحزب يعمل على استقلال وادى النيل بأسره اســتقلالا خاليا من كل شائبة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

ثم يطالب بالمطالب التقدمية التالية :

١ ــ جلاء الجنــود الانجليزية عن مصر والســودان وعــدم الاعتراف للغاصب بأى مركز ممتاز .

٢ ــ عدم الاعتراف بالمعاهدات والاتفاقيات التى أجريت خلسة من الشعب وعلى كره منه .

٣ ــ جعل قناة السويس ملكا للامة .

٤ ــ تعديل الدستور وقانون الانتخاب حتى تصبح الأمة مصدر السلطة الحقيقية .

ثم يمتد البرنامج بعد ذلك ليشمل نقاطا اجتماعية تتصل بحقوق العمال والفلاحين والنساء مع المطالبة بالاعتراف بالاتحادالسوفييتى وطلب محاكمة أذناب الاستعمار من كبار المصريين ..

وأخذ هذا الحزب الوليد الذى يقال إن أعضاءه قد وصلوا فى ذلك الوقت الى حــوالى ٢٠٠٠ عضـــو الى جانب الاتجـاهات الاشتراكية التى تبناها عدد من المثقفين تثير قلق المستعمرين وأشار الى ذلك وزير خارجية انجلترا فى احدى خطبه بعد اشتعال ثورة ١٩١٩ .. كما أن لجنة للتوفيق بين العمال وأصحاب الأعمال تكونت وجاء فى أول تقرير لها فى نوفمبر ١٩٢٠ مايشير الى « تسرب العناصر البلشفية الى صفوف العمال » .

وخشيت الحكومة البريطانية من سيطرة هذه الأفكار الاجتماعية

على الحركه السياسية فأصدرت عن طريق الحكومة مادة جديدة فى قانون العقوبات تضع قيودا جنائية على نشاط الطبقة العاملة ، وتحظر الاضراب قبل اخطار سابق بخمسة عشر يوما على الأقل واعتبار الاضراب المفاجىء جريمة !

وعمدت أيضا الى مصادرة جريدة الحزب الشيوعى التى كانت تسمى « الحساب » وحاكمت قيادته وعددا كبيرا من أعضائه .

هذه البشائر التى برزت مع الثورة الوطنية كانت عند الاستعمار البريطانى خطرا رهيبا يجب منعه من التسرب الى السودان ، هذا البلد الذى أراد الاستعمار أن ينفرد به انفرادا كاملا ، ليسيطر على مقدراته الاقتصادية ، وخاصة القطن الذى أراد أن ينافس به القطن المصرى بعد توقعه حدوث انفجارٍ وطنى آخر فى أية لحظة .

هذا الى الصلة الجغرافية الوثيقة التى تربط السودان بالمستعمرات البريطانية الأخرى فى كينيا وأوغندا .. وهى بلاد كانت خلف ستار فولاذى رهيب ، فرضه الاستعمار ليسلب خيرات هذه الدول مئات الأعوام بلا حساب .

لذلك قضى الاستعمار البريطانى والحكومات الرجعية فى مصر بما فيها حكومة الوفد قضــاء مبرما على البراعم الاشتراكية التى ظهرت فى مصر خلال عام ١٩٢٤ الذى اعتبر عام نكسة وطنية .

مابعد نكسة ١٩٢٤

عقب نكسة ١٩٢٤ بدأ الاستعمار البريطانى يشـــدد ضـغطه ومصادرته للحريات ، ودعم القيادات الرجعية وتنمية روح الطائفية وتركيز السلطة فى أيدى المفتشين البريطانيين ..

وخصصت زوجة سير لى ستاك الغرامة التى دفعتهـا الحكومة المصرية ــ نصف مليون جنيه ــ لانشــاء ٤٠ كنيسة فى جنــوب السودان تعج بالمبشرين الأجانب ..

وانحسرت تبعا لذلك موجة النشاط الثورى للمثقفين السودانيين الذين زهد بعضهم فى جدوى الكفاح ، وآثروا الحياة الرتيبه الهادئة ، وأصبح بعضهم بذلك رصيدا لقوى الاستعمار تتعاون تعاونا واضحا مع الادارة البريطانية ..

ونجح الاستعمار فى خلق شخصيات تفخر وتتشدق بالثقــافة الغربية ، وتحتقر الثقافة القومية والعربية .

وفى مصر أعدت وزارة زيور باشا انتخاباتها الجديدة عام ١٩٢٥ بعد حل البرلمان واستخدام صدقى باشا وزير الداخلية لكل أساليب الضغط والمطاردة وتعديل الدوائر ، واعادة نظــام الانتخاب على درجتين ومع ذلك أتى الشعب ببرلمان وفدى مكون من ١٢٣ وفديا مقابل ٨٥ دستوريا واتحاديا !

ولم يطق الاستعمار البريطانى عودة الوفد للحكم من جــديد

لأسباب كثيرة كان فى مقدمتها كشف خطتـــه فى عزل مصر عن السودان .

وكان أن حل البرلمان بعد تسع ساعات فقط من انعقاده !

ورغم ذلك اجتمع البرلمان يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ فى فنـــدق الكونتيننتال حيث كان يقيم أحمد باشا زيور نفسه ، وأخـــذت جموع الشعب تحيى أعضاء البرلمان الذى عبر باجتماعه عن الكفاح الديموقراطى للجماهير .

وسقط زيور وجاء محمد محمود صاحب القبضة الحديدية عام ١٩٢٨ فعطل الحياة النيابية وألغى مائة رخصة صحفية وظل يواصل حكمه الارهابى ما يقرب من ثلاث سنوات .

وهب الشعب يكافح من أجل الدستور .. ومن أجل أهدافه المهددة ..

وذهبت فترة حكم محمد محمود والاستعمار يكبت كل محاولة شعبية للظهور .. ولما استنفذ أغراضه من صـــاحب « القبضـــة الحديدية » استبدله بوجه جديد .. اسماعيل صدقى وزير داخلية زيور .

عين رئيسا للوزراء عام ١٩٣١ ، وهب الشعب المصرى ضـــده يقاوم حكمه الارهابى ويطالب بعودة دستور ١٩٢٣ .. وأخـــذ الوفد يطوف بالأقاليم فيستقبله الشعب استقبالا حافلا .. وسقط الضحايا فى عدد من البلاد .. قتل أربعة فى المنصورة وجرح ١٤٥ .. وقتل ثلاثة من رجال البوليس والجيش الذى حول صدقى اتجاهه ليضرب الشعب بالرصاص وسقط فى الاسكندرية عشرين قتيلا ،

٥٠٠ جريح .. والتهبت المظاهرات فى منطقة القناة .

وظهرت الطبقة العاملة تؤدى دورا بارزا فى هذا الكفاح .. أضرب عمال عنابر بولاق والورش الأميرية عن الاشتراك فى انتخابات ١٤ مايو ١٩٣١ ، وتظاهروا احتجاجا ، وقوبلت مظاهرتهم بالرصاص ، وسقط — حسب الاحصائيات الرسمية — ١٣ قتيلا و ١٩ جريحا دفنوا دون أن تسلم الجثث للاهالى ، محاولة من صدقى فى اخفاء حقيقة عدد القتلى .

وهب الفلاحون أيضا يدافعون عن الحياة الدستورية الصحيحة ، ويقاومون انتخابات صدقى المزورة التى اتهت ببرلمانه المتهالك .

وأصبحت اعادة دستور ١٩٢٣ مطلبا شعبيا

وسقط صدقى .. وتولى من بعده عبد الفتاح يحيى وتوفيق نسيم

واستمرت مظاهرات الطلبة تعبر عن اصرار الشعب على اعادة الحياة الدستورية ووقف التدخل البريطانى فى الشئون الداخلية للبلاد ..

وارتفعت هتافات تقول « يسقط هور ابن الثور » عندما صرح وهو وزير خارجية بريطانيا يوم ٩ نوفمبر ١٩٣٥ بقوله : « إنه عندما استشيرت الحكومة البريطانية فى شأن الدستور نصحت بألا يعاد دستور ١٩٢٣ ، ولا دستور ١٩٣١ ، اذ ظهر أن الأول غير صالح للعمل ، والثانى لا ينطبق على رغبات الأمة ! » ..

هكذا كانت وزارة توفيق نسيم تستشير الانجليز فى كل شىء .. رغم أن مصر كانت دولة مستقلة ولو بصفة شكلية تبعا لتصريح ٢٨ فبراير ! ..

فظهر فى هذه الفترة السيئة من تاريخ الشعب المصرى أنه قـد تسلطت عليه أعمدة الحكم الرجعى الارهابى الذين ارتبطوا بالاستعمار البريطانى فى تبعية كاملة ، وعبروا تمام التعبير عن مصالح الطبقـة الاقطاعية والماليـة الجـديدة التى كانت ألعـوبة فى يد الشركات الاحتكارية الأجنبية التى سيطرت سيطرة شبه تامة على الحيـاة الاقتصادية المصرية .

***

فقد الشعب المصرى مكاسب ثورة ١٩١٩ ، ودسـتور ١٩٢٣ وسقط صريع الأزمة العالمية التى أنهكت قواه .. ومع ذلك فان كفاحه ضد الارهاب لم يخمد لحظة ومظاهراته ضد هذا النوع من الحكام لم يتوقف ، وكان سقوط الشهداء علامة بارزة من علامات الثورة المنطلقة ، كما أن ظهور العمال كقوة ايجابية لها رأى فى الحياة السياسية ، الى جانب اشتراك الفلاحين فى مقاومة الانتخابات المزيفة أعطى بعدا جديدا للثورة .

كل هذه المظاهر تؤكد أن الشعب المصرى قد تعرض فى فترة مابعد ١٩٢٤ وسقوط وزارة سعد زغلول ، والفصل التعسـفى للصلات الوطيدة بين الشعبين المصرى والسودانى ، الى حكم ارهابى شديد ، جعل مقاومته تستغرق اهتمامه الكامل .

مد ثورى جديد

واستمرت هذه الفترة ١٢ عاما طويلة انتهت بمد ثورى جديد عندما وصلت مظاهرات الشعب الى ذروتها فى نوفمبر ١٩٣٥ وكان أول الشهداء العامل اسماعيل محمد الخالع ثم طلبة الجامعة محمد عبد المجيد مرسى ومحمد عبد الحكم الجراحى وعلى طه عفيفى من القاهرة وعبد الحليم عبد المقصود من المعهد الدينى بطنطا .

وأعلن الحداد العام فى مصر يوم ٢٨ نوفمبر وأقام الطلبة نصبا تذكاريا لشهداء الجامعة يوم ٧ ديسمبر ١٩٣٥ .

وكان نوفمبر وديسمبر شهرى مظاهرات مستمرة متصلة تهتف بالاستقلال والحرية والدستور .

ويلاحظ دائما أن فترات المد الثورى تجتاح مناطق كثيرة فى العالم فى وقت واحد .. فمثلا عندما ثار الشعب المصرى والسودانى عام ١٩١٩ كانت هناك ثورات أخرى فى العراق وسوريا والهند والصين وكوريا وألمانيا وغيرها من مناطق العالم كرد فعل للحرب العالمية الأولى بانتصار الثورة الروسية .

واذا كان هذا المد الثورى قد انتكس عام ١٩٢٤ فى مصر والسودان بتدبير من الاستعمار البريطانى .. فان موجة المد الثورى التى بدأت فى سنوات ١٩٣٥ قد صاحبت حرب الصينيين ضد الاحتلال اليابانى وكذلك الحرب الأهلية الأسبانية وتكوين الجبهة

الشعبية فى فرنسا ..

وصاحب هذه الموجة ظهور بشائر جديدة لتنظيمات تقدمية بعد أن كانت قد صفيت تماما فى عام ١٩٢٤ .

فى هذه الفترة شكلت نوادى تحمل أفكارا جديدة ، وشكلت أيضا « عصبة السلام » .. كما بدأ كثير من أساتذة الجامعة الأجانب، انجليز ، وفرنسيين ، وسويسريين ، يبثون أفكارا اشتراكية متأثرين بضرورة محاربة الفاشية التى بدأت الاحتكارية العالمية تتخذ منها سلاحا جديدا ..

ولم يجد الاستعمار سبيلا بعد ظهور خطر احتمال حرب عالمية جديدة ، وغزو ايطاليا للحبشة ، إلا إمتصاص الثورة الشعبية المصرية الوليدة فى معاهدة ١٩٣٦ التى تمت بعد تكوين جبهة وطنية رأسها مصطفى النحاس الذى وجد فيها السبيل الوحيد لعودته الى الحكم بعد أن طال إبعاد الاستعمار والسراى له .

وقال مصطفى النحاس انها معاهدة « الشرف والاستقلال » وهى فى طبيعتها لم تخرج عن معاهدة تحالف مع بريطانيا .

وكان ماحققته بالنسبة للسودان هو عودة قوات الجيش المصرى الى هناك .. وخلقت رباطا شكليا بين البلدين يتيح للدوائر الحاكمة فى مصر بعض السلطة فى السودان ، ولكنها أغفلت دور السودانيين فى حكم بلادهم ، فأحدثت بينهم نوعا من خيبة الأمل .

مؤتمر الخريجين

خلال الفترة التى أعقبت نكسة ١٩٢٤ حاول الاستعمار البريطانى أن يفرض تفكيره وارادته على الشعب السودانى ، وأن يخلق طبقة ترتوى من فكره

فتح « كلية غوردون » عام ١٩٣٠ لتخريج موظفين سودانيين .. ومما يذكر أن الدفعة الأولى فيها كانت ٩١ طالبا سودانيا ، ٥٨ طالبا مصريا ..

وبدأت هذه الكلية تخرج طبقة من المثقفين ، اعتبرتها الجماهير أملا لها ، خاصة بعد العزلة الشديدة التى فرضت على العلاقات مع مصر ..

وانتهز المثقفون فرصة عقد معاهدة ١٩٣٦ وعودة العلاقات بين البلدين الى صورة شبه طبيعية ، وكونوا مؤتمر الخريجين عام ١٩٣٧، وضموا اليه الطلاب والبرجوازية الوطنية وصغار الموظفين .. وعقد مؤتمره الأول فى فبراير عام ١٩٣٨ الذى حضره ١١٨٠ خريجا

قرر المؤتمر أن يسير على نهج اصلاحى يعتمد على خريجى المدارس فقط ، ولا يفتح أبوابه لجماهير الشعب السودانى العاملة التى كانت تئن تحت ضغط الأزمة الاقتصادية

تم فى المؤتمر الأول تكوين مجلس ادارة من ٦٠ عضوا تختار انتخبوا من بينهم ١٥ عضوا كهيئة تنفيذية ، كان سكرتيرها العام

السيد اسماعيل الأزهرى ..

واتفق فى هذا الاجتماع أيضا على الأهداف الآتيه التى تظهر مجالات اهتمام مؤتمر الخريجين :

١ ــ الشئون الاجتماعية مثل الاحسانات ورعايةاليتامى والفقراء

٢ ــ الأمور التى تهم الصالح العام فيما لايدخل فى اختصاص الحكومة ..

ولكن تطور الأحداث أدى الى تسرب السياسة الى اهتمـامات المؤتمر وتطور أهدافه .. وصدور صحيفة تحمل اسم « المؤتمر » عام ١٩٣٩ ..

وهنا يجب الاشارة الى أن الدوائر الحاكمة المصرية من الاقطاعيين والرأسماليين كانت تنظر الى السودان خلال مصلحتها الخاصة .. حرية التملك والمشاركة فى الادارة .. ومحاولة وضع الرعايا المصريين على قدم المساواة مع الرعايا البريطـانيين أو فتح باب الاستثمار والتجارة .

لم يتفهم الحكام المصريون حقيقة التطورالاجتماعى والسياسى فى السودان .. ولم يتقدم مفاوض اتفاقية سنة ١٩٣٦ خطوة واحـدة جديدة عن اتفاقية سنة ١٨٩٩ .. وظل البريطانيون منفردين بحـكم السودان .. ويعملون غاية جهدهم على الاساءة الى المصريين .

***

ويبدو أن الاستعمار البريطانى كان يخطط ذلك بذكاء .. اذ أنه بدأ يعمل وسط دوائر الخريجين ليوجه نشاطهم ضد مصر الشريك الضعيف الذى كانت عاصمته لاتزال محتلة بالجنود البريطانيين ..

كان الاستعمار يثير بعض المثقفين السودانيين ضد مصر .. ساعد على ذلك .. موقف الدوائر الحاكمة فى القاهرة السلبى من نتائج ثورة سنة ١٩٢٤ .. ولم يكن أعضاء المؤتمر بقادرين على التفريق بين جماهير الشعب المصرى التى ترتبط معهم فى نضال مشترك ضد الاستعمار وبين الدوائر الاقطاعية والرأسمالية الحاكمة فى مصر ، والتى كان يسيل لعابها للاشتراك الفعلى فى حكم السودان .

مثلا .. ظل على عبد اللطيف فى السجن حتى أفرج عنه مصطفى النحاس سنة ١٩٣٧ ولكنه لم يصل الى مصر الا عام سنة ١٩٣٨ .. فى عهد محمد محمود حيث دخل مستشفى الأمراض العقلية بعد كثرة مالاقاه من عذاب واضطهاد ، وقرر له باشوات مصر معاشا هزيلا قدره خمسة جنيهات وقدم عنه بعض النواب سؤالا برلمانيا أدى الى رفع قيمة المعاش ..

وأمام الضغط الشعبى المصرى لرفع الظلم عن على عبد اللطيف قام الدكتور نجيب اسكندر وزير الصحة بزيارته فى المستشفى حيث نقله من الدرجة الثانية الى الدرجة الأولى .. وظل فى المستشفى حتى توفى فى ٢٩ مايو سنة ١٩٤٨ ..

***

هكذا عاملت الطبقة الحاكمة المصرية المنهارة بعض أصحاب الأفكار المرتبطة بمصر فى اطار نضال مشترك ضد الاستعمار .. الأمر الذى أدى الى تنمية بذور العداوة ضد مصر بطريقة مجردة .

ووضعت الرجعية المصرية الحاكمة أحد أعضاء جمعية الاتحاد السودانى « عرفات محمد عبد الله » فى سجن بأبو زعبل فعاد الى

السودان ناقما ومعارضا بعد أن كان مؤيدا للاتحـاد مع مصر ..
وكذلك عبد الله خليل أحد زعماء حزب الأمة ، بدأ حياته أيضا فى هذه الجمعية ، ولكن الاسـتعمار مع تصرفات الرجعيـة الحاكمة استطاعا أن يوقعاه فى شرك العداوة للكفاح المشترك .

الباب الثالث

أثر الحرب العالمية الثانية

- قيادات تجاوزتها المرحلة
- الحركة السودانية للتحرر الوطنى
- مأساة الاستعمار البريطانى فى السودان
- حرب فلسطين

قيادات تجاوزتها المرحلة

أعلنت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ بعد سنوات من معاهدة ١٩٣٦ وأرسل الاستعمار بعض فرق الجيش السوداني الى دول أفريقية لمحاربة جيوش الفاشية .. بلغ عدد الجنود السودانيين فى صفوف الحلفاء مايقرب من سبعين ألف جندى، كان منهم ستون ألفا فى ليبيا وعشرة آلاف فى شرق أفريقيا .. الأمر الذى جعل من تسريحهم فى المستقبل مشكلة كما سيرد فيما بعد .

أثر هذا الاحتكاك فى كسر حلقة العزلة والجمود التى فرضها الاستعمار واحاط بها السودان سنوات طويلة .

أما قوات الجيش المصرى فانها لم تتحرك خارج الحدود .. ولم تشترك فى المعارك سوى بالدفاع المضاد للطائرات وحماية المواقع والمنشئات الحيوية ، والمساهمة ببعض أعمال المهندسين العسكرية .. رغم أن الحرب بين قوات الحلفاء من جهة ، وقوات النازية والفاشية من جهة أخرى ، قد دارت فوق الصحراء الغربية أكثر من مرة .

كان الاستعمار البريطانى على حذر شديد من قيام ثورة شعبية فى مصر ضد صفوفه الخلفية .. ولذا فانه عندما وصلت القوات النازية الى حد الخطر الذى يهدد بغزو مصر ، رأت السفارةالبريطانية أن تعيد الوفد الى الحكم ضمانا لسيطرته على الشعب فى هذه المرحلة الحرجة الحاسمة وخاصة بعد أن كان الملك وبعض الرجعيين

على استعداد كامل للتعاون مع الغزاة الفاشيين والنازيين الجدد .

ولكن عودة الوفد للحكم بطريقة ديموقراطية قد تدفع الجماهير للضغط عليه لاتخاذ مواقف أكثر ايجابية ضد الاستعمار البريطانى

ولذا أعتقد أن لورد كيلون قد عمد الى حركة محاصرة السراى يوم ٤ فبراير بالدبابات ليفرض حكم النحاس باشا كمحاولة ذكية من الاستعمار ، للاساءة الى الوفد أمام الجماهير ، حتى لا يجمح فى شعور معاداته للبريطانيين تحت ضغط الجماهير .

وقد نجح الاستعمار البريطانى فى ذلك الى حد بعيد .. وأصبح ٤ فبراير سبة فى جبين الوفد ، يطعنه خلالها أسوأ نماذج المصريين من الرجعيين والعمـــلاء الحقيقيين للمستعمرين خاصة وأن حكومة الوفد كانت حريصة فعلا على تنفيذ كافة تعاليم قوات الاحتلال .

وكانت القاهرة فى فترة الحرب ساحة لتجمع عدد من الحكومات التى تشكلت خارج بلادها بعد الهجوم النازى مثل حكومات ألبانيا واليونان ويوغوسلافيا الخاضعة تماما للنفوذ البريطانى .

ولكن ذلك لم يمنع حدوث عدة ظواهر هامة فى مصر والسودان

فى مصر نشبت ثورة حادة بين أفراد الجيش اليونانى رفضـــوا فيها الخضوع لحكومة الملك بول المقيمة فى القاهرة ، ووصلت الثورة فى الجيش والأسطول الى حد محاصرة القوات اليونانية الثائرة فى صحراء العامرية بقوات الجيش البريطانى .. وقمعت هذه الثـــورة بقوة وشدة بالغة .

وقد جذبت هذه الثورة اهتمام عـــدد من المثقفـــين المصريين ، وخاصة بعد قراءة شعارات المنظمات اليونانية الثـــورية « أيام »

وغيرها على جدران المنازل فى القاهرة والأسكندرية .. وبدأ يسرى اتجاه نحو رفض تأييد الحكومات المقيمة فى القاهرة وتأييد النضال الشعبى الاشتراكى الذى يقوده تيتو فى يوغوسلافيا ، وأنور خوجه فى ألبانيا ، وماركوس فى اليونان .

وركز الاستعمار البريطانى قوته فى هذه الفترة لمحاربة هــذه الأفكار التى بدأت تنمو وسط المثقفين فى نشاط شديد .. ومما يذكر أنه كان يعتمد على ضــباط القســم الســياسى الذين تدربوا فى « الأوكرانا بروسيا القيصرية » ، حيث كانت تتم عمليات القمــع والتجسس بخبرة تتفجر بالشدة والقسوة .. ومن هؤلاء سليم زكى حكمدار القاهرة الذى مات مقتولا فى مظاهرات المحرضين أمــام القصر العينى عام ١٩٤٩ ، وعمر حسن قائد القسم المخصوص ..

كانت الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية شديدة الحيوية فى مصر والسودان معا .. ظهرت اتجاهات ثورية وسياسية جديدة .. وكانت نزوة تقليد الفاشية فى مصر قد اختفت .. ولم يعــد أحد يلبس قمصانا خضراء مثل مصر الفتاة ولا قمصانا زرقاء مثل شباب الوفد ..

وبدأت تطفو إلى السطح فئات الطبقات الشعبية الجديدة التى لم تجد فى قيادة حزب الوفد مايحقق لها أهدافها .. بعد أن فقــدت قيادته كثيرا من شعبيتها عقب معاونتها المستمرة للسراى وقبولها الحكم بالارادة البريطانية فى ٤ فبراير ومحاصرتها للعناصر التقدمية التى حاولت تغيير اتجاه الوفد السياسى ودعمه بأفــكار تنــادى بالديموقراطية والعدالة الاجتماعية ورفض قيادته للاشتراكية كمبدأ

انسانى سليم ..

وكان الوفد منذ بداية تكوينه أقرب ما يكون الى الجبهة التى تضم كافة الفئات ، قيادته من الاقطاعيين والرأسماليين وجماهيره من الشعب الرافض لوجود الاستعمار ... ولكن مع استمرار المعركة وظهور طبقة الرأسمالية الوطنية ، ورفض كبار الملاك الاقطاعيين الخضوع للاصلاحات الاجتماعية .. أخذت تحدث فيه انسلاخات وانفصالات ذات تعبير طبقى .

منذ البدايةانفصل الأحرار الدستوريون الذين يمثلون كبار الملاك ورأسهم عدلى ثم محمد محمود .

وفى فترة الأزمة العالمية انفصل الحزب الذى اشتهر باسم «السبعة والنصف » وانضم اليهم على الشمسى ، وبهى الدين بركات ، وعطا عفيفى .. وتبينت حقيقة موقفهم عندما انضموا الى مجالس ادارة الشركات التى كان يحرم الوفد على أعضائه عضوية مجالس ادارتها .

وعقب معاهدة ١٩٣٦ انفصل السعديون الذين ارتبطوا تماما بالرأسمالية الوطنية التى أرادت أن تهيىء لها قيادة يتوفر لها رصيد شعبى يتوفر عند أحمد ماهر والنقراشى وخاصة بعد أن فتح مجال كبير لمزيد من الارتباط بين الرأسمالية والاحتكارية الأجنبية .

وعقب ٤ فبراير ١٩٤٢ انفصل من الوفد مكرم عبيد وانضم للسعديين فى حكومتهم التى اعقبت وزارة النحاس وجابهت فترة مابعد الحرب ..

بعد كل هذه الانفصالات لم تحاول القيادة الوفدية ان تطعم حزبها بقيادات شابة تقدمية جديدة ، وانما ظلت فى تيارها التقليدى

القديم الذى سمح بتولى فؤاد سراج الدين الاقطاعى الكبير سكرتارية الوفد فأصبح تكوين القيادة بذلك منسجما مع واقعها الطبقى ..

ومن أجل هذا فقد التيار الشعبى الجديد ثقته المطلقة بقيادة الوفد بعد أن فقد فرصة الارتباط ببعض العناصر المبشرة فى الهيئة الوفدية وفى لجنة الطلبة الوفديين ..

وبعد عشرين عاما تقريبا من ضرب الاستعمار للاتجاهات الاشتراكية التى كانت ممثلة فى الحزبين الاشتراكى والشيوعى اللذين صفيا نهائيا على يد سعد زغلول عام ١٩٢٤ ، عام النكسة فى علاقة مصر والسودان ، بدأت تظهر عدة حركات اشتراكية كانت مركزة أساسا بين الطلبة والمثقفين .

وفى هذه الفترة ظهرت حركات تقدمية أخرى مثل دار نشر الثقافة الحديثة والفجر الجديد ودار الأبحاث العلمية .

وكان المحور الرئيسى لكل هذه الحركات مجتمعة هو الفكر الاشتراكى الجديد ، الذى بدأ محصورا فى حدود المثقفين وبعض الأجانب ثم انتقل الى طبقات شعبية مختلفة .

وأثمر هذا التيار الجديد مع الطليعة الوفدية من الطلبة تكوين « اللجنة الوطنية للطلبة والعمال » التى قررت أن يكون يوم الخميس ٢١ فبراير ١٩٤٦ يوم اضراب شامل لجميع هيئات الشعب وطوائفه ، وذلك بعد سقوط وزارة النقراشى الممثلة لتحالف الرأسمالية والأحزاب المنفصلة عن الوفد عقب مذبحة كوبرى عباس فى يوم السبت ٩ فبراير ١٩٤٦ التى سقط فيها الطالب السودانى الشهيد

محمد على محمد .

وكان يوم ٢١ فبراير يوما من أيام نضال الشعب المصرى التى فرضت نفسها على التاريخ وأصبحت يوما للشباب العالمى .. فى هذا اليوم سارت مظاهرة ضخمة طافت بشوارع القاهرة ، واشتبكت مع الجنود البريطانيين فى ميدان الاسماعيلية ، حيث سقط ٢٣ قتيلا ، ١٢١ جريحا .. وانتشرت المظاهرات حتى كادت تشمل كل مدن مصر ..

وخرج اسماعيل صدقى يلقى التهمة على الرعاع والدهماء .. والمؤسف أنه كان قد عاد رئيسا للوزراء بعد سقوط النقراشى .. وهو رئيس اتحاد الصناعات المصرى !!

وردت اللجنة التنفيذية للطلبة .. على بيانه بالآتى :

١ ـ اعلان الحداد العام .

٢ ـ الموافقة على قراراللجنة الوطنية للطلبة والعمال باصدار ميثاق وطنى يوقع عليه جميع الزعماء يطلب منهم عدم قبول الحكم أو المفاوضة الا على أساس تصريح من بريطانيا بالموافقة على الجلاء عن « وادى النيل » .

وكان يوم الحداد هو ٤ مارس .. ولم تظهر الصحف اليومية ، وأغلقت المتاجر والمقاهى ، وأضربت المدارس والمصانع وأظهر الشعب المصرى ارادته أمام اسماعيل صدقى الذى حاول أن يثنى مندوبو اللجنة الوطنية للطلبة والعمال عن اصرارهم بدعوى تهديد القوات البريطانية بالنزول الى الشوارع .

ولم تحدث حوادث فى هذا اليوم الا فى الاسكندرية حيث

سارت مظاهرة سلمية من العمال والطلبة وجدت علما بريطانيا مرفوعا على أحد الفنادق يتحدى حداد الشعب فهجمت عليه ومزقته. وحدث صدام بين الشعب والجنود البريطانيين ، حرق فيه الشعب كشك البوليس الحربى البريطانى فى ميدان سعد زغلول .. ومعه عدد من الجنود ..

الحركة السودانية للتحرر الوطنى

فرضت الحرب العالمية الثانية على المعســكرين اعلان تصريحات الأطلنطى التى نادت بحق تقرير المصير للدول التى شاركت إيجابيا فى الحرب الفاشية وأدى ذلك الى ارسال مؤتمر الخريجين عام ١٩٤٢ بمذكرة الى الادارة البريطانية لتأكيد هذا الحق والمطالبة بحكومة سودانية بعد انهاء الحرب ، والغاء احتكار الحكومةللتجارة الخارجية ، ولكن الحاكم العام رفض المذكرة ورفض الاعتراف بالمؤتمر كممثل للشعب السودانى .

وظهرت فى السودان موجة ديمقراطية ، وصدرت بعض الصحف تحمل كلمات النقد ، وألغيت عقوبة الجلد من المدارس وتكونت جمعيات الطلبة وظهرت الطبقة العاملة السودانية فى ورش الصيانة البريطانية .. .

التحولات التى ظهرت فى المجتمع الســودانى خلال الحرب ، انتهت الى عصيان قام به جنود قوة دفاع الســودان عام ١٩٤٥ عندما سرحوا بلا مكافأة .. وشكل الاستعمار مجلســا استشاريا هزيلا من رؤساء القبائل والطوائف الدينية لتأييد سياستهم .

ولكن مؤتمر الخريجين قاطع المجلس الاستشــارى .. وبدأت الظروف الناضجة لمحاربة الاستعمار .. وكتله تتعاون معه .

وكانت نتيجة ذلك انفلاق المؤتمر الى أحزاب عام ١٩٤٥ .

الأحزاب الأتحادية وتتكون من المثقفين الوطنيين والتجار ، وتعادى الاستعمار ويتزعمها حزب الأشقاء برئاسة اسماعيل الأزهرى الذى كان يؤيد السيد على الميرغنى الذى كان ينادى بالاتحاد دون الوحدة وحزب « الأحرار الاتحاديين » وحزب وادى النيل الذى أسسه الدرديرى اسماعيل أول سفير لثورة مايو فى القاهرة ثم حزب الاتحاديين وكان يطلب الاندماج التام بين مصر والسودان

ويلاحظ أنكل هذه الأحزاب قد تجمعت فيما بعد عام ١٩٥٢ فى الحزب « الوطنى الاتحادى » ..

.. وحزب الأمة وتشكل فى ٢٨ يناير سنة ١٩٤٥ ويضم شبه الاقطاعيين ونظار العشائر وبعض المثقفين المرتبطين فكريا وماديا بالثقافة الغربية برئاسة عبد الله خليل ويؤيده السيد عبد الرحمن المهدى .. وكان رسم الانتساب خمسة قروش تدفع مرة واحدة طوال الحياة !!

رفعت الأحزاب الاتحادية شعار ثورة ١٩٢٤ الذى ينادى (وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى) .. وهو شعار لم يكن يناسب المرحلة ، لأن ماحدث فى حياة الشعب السودانى من تحولات حاسمة خلال نصف قرن تقريبا قد جعله يتجاوز هذا الموقف، ذلك ان جانبا من جماهير الشعب السودانى كانت ترفض أسلوب بعض رجال الادارة المصريين الخاضعين لتعليمات الاستعمار .. كما أن هذا الشعار كان مطروحا بلا برنامج ، الى جانب أنه كان يعتمد على التعاون مع البرجوازية المصرية الذابلة

لم تعد المشكلة هى الاندماج مع مصر والانفصال عنها .

ولم تكن القضية هى الاتحاد مع الدوائر الحاكمة فى مصر التى لجأت الى مجلس الأمن عام ١٩٤٧ تطلب سيطرتها على السودان .

كانت القضية هى الايمان بقدرة الشعب السودانى على النضال المشترك مع الشعب المصرى ضد الاستعمار البريطانى من أجل الاستقلال الوطنى .. ومن أجل خلق علاقات صحية سليمة بين أبناء الشعبين الشقيقين الرابضين على مجرى النيل ..

والحركات الوطنية السودانية كانت ترتبط دائما بالحركات المصرية .. وكما ناضل على عبد اللطيف عام ١٩٢٤ فى جمعية اللواء الأبيض رافعا شعار وحدة وادى النيل .. كان وفد السودان وأعضاء الأحزاب الاتحادية على صلة مستمرة بالقاهرة والأحزاب المصرية وخاصة حزب الوفد .

كانت الفئات الاجتماعية فى مصر والسودان تحاول أن تلتقى مع بعضها فى محاولة متجانسة .

وقد أثبتت أحداث التاريخ كما سيأتى ذكره فيما بعد أن الذين تبنوا شعار « الوحدة » كانوا أول من تنكر له وانقلبوا عليه

بدأت الحركة السودانية للتحرر الوطنى نشأتها فى مصر مرتبطة بالحركة المصرية للتحرر الوطنى فى كفاح مشترك ضد الاستعمار البريطانى ... وتأكيدا لهذه الصلة النضالية كان يحق للسودانى فى مصر أن ينضم للحركة المصرية ... كما كان من حق المصرى فى السودان أن ينضم للحركة السودانية

وأثناء الحرب العالمية الثانية وظهور الاتحاد السوفييتى كقوة شعبية قادرة على توجيه ضربات ساحقة للنازية وبدء تكوين

الديموقراطيات الشعبية فى أوربا ظهرت الأفكار الاشتراكية فى مصر أيضا كبراعم جديدة للنضال الوطنى ضد الاستعمار

بعض هذه الأفكار انحرف الى معاداة النازية كهدف رئيسى بعد ما اظهرته من قسوة انسانية وما ارتكبته من جرائم حرب وحشية .. والبعض منها انحرف الى معاداة الرأسمالية المصرية الوليدة متأثرا بالأفكار الفطرية التى تحتاج دائما الى رؤية واضحة وتطبيق سليم .

وبين هذين الاتجاهين ظهر اتجاه أصيل لايهمل معاداة النازية ، ولا يقلل من شأن محاربة الرأسمالية ولكنه يركز على الكفاح ضد الاستعمار البريطانى باعتباره أساسا لكل المشاكل السياسية والاجتماعية فى مصر والسودان .

وفى هذه الحركة المصرية للتحرر الوطنى ، كان للطلبة السودانيين فى مصر مكان ..

وظهرت مجلتان تعبران عن هذا الاتجاه الجديد .. أولهما مصرية وتسمى « كفاح الشعب » .. والأخرى سودانية واسمها « أم درمان ــ الكفاح المشترك » ..

وتحدد للحركة الناشئة خط سياسى جديد يدعو الى « الكفاح المشترك للشعبين المصرى والسودانى ضد الاستعمار .. مع حق تقرير المصير للشعب السودانى » ..

كان اقتران الهدفين معا ذا مغزى سياسى هام .. لأن الاستعمار البريطانى كان يشجع فكرة « حق تقرير المصير للشعب السودانى » ... مفرغة من محتواها الوطنى اذ أنه كان يود اعطاء هذا الحق فى

ظل النفوذ البريطانى .

كما ان بعض المصريين تسرعوا فى مهاجمة فكرة « تقرير المصير » باعتبارها تنفيذا لما يطمع فيه الاستعمار !

هذا بينما كان رفع شعار « الكفاح المشترك » ضربة شديدة موجهة للتخطيط الاستعمارى ، الذى كان يثير عواطف السودانيين ضد شعار « وحدة وادى النيل » باعتبــاره محــاولة للتسلط من الشمال على الجنوب .. ونجح الاســتعمار فعلا فى اثارة عواطف بعض الذين ارتبطوا بالادارة البريطانية .

وفى مرحلة معينة من مراحل التنظيم فى أوائل عام ١٩٤٦ ، انفصل الجانب السودانى بعد نضجه ليكون حركة سودانية منفصلة للتحرر الوطنى حيث أن حق تقرير المصير كان يستدعى تكوين حركة .. سودانية مستقلة ..

وقد قاوم هذا الاتجاه بعض الذين تصوروا انه يقيم العقبات أمام وحدة وادى النيل والحقيقة غير ذلك لأن فرض هذا الشعار اجبارا كان سيؤدى فى النهاية الى حركة مقاومة ثورية للشمال .. أى مصر ..

فى هذا الجو السياسى الثورى البعيد عن قيادة الأحزاب التقليدية ، بعثت صلة وثيقة بين الشباب الوطنى فى السودان والشباب الوطنى فى مصر ..

وبدأت الحركة السودانية للتحرر الوطنى تظهر ايجابيتها .. قادت الشعب السودانى فى مظاهرات عنيفة يوم ١١ مارس ١٩٤٦ تأييدا لنضال الشعب المصرى ضد الاستعمار وكانت هذه هى أول مظاهرات

تشهدها السودان بعد عام ١٩٢٤ .

وفى هذه الفترة تحررت الحركة السودانية للتحرر الوطنى من الاتجاه الذى سادها فترة بقيت فيها شبه ملحقة بالأحزاب القائمة لا تعلن رأيها أو برنامجها .. وانتهى الأمر صيف عام ١٩٤٧ عندما طردت العناصر الانتهازية التى كتبت مؤيدة .. التاج المصرى .. مما جعل البعض يسخر منهم قائلا .. الشيوعيون الملكيون !!!

وكانت الحركة السودانية للتحرر الوطنى تعتنق فكرة الجبهة التى تضم العناصر الوطنية الصادقة باعتبارها الاسلوب الثورى الوحيد الذى يرتبط بواقع شعب السودان .

لذا نادت بتكوين الجبهة الوطنية ثم عملت على تكوين جبهة الكفاح ..

وأخيرا تكونت الجبهة المتحدة لتحرير السودان عام ١٩٥٢

وظهرت أيضا الجبهة المعادية للاستعمار حزبا ديمقراطيا مرتبطا بالجماهير ، يعبر عن محاولة جادة لبناء الجبهة الوطنية الديمقراطية فى شكل حزب ..

وفى هذا الوقت كانت المظاهرات التى انفجرت فى مصر معلنة غضب الشعب على الاستعمار والسراى وحكم الطبقة العميلة قد وثقت النضال بين الشعب المصرى والسودانى .

سقط فى القاهرة شهداء من أبناء السودان يهتفون لحرية شعب مصر ..

استشهد صلاح بشرى ومحمد على محمد الطالبين السودانيين فى الجامعة المصرية . الأول فى السجن والثانى فى حوادث كوبرى

عباس ٩ فبراير ١٩٤٦ .

وفتحت السجون والمعتقلات لعدد من طلائع الشعب السودانى الى جانب طلائع الشعب المصرى ..

وظلت الفترة السابقة لحرب فلسطين تموج بنشاط سياسى واضح ، انبثقت فيها تيارات تحررية فى مصر والسودان .. وتزايد نضال الطبقة العاملة السودانية ، واتسع نطاق حركة الاضرابات خلال عام ١٩٤٨ ، الذى يعتبر تحولا حقيقيا فى الحركة الوطنية السودانية ، أرسى دعائم الاستقلال فى المستقبل .

فى عام ١٩٤٨ صدر قانون مشروع الجزيرة الذى أنهى امتياز شركة كسلا ، ونقابة زراع القطن البريطانيين وأصبحت توزع النسب كالآتى ٤٠٪ من الايراد لهيئة مشروع الجزيرة ، ٤٠٪ للزراع ، ٢٠٪ للأبحاث الزراعية والمصاريف الادارية .. وأدى هذا الى ارتفاع دخل المزارع الى مبلغ يتراوح بين ٦٠٠ الى ألف جنيه بينما كان الدخل لايتجاوز ٢٠ جنيها فى عهد الادارة البريطانية .

وصلت الميزانية عام ١٩٤٨ الى ٦٤٩ر٨٣١ر٦٧ جنيها يوفر فى الايرادات عن المصروفات مبلغا قدره ٦٦٧ر٧٦٧ر٢٤ جنيها .

وبدأت تظهر تنيجة لهذا الانتعاش صناعات محددة يسهم فيها الأجانب مثل دبغ الجلود والأسمنت ومعاصر الزيت ونسج القطن .

مأساة الاستعمار البريطانى فى السودان

وكانت هناك فى نفس الوقت مفاوضات قد بدأت بين مصر وبريطانيا للوصول الى حل للقضية المصرية والسودانية معا .. وأقام إسماعيل الأزهرى على رأس وفد سودانى فى القاهرة .

واستطاع هذا الوفد أن يعلن حقائق كثيرة عن مآسى الاستعمار البريطانى فى السودان .

وأول مأساة كانت تواجه المصرى هى ضرورة حصوله على تأشيرة للدخول من وكالة السودان بالقاهرة ، والتى كان يشرف عليها موظف بريطانى .

رغم منافاة ذلك لاتفاقية ١٨٩٩ فانه كان مفروضا على كل مصرى أن يجيب على هذه الأسئلة :

لماذا تريد زيارة السودان ؟

مَنْ من السودانيين تعرف ؟

هل سبق لك أن زرت السودان ؟

والطالب السودانى لم يكن مسموحا له بدخول مصر الا اذا كان يحمل معه تأشيرة من مدير مدرسة فاروق الثانوية المصرى .. وكان ذلك وسيلة للحجر على حرية تعليم الطلبة ، واثارة السودانيين الذين يرفض المدير المصرى السماح لهم بالذهاب الى مصر .. وهو فى موقعه خادم مخلص لتوجيهات الحاكم العام البريطانى .

وبلغت سيطرة الاستعمار البريطانى على السودان الى الحد الذى جعلهم يفرضون مستر « سكوت » ليضع كتاب المطالعة العربية الذى يدرسه طلاب المدرسة الأولية !!

وخلال ٤٠ عاما لم تفتح مدرسة عربية واحدة فى الجنوب وان كان الباب قد فتح عريضا للتبشير والمبشرين !!

وصدر قانون المناطق المقفولة عام ١٩٣٠ كخطوة بداية لمحاولة فصل الشمال عن الجنوب

وفى ذلك قال مستر روفير مدير المعارف بالسودان : « ان من العبث الفصل بين التعليم والدين ، ولما كانت المسيحية أصلح لأهالى الجنوب من الاسلام فانه ينبغى والحالة هذه أن تكون اللغة الانجليزية هى لغة التعليم فى الجنوب ، كما أنه يتحتم ارسال النجباء من الطلبة الى مدارس وكليات يوغندا حيث ترسخ عقيدتهم المسيحية » ..

ومع ذلك فان المبشرين قد أقروا مبدأ تعدد الزوجات فى الدين المسيحى من أجل اجتذاب الجنوبيين !!

وهكذا أثبتت السياسة أنها تستغل الدين فى خدمتها ولا تحرص على شىء الا السيطرة على أهل الجنوب

وفى مقابل ذلك ألغى الاستعمار عشر محاكم شرعية .

ولم يصرف على التعليم حتى عام ١٩٣٦ الا ٣ ٪ فقط من الميزانية بما فى ذلك المصاريف الادارية !!

والحواجز الفاصلة لم تكن بين مصر والسودان فقط . ولكنها فرضت أيضا بين الشمال والجنوب .. كان ممنوعا على أبناء

الشمال أن يزوروا الجنوب الا بتصريح خاص بهدف الفصل بين القبائل العربية والجنوبية وذلك لابقاء الجنوب الذى يبلغ سكانه ٤٠ ٪ من سكان السودان ــ ١٤ مليونا ــ كرصيد لمقاومة الشمال الأكثر ارتباطا بمصر والعرب

والمفتش البريطانى فى مقاطعات الجنوب كانت له سلطات قضائية غير محدودة تصل الى الحكم بالاعدام .. ومعظم هؤلاء كانوا من الشباب البريطانى ، الذى كان يتحكم فى مقاطعات يبلغ بعضها ضعف مساحة بريطانيا !!

ومع ذلك قامت ضد الاستعمار البريطانى انتفاضة مسلحة قادها ملك الزاندى ، وهى معاصرة لانتفاضـــة ودحيوية .. وقامت مع حركة اللواء الأبيض حرب التحرير أيضا

والسودان هو أكبر دولة افريقية .. مساحته مليون ميل مربع .. ويبلغ مساحة أوروبا عدا روسيا وثلاثة أمثال مساحة مصر ..

وأجبر الاستعمار البريطانى السودانيين على كتابة اسم القبيلة الى جانب الجنسية السودانية ، وكانوا يريدون بذلك أن يؤصلوا التفكير القبلى فى نفوسهم !!

والأراضى الصالحة للزراعة فيه تصـــل الى عشرات الملايين من الأفدنة ، ومع ذلك فان الاستعمار البريطانى قد وضع خطته على أساس تأخير البلاد زراعيا والحصول منها على مايحتاجه من المواد الخام فقط ، وخاصة القطن !

واتبع لذلك أسلوبا غريبا ..

كانت لجنة مراقبة المياه تجتمع مرة واحدة فى العام حتى سنة

١٩٤٣ .. وبذلك يتعذر على أى انسان أن يستخدم طلمبة رى جديدة لأرضه الا فى الموعد المحدد كل عام !

وكان الاستعمار حريصا على توجيه تهمة الكسل الى المزارع السودانى .. وهو اتهام ظالم ، يجب أن يوجه الى سوء الادارة التى أدت الى تعطيل نقل المحاصيل لكثرة التكاليف نتيجة ارتفاع أجور السكة الحديد ، وعدم وجود نظام ثابت للرى ، أو محاولة جادة لمكافحة الآفات أو تقديم الارشاد الفنى .. هذا بالاضافة الى تحكم لجنة مراقبة المياه (صرفت الخزانة السودانية ١٣ مليون جنيه على مشروع الجزيرة الذى كان الاستعمار البريطانى يحدد به انتاج السودان من القطن بما يكفى مصانعه فى لانكشير ويوركشير فقط ... ويشترى ٦٣ر٦٪ من محصول القطن بأسعار مخفضة .. سعر القنطار ٤٥٠ قرشا بينما سعر القنطار المصرى كان تسعةجنيهات

رغم كل هذه المآسى ، فان طبقة الباشوات الحاكمة فى مصر لم ترفع صوتها بالاحتجاج ضد تصرفات الاستعمار البريطانى فى السودان .. ولم تحاول أن تتشبث حتى بما ورد فى الاتفاقيات . وانما كانت تسعى فقط خلف سيطرة اقتصادية تابعة للاستعمار البريطانى .. ويذكر أن بعض العناصر الرأسمالية المصرية كانت نشطة فى محاولاتها للوصول الى السودان ... مثال ذلك البعثة الاقتصادية المصرية التى سافرت الى السودان وشكلت من فؤاد باشا أباظة رئيس الجمعية الزراعية ورشوان محفوظ باشا عضو الأحرار الدستوريين وسلفاتور شيكوريل ... وكان هدفها فتح مجالات لرؤوس الأموال المصرية لاستغلالها فى السودان .. وكذلك

الفريد كوهين صاحب شركة التسليفات التجــارية التى كانت لها فروع فى لندن والسودان والتى مولت عددا من المؤسسات أهمها شركة السودان للتصدير والاستيراد التى تأسست عام ١٩٢٩

والغريب أن مصر كانت تسد عجز الميزانية الســودانية من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩١٣

وكانت تتعهد أيضا بالصرف على الفرق السودانية فى الجيش المصرى والمدرســة الحربية السودانية وتكاليف الفرق البريطانية اللازمة لهذه القوات .. وكانت تصرف أيضا على الحملات التأديبية التى يشنها الحاكم العام البريطانى والتى بلغت ١٣٠ حملة !!

وظلت مصر تدفع أيضا اتاوة قدرها ٣/٤ مليون جنيه حتى عام ١٩٣٦ نظير اشراف وزارة الماليــة المصرية على الميزانية والنظــام الحسابى والتفتيش والمراجعة .. وهو ما لم يكن يحدث مطلقا .

كانت الحكومة المصرية تتنازل عن استخدام هذا الحق ، ارضاء لعيون الحكومة البريطانية ولذلك فان ميزانية ١٩٤٦ بينت أن ٧٧١ موظفا بريطانيا كانوا يحصلون على مرتبات جملتها ٨١٩٫٠٠٠ جنيه بمعدل ١٠٧٠ جنيه سنويا وهذا يشكل ٦١٫٣٪ من الميزانية بينما كان يحصل ٥٣٣٠ موظف سودانى على ٦٧٢٫٠٠٠ جنيه بمعدل ١٠٧ جنيهات سنويا ونسبة ٣٧٫٨ ٪ من الميزانية .

واجابة على سؤال تقدم به أحد النواب فى البرلمان المصرى يوم ١١ سبتمبر ١٩٤١ عن الموظفين المصريين والانجليز الذين التحقوا بخدمة السودان بعد معاهدة ١٩٣١ تبين أنهم ١٢٣ موظفا منهم ١١ موظفا مصريا فقط والباقى من البريطانيين !

حرب فلسطين

كانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ أهم حدث فرضته الظروف والمؤامرات على الوطن العربى عامة ومصر خاصة

عندما قرر الاستعمار البريطانى أن ينهى انتدابه على فلسطين كانت قواته مازالت تحتل مصر وشرق الأردن وليبيا والسودان وغيرها ... ولم يفكر متطوعا أن يجلو عن بلد واحد من هذه البلاد

استند الاستعمار البريطانى الى الحالة المضطربة فى فلسطين من هجمات قوات الارهاب الصهيونية ، وثورة الشعب العربى ضد محاولات تمزيق وطنه ... وقرر أن يرحل

ولم يكن أمام القوات العربية المسلحة من سبيل الا اعلان استعدادها لمساعدة الشعب العربى فى فلسطين والذى تعرض لعدة هجمات غير انسانية من القوات الصهيونية المسلحة .

وكانت النظرة الشاملة للوطن العربى تؤكد ان هناك مؤامرة تنسج خيوطها بين الاستعمار الأمريكى المتربص للوثوب الى المنطقة والصهيونية العالمية التى وجدت فيه سندا يضغط على الاستعمار البريطانى لمغادرة فلسطين .

كان حكام بعض الدول العربية من الرجعية التى لا يمكن أن تتخذ موقفا وطنيا له أبعاد شعبية أو ديموقراطية ..

هذه المجموعة من الحكام تكفى وحدها لاثارة الشبهة حول جدية الاندفاع الى القتال

ليس هذا فقط ... بل ان قوات الجيش البريطانى كانت ماتزال محتلة لمنطقة القناة ، وهى بذلك تفصل بين الجيش وبين عاصمة الدولة ... وما أظن أن الجيش البريطانى كان يسمح للجيش المصرى بدخول حرب يهدد بها وجوده فى منطقة الشرق الاوسط !!

وعندما عرضت القضية على هيئة الأمم المتحـدة واتخذ القرار بالتقسيم بادرت هذه القيادات الرجعية باعلان رفضها لقرار التقسيم ودخول الحرب ... وكأنما تملك القدرة على وقف تنفيذ القرار .

***

الواقع ان خروج الاستعمار البريطانى المفاجىء ورفضه لتنفيذ قرار الأمم المتحدة بالاستمرار فى الانتداب حتى تنفيذ التقسيم ، يوحى بمؤامرة له مع القيـادات العربية الرجعيـة للاستيلاء على فلسطين .. ولكنهـا عجزت عن تنفيـذ المخطط الذى رسمه لهـا البريطانيون .

وبدأت تتضح أيضا المؤامرة الاستعمارية للشعب المصرى يوما بعد يوم ..

١ ـ استنفذت الحرب الأرصدة الاسترلينية التى كانت تدين بها مصر حكومة بريطانيا وتبلغ حوالى ٤٠٠ مليون جنيه استرلينى .

٢ ـ ظهرت متاجرة بعض الجهات العليا بمصير المعركة ، كشفت

عنها الصحافة المصرية وقدم المسئولون عنها الى المحاكمة .

٣ ـ انهت الأحكام العرفية موجة المد الثورى للطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة التى كانت تطالب بحقوقها العادلة المشروعة ، وتعبر عن ارادتها بالاضراب ... خاصة بعد فتح المعتقلات واعتقال عدد كبير من أصحاب الفكر النقدى .

٤ ـ جذبت حرب فلسطين اهتمام الناس لها ، وتأجل نضالهم المشروع ضد وجود قوات الاحتلال البريطانية .

٥ ـ ثبت أن القوات الصهيونية كانت تستعد مقدما لهذا اليوم وأن قواتها المسلحة جعلتها تحقق لنفسها دورة أوسع مما فرضته قرارات الأمم المتحدة .

٦ ـ بريق الدعاية العربية للملوك والرؤساء الرجعيين دفع جانبا من شعب فلسطين لكى يترك أرضه بلا قتال حتى الموت ثقة منهم فى أن ما يسمعونه صحيح وان عودتهم الى دورهم أمر مؤكد ، مما خلق مشكلة اللاجئين وعقد مشكلة فلسطين .

٧ ـ ارتفعت فى هذه الفترة موجة المد الرجعى الممثل فى الاخوان المسلمين الذين ملكوا زمام المبادرة فى الدعوة الى الجهاد المقدس ، فى فلسطين ، ثم تبين أن دعوتهم لم تكن أكثر من زيف ، وأن خديعتهم قد قدمت عددا من الضحايا الذين أقبلوا على القتال بروح وطنية صافية .

وأثناء حرب فلسطين ، كان نضال الشعب السودانى يأخذ مظهرا آخر حاول الاستعمار البريطانى تنفيذ فكرة حزب العمال التى كانت تقضى بالتدرج الدستورى فى أفريقيا كما حدث فى غانا عن طريق

ترويض أقسام من الحركة الوطنية، تعتاد وتلتصق بالنظام الدستورى البرلمانى الخاضع للنفوذ والسيطرة الاستعمارية .

وحاول الاستعمار تحقيق ذلك عن طريق حزب الأمة باقامة جمعية تشريعية عام ١٩٤٨ .

وفطنت القوة الثورية الاشتراكية فى السودان الى هذا الخطر الذى يسلب الكفاح الوطنى حيويته وحرارته ويطفئه تحت ثلوج المهادنة والأطماع الذاتية .. فقاومت ذلك بالتظاهر والاضراب . واستشهد العامل « القرشى الطيب » فى عطبرة ، وسقط شهداء آخرون فى بور سودان ، وصدرت أحكام كثيرة بالسجن فى الخرطوم ..

ولم يستطع الاستعمار البريطانى فرض فكرة الجمعية التشريعية على السودان ..

واذا كانت حرب فلسطين قد انتهت بكارثة اقامة اسرائيل خاضعة للنفوذ الاستعمارى ، وتبديد احتياطى الدولة المصرية ، وضرب الحركة الثورية للفئات الاجتماعية المختلفة ، فانها لم تخمد فى الشعب المصرى روح النضال ضد عدوه الأصيل .. الاستعمار البريطانى .

وما أكثر بذور الثورة التى وضعتها حرب فلسطين فى نفوس كثير من الضباط العائدين من معركة خاضوها بكل بسالة ولم يشتركوا لحظة فى صنع هزيمتها .

وعادت من جديد ظواهر الحركة الايجابية ضد الاستعمار .

كما عادت الى الحكم أيضا وزارة الوفد برئاسة مصطفى النحاس

الباب الرابع

الكفاح الشعبى المسلح

- الغاء معاهدة ١٩٣٦
- حريق القاهرة

الغاء معاهدة ١٩٣٦

غضب الشعب المصرى ضد قوات الاحتلال البريطانية ، جعل حكومة النحاس باشا ، تفاوض الانجليز من موقع التشبث والاصرار واستمرت المفاوضات الى يوليو ١٩٥١ دون الوصول الى نتيجة رغم ما عرضته مصر من التسليم بوجهه النظر البريطانية فى حق السودانيين فى تقرير مصيرهم فى استفتاء حر ، ولكنها اشترطت لاجراء هذا الاستفتاء أن يجلو البريطانيون عن السودان مدنيا وعسكريا الامر الذى لم تقبله بريطانيا لأنه على حد قولها (يؤدى الى انهيار صرح الادارة فى السودان) .

وكان هذا التشدد من جانب بريطانيا دافعا لأن يعلن النحاس باشا فى مجلس النواب يوم ١٥ أكتوبر ١٩٥١ ـ تحت الضغط الشعبى ـ انهاء العمل بأحكام معاهدة ١٦ أغسطس ١٩٣٦ وملحقاتها وبأحكام اتفاقيتى ١٩ يناير ، ١٠ يوليو عام ١٨٩٩ وصدر بذلك أمر ملكى رقم ٤٧ لسنة ١٩٥١ .

وازداد اشتعال معركة القناة ضد المستعمرين .

وأصدرت حكومة النحاس دستورا ونظاما للحكم فى السودان .. تؤلف جمعية تأسيسية تمثل شعب السودان لاعداد دستور وقانون انتخاب يعمل بهما فى السودان .

وبدأ الكفاح المسلح فى منطقة القناة يأخذ اتجاها شعبيا واضحا .. وتشكلت القوى الفدائية تهاجم معسكرات ومخازن قوات الاحتلال

.. وانسحب ثمانون ألفا من العمال المصريين من العمل فى معسكرات البريطانيين ولم يترددوا لحظة فى التضحية بأجورهم العالية نسبيا .

وأخذت المعركة طابعا سياسيا دفع الحكومة الى اتخاذ موقف ايجابى من المعركة مما جعل قوات البوليس فى الاسماعيلية تتعرض لهجوم بريطانى غادر يسقط فيه عدد من الشهداء .

وأباحت الحكومة حمل السلاح للمواطنين ، وأعلنت انها تدرس قطع العلاقات مع بريطانيا ، وعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتى ، وقررت الاستيلاء على نادى الجزيرة واخراج أعضائه الانجليز ، واستدعت عبد الفتاح عمرو سفير مصر فى لندن ، وعوضت أهالى كفر عبده التى دمرها الانجليز .

كان الغاء المعاهدة بمثابة تحول فى النضال الشعبى بالشرق الأوسط كله ، اذ عبر عن تغيير فى موازين القوى لصالح الشعوب ، وتحول الدفاع ضد مؤامرات الاستعمار الى هجوم مباشر ومسلح ضد قواته المسلحة بالقنال .

وظهرت فى مجال النضال قيادات عمالية ديموقراطية متنوعة ، وتكونت لأول مرة اللجنة التحضيرية لاتحاد النقابات المصرى كعماد هام للجبهة الداخلية ، وقوة أساسية لتعبئة البناء الديموقراطى الشعبى ، وانتعشت كذلك حركة السلام المصرية .

وأثرت موجة المد الوطنى فى مصر على كافة الدول العربية التى حرصت شعوبها على تأييد نضال الشعب المصرى ، مما أصاب الاستعماريين بذعر وهلع شديدين أمام تفاقم الحالة فى مصر والشرق الأوسط .

وبدأت تظهر بوادر الثورة فى ايران .

واتخذ المد الثورى فى السودان شكلا مختلفا عنه فى مصر رغم ان الموقف فى جوهــره لا يختلف من حيث النضــال المشترك ضــد الاستعمار البريطانى .

ولكن المد الثورى فى السودان لم يصل الى درجة الكفاح المسلح كما حدث فى القنال وذلك لعدة أسباب :

١ ــ ضعف تنظيمات القوى الشعبية فى ذلك الوقت مقارنة بمصر من حيث الاستعداد والقدرة التاريخية على تحريك الجماهير .

٢ ــ عدم تأثر القوى الشعبية السودانية بنتائج حرب فلسطين كما تأثرت القوى الشعبية المصرية .

٣ ــ وقفت حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا مرغمة تساند الحركة الشعبية الجارفة ضد الاستعمار ، واستطاعت قوى الكفاح المسلح أن تباشر مهمتها .. الأمر الذى لم يتوفر فى السودان .

٤ ــ كان رفع شعار الــكفاح المسلح فى السودان خلال هــذه الفترة يعتبر من باب القفز فى الهواء لأنه لم يسبقه تحضير نفسى ونضالى بين الجماهير .

ولكن هذا لايعنى مطلقا أنه كان فى مصر مد ثورى وكان فى السودان انحسار لهذا المد .

العكس هو الصحيح .

كانت جماهير الشعب السودانى معبأة تعبئة نفسية مع جماهير الشعب المصرى .. وكانت تبذل الحركة السودانية للتحرر الوطنى غايتها فى دعم الحركة الديمقراطية فى المدن والأقاليم .

وخلال هذه الفترة عقد المؤتمر الأول لاتحاد النقابات الذى اعتبر فى ذاته عملا هجوميا من أجل توحيد الطبقة العاملة ... وكذلك قرر المؤتمر رفض السودان لكافة المشروعات الحربية الاستعمارية ، كما قرر الارتباط بالاتحاد العالمى للنقابات ، وبدأت بعض الاضرابات من أجل تعديل القوانين العمالية .

وفى هذه الحالة من المد الثورى فشل مشروع الدستور الذى حاولت بريطانيا أن تفرضه على السودان وتعطل عرضه على الجمعية التشريعية ..

حريق القــاهرة

وصلت حكومة الوفد ـ بتأثير الضغط الشعبى بعد الغاء المعاهدة ـ الى أقصى مايمكن أن تصل حكومة برجوازية .. أتاحت فرصة التعبير ، وخلقت جوا ديموقراطيا كان أعظم سند للنضال المسلح .

وبدأت الأفكار والروح الوطنية تنسج ما بين جماهير الشعب ورجال الجيش .. ويذكر أن الشهيد عباس الأعسر الطالب فى كلية التجارة بجامعة الاسكندرية قد سقط بطلا أثناء معركة القنال .. وكانت جنازته تعبيرا عن هذا اللقاء الجديد .

خرج ضباط القوات المسلحة الى الجنازة فى طابور رسمى رغم نصيحة رجال البوليس السياسى لهم بعدم الاشتراك .. وخرجت الاسكندرية تشيع شهيدها البطل وأمام الجنازة تمثال لحمامة سلام بيضاء لأن الشهيد كان عضوا فى لجنة أنصار السلام بالاسكندرية .

وكانت هذه المظاهرة الرائعة امتدادا لمظاهرات القاهرة التى لم تشهد لها مثيلا فى ١٤ نوفمبر ١٩٥١ .

وأصبحت مظاهرات القاهرة والاسـكندرية والـكفاح المسلح المتزايد فى منطقة القناة محل اهتمام عالمى ..

ولكن الاستعمار لم يكن غافلا عن هـذا الخطر .. وبدأ يعـد مؤامرته مستعينـا بالسراى التى كانت ترتجف من هـذا الزحف الشعبى المسلح نحو القناة .

عينت السراى حافظ عفيفى رئيسا للديوان الملكى دون استشارة الحكومة ، وقالت فى ذلك جريدة النيويورك تايمز « انه الشعاع الأول من النور الذى يمزق اكفهرار جو مصر منذ أن قطعت العلاقات مع بريطانيا » .

وترددت الوزارة فى الاعتراض على هذا القرار متهاونة مع السراى مما شجعها على تحقيق مؤامرتها الكبرى بحريق القاهرة يوم ٢٦ يناير بالذات ، وهو اليوم الذى تعهدت فيه الوزارة بقطع العلاقات نهائيا مع بريطانيا وعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتى ..

وكان هو اليوم السابق أيضا لعقد أول مؤتمر لاتحاد عام نقابات العمال المصريين بتصريح من الحكومة .

وتم حريق القاهرة بتدبير غريب من الاستعمار والسراى اذ دعا الملك ضباط الجيش الى حفل غداء .. وفى ذات الوقت بدأت العصابات المأجورة تحرق القاهرة وتحرق معها آمال الشعب التى كادت تتحقق ..

وفى مساء نفس اليوم أقيلت وزارة مصطفى النحاس وعين نجيب الهلالى الذى طبق الأحكام العرفية بشدة وأعلن شعار « التطهير والتحرير » .

وترك حريق القاهرة خوفا عميقا وغضبا عاصفا فى نفوس جماهير الشعب السودانى الذى شعر أن خنجر الخيانة قد طعن الشعب المصرى فى ظهره .

وانعكس ذلك فورا على علاقة مصر بالسودان اذ دعا نجيب

الهلالى المهدى للحضور الى مصر ، فأرسل خمسة مندوبين قاموا بمحادثات سرية ، ثم جدد حسين سرى الذى تولى الحكم بعد نجيب الهلالى توجيه الدعوة الشخصية الى المهدى ..

أطاح حريق القاهرة بآمال الشعبين المصرى والسودانى فى التحرر العاجل من الاستعمار وقوات الاحتلال .. ولابد من تحليل للأسباب التى أدت الى حدوث هذه الكارثة القوميه :

١ ــ كان الكفاح المسلح فى القنال ينطلق فى مراحله الأولى قويا ومؤثرا ولكن خلف قيادات متعددة ، البعض منها لم يكن فوق مستوى الشبهات ، الأمر الذى سهل على الحكومات التالية أن تخمده وتضع أبطاله فى السجون والمعتقلات .

٢ ــ تهاون حكومة الوفد مع السراى ورضوخها لتعيين حافظ عفيفى دون استشارتها ، جعل من السراى مركزا خطرا للتآمر الاستعمارى ، ومنحها فرصة التدبير الهادىء للمؤامرة .

٣ ــ رغم الروح الديموقراطية التى سادت مصر فانه لم تتخذ خطوات ايجابية لتوحيد المقاتلين وتعبئة الجهود فى « جبهة شعبية مصرية » تضم جماهير الوفد وكافة التنظيمات المشتركة فى الكفاح المسلح ..

٤ ــ كانت الحركات التقدمية المصرية تعانى من أثر معتقلات حرب فلسطين ولم تكن رغم دورها الايجابى الواضح فى معركة القناة قادرة على القيام بدور التوجيه الرئيسى للجماهير كما حدث خلال عام ١٩٤٦ وما بعده .

٥ ــ عندما بدأ الحريق لم تفطن الجماهير الى خطورته واشتركت

بعض العناصر غير المتواطنة فيه ، على اعتبار أنه يحرق بعض المبانى البريطانية ودور اللهو ، وعددا من المحلات التجارية الكبرى ... كان نقص الوعى ، وغيبة القيادة الشعبية ، من أهم عوامل نجاح الحريق ..

٦ ــ عدم مبادرة وزير الداخلية باصدار أوامر حاسمة بالضرب الشديد ضد المخربين .

٧ ــ تأخر الجيش فى النزول لمقاومة الحريق بخطة متعمدة حيث كان الضباط يتناولون الغداء مع الملك فى سراى عابدين .

وسرعان ما استعاد الاستعمار توازنه بعد الخطوات التى اتخذتها وزارات نجيب الهلالى وحسين سرى ... وبدأت تنحسر موجة المد الثورى فى مصر وفى السودان أيضا .

وعاد الشعب المصرى من جديد الى موقف الدفاع .

وبدأ الاستعمار ضغطه فى السودان لتحقيق هدفين رئيسيين :

١ ــ احداث انقسام جماهيرى بين قوى الشعب المتحدة بمحاولة جذب الجناح اليمينى المتردد فى المعسكر الوطنى .

٢ ــ تنظيم هجمات على التنظيمات الشعبية الديموقراطية بغرض تصفيتها أو جعلها تتخلى عن واجباتها النضالية .

وظهر الاستعمار الأمريكى فى صورة مبعوثين يجولون أنحاء السودان تحت ستار محاولة « حل مشكلة السودان » .

وفى هذه المرحلة التى اهتزت فيها الأوضاع التقليدية ، والتى دعا فيها نجيب الهلالى وحسين سرى المهدى للحضور الى مصر بدأ الختمية يقولون أن مصر قد خانتهم ، والتقى ذلك مع تصريحات

الصحف البريطانية بعد سفر وفد المهـــدى الى مصر بأن الختمية سوف يجدون عونا من الانجليز اذا اعتدت مصر على حقوقهم !

وكان التقاء القادة الاقطاعيين فى الســـودان من طائفة المهـــدى مع حكومات انقلاب حريق القاهرة تعبيرا عن الاتجاه المعادى للتقدم الذى بدأ الاستعمار البريطانى يدفعه فى مصر والسودان .

كانت الشهور التى أعقبت حريق ٢٦ يناير شهورا مظلمة مثل مبانى القاهرة بعد أن خمدت فيها النيران .

ـ حاول فيها أن يحقق ثمار انقلابه

ور على حريق القاهرة كان الضباط
تقدمية قد تحركوا ليلة ٢٣ يوليو
، لتقويض الحكم الملكى الفاسد .
اة السياسية لمصر والسودان .

الباب الخامس

السودان ..
وثورة ٢٣ يوليو

- اتفاقية يناير ١٩٥٣
- الأزهرى يغير سياسته
- السودان بعد الاستقلال

اتفاقية يناير ١٩٥٣

كانت ثورة ٢٣ يوليو انفجــارا شعبيا عبرت عنه الطليعــة من الضباط الأحرار فى الجيش ، وأنهت به شهور الظلام التى أعقبت انقلاب حريق ٢٦ يناير ، والتى فرضت على الشعب المصرى ألوانا من الكبت والارهاب والاعتقال فى محاولة لتثبيت دعائم الاستعمار

وبعد سماع البيان الأول للثورة تنفست الجمــاهير الصعداء ، وشعرت بحسها الثورى الصادق والأصيل ، أن الملكية قد أطيح بها ، وأنه لم يعد هناك مكان لحكم السراى ..

وفى خطوات ثورية سريعة أفرجت الثــورة عن معظم المعتقلين اليساريين ، وعزلت الملك فاروق ، وأصــدرت قانون الاصــلاح الزراعى الذى وجه ضربة شديدة للاقطاع المصرى العتيق ، وبدأت تواجه مشاكل الحياة السياسية من موقع المسئولية .

منذ اللحظة الأولى فى الثورة ، ورغم تلال المشاكل الداخلية التى جابهت طليعة الشعب الممثلة فى تنظيم الضباط الأحرار ، فان مشكلة السودان فرضت نفسها على الثوار .

كانت بريطانيا تستخدم كل حذقها ومهارتها السياسية من أجل استمرار سيطرتها على السودان باثارة مسألتين كان يرفضهما حكام مصر السابقين وهما :

١ ــ فصل المسألة السودانية عن المسألة المصرية .

٢ ــ حق السودانيين فى تقرير مصيرهم بأنفسهم .

وجابهت القيادة العـامة الموقف فى شجاعة وأرسلت فى نوفمبر ١٩٥٢ مذكرة تقترح الآتى :

١ ــ تمكين السودانيين من ممارسة الحكم الذاتى الكامل .

٢ ــ تهيئة الجو الحر المحـايد الذى لابد من توافره لتقرير المصير ..

وفوجئت الحكومة البريطـانية بهذا الموقف ، فلم تملك سوى الموافقة وان كانت قد لجأت الى المراوغة باظهـار ضرورة حمـاية الجنوبيين من الشماليين !

وكانت المباحثات قد بدأت فى ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ وانتهت فى ١٢ فبراير ١٩٥٣ بين اللواء محمد نجيب رئيس الوزراء فى ذلك الوقت والصاغ أركان حرب صلاح سالم والدكتور محمود فوزى وقائد الجناح حسين ذو الفقار صبرى والدكتور حامد سلطان والأستاذ على زين العـابدين حسن ممثلين للجـانب المصرى وسير رالف سنيفنسون ومستر باورز ممثلين للجانب البريطانى .

ولم تجد الثورة المصرية سبيلا سوى وضع الأمر بين يدى ممثلى الأحزاب السـودانية .. الأمة والوطن الاتحـادى والجمهـورى الاشتراكى الذين اجتمع بهم الصـاغ صلاح سالم ، وأقروا معظم فقرات المذكرة المصرية فى ١٠ يناير سـنة ١٩٥٣ والتى انتهت الى نصوص الاتفاقية .

وانتهى الأمر الى اتفـاق بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال ايرلندا بشأن الحكم الذاتى وتقرير

المصير للسودان ، ينص على فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات تمهيدا لانهاء الادارة الثنائية وتصفيتها ، ويحتفظ فى فترة الانتقال بسيادة السودان للسودانيين حتى يتم لهم تقرير المصير .

واتفق على أن يكون الحاكم العام هو السلطة الدستورية العليا داخل السودان يمارس سلطاته وفقا لقانون الحكم الذاتى بمعاونة لجنة خماسية تسمى لجنة الحاكم العام ، وتتشكل من اثنين من السودانيين وعضو مصرى وعضو بريطانى وعضو باكستانى .

العضوان السودانيان رشحتهما الحكومة المصرية والسودانية وهما الدرديرى عثمان وابراهيم أحمد وقد وافق عليهما البرلمان السودانى بعد انتخابه .

وكان العضو المصرى هو حسين ذو الفقار صبرى .

والعضو البريطانى جرافتى سميث .

والعضو الباكستانى سيان ضياء الدين .

وقد رشح الثلاثة من حكوماتهم .

كذلك شكلت لجنة للانتخابات من ثلاثة سودانيين عينهم الحاكم العام ، وعضو مصرى هو عبد الفتاح حسن ، وعضو بريطانى وعضو هندى ..

كما شكلت لجنة للسودنة أيضا مهمتها سودنة الادارة باحلال السودانيين محل البريطانيين والمصريين فى الوظائف التى ترى ضرورة احلالهم بها وأهمها البوليس والادارة وقوة الدفاع .

ونصت الاتفاقية على وضع الحكومة السودانية مشروعا بقانون لانتخاب جمعية تأسيسية كما نصت أيضا على انسحاب القوات

العسكريه المصريه والبريطانية من السودان فور صدور قرار البرلمان السودانى برغبته فى الشروع فى اتخاد التدابير لتقرير المصير على أن يتم ذلك فى فترة لا تتعدى ثلاثه شهور .

ونصت المادة ١٢ من الاتفاقية على الآتى :

تقوم الجمعية التأسيسية باداء واجبين :

الأول ــ أن تقرر مصير السودان كوحدة لا تتجزأ

والثانى ــ أن تعد دستورا للسودان يتواءم مع القرار الذى يتخذ فى هذا الصدد كما تضع قانونا لانتخاب برلمان سودانى دائم ..

ويتقرر مصير السودان :

(ا) اما بأن تختار الجمعية التأسيسية ارتباط السودان بمصر على أية صورة ..

(ب) أو أن تختار الجمعية التأسيسية الاستقلال التام ..

وهنا يجب علينا الرجوع قليلا الى انتصارات النضال الوطنى فى السودان ، حيث أمكن توحيد الصف الوطنى فى الجبهة المتحدة لتحرير السودان فى أوائل عام ١٩٥٢ واشتركت النقابات لأول مرة بواسطة مركزها الثورى ــ اتحاد نقابات عمال السودان ــ الذى خاض اضرابا فى ابريل عام ١٩٥٢ ضد مؤامرة تعديل قانون النقابات التى كانت تسعى لحل اتحاد النقابات ومصادرة الحريات النقابية .

لم يكن سهلا على المستعمرين أن يواصلوا البقاء فى السودان .. كان معنى بقائهم تزايد الحركة الجماهيرية وتكاتف قوى واسعة من الجماهير وارتباط المزارعين بالحركة الوطنية بقيادة ثورية جديدة هى الطبقة العاملة .

ولذا فان اتفاقية فبراير ١٩٥٣ التى قبلها البريطانيون مرغم
وقعت برغبة واضحة من الثورة المصرية فى اعطاء الشعب السو
حقه فى تقرير مصيره وتحت ظروف كانت تتميز باندفاع الحـ
الجماهيرية السودانية ضد الاستعمار مع ظهور الطبقة العاملة
واعية ..

وانتقد الحزب الشيوعى السودانى بعض ماورد فى هذه الا
باعتبارها لا تحقق الرغبة الجماهيرية الملحة فى وجوب الجلاء ا
للاستعمار قبل اجراء أى انتخابات فى السودان .. وكان هـذ
الرأى المعارض الوحيد وسط موجة هائلة من التأييد .

ولكن فقرة وردت فى كتاب « لمحات من تاريخ الحزب الشـ
السودانى» أعادت تقييم هذا الموقف عندما ذكرت أن الحزب فى تـ
للاتفاقية أخطأ فى ذلك الوقت لأنه نظر اليها من زاوية واحدة
الى مزالقها التى يستغلها المستعمرون والى كونها مناورة لهم ليـ
وضعا ــ شرعيا ــ فى البلاد لاستمرار نفوذهم ولم ينظـر ا
باعتبارها نتاجا من نتاج الكفاح الشعبى الذى كان فى الامكا
بثمر أوفر منها لو تقيدت أحزاب الطبقة الوسطى بحلفها فى
المتحدة لتحرير السودان ولكن هذا لايمنع أن المستعمر قد
تحت ضغط الحركة الجماهيرية فى السودان واضطر للتراجع ــ
الاتفاقية تراجع من جانبه ، اذ يمكن استغلالها لصالح الشـ
السودانى » .

وهكذا أيدت جماهير وأحزاب الشعب السـودانى اتفاقيـ
فبراير سنة ١٩٥٣ التى بادرت الثورة المصرية الى الضـغط

على الحكومة البريطانية لاقرارها ، وحشدت فى سبيل ذلك تأييد الأحزاب السودانية القائمة وقتئذ .. وأصدر الحاكم العام قانون الحكم الذاتى .

وهنا يجب أن نشير الى الدور النشيط الذى لعبه المرحوم الصاغ أركان حرب صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة المصرى الذى ولد فى سنكات بالسودان .. والذى بذل جهدا كبيرا فى حشد ارادة الشعب السودانى لنجاح الاتفاقية ، والوصول الى موقف أكثر ايجابية فى اللقاء مع مصر عند عرض قضية تقرير المصير والذى قام برحلة الى الجنوب رافضا اتباع الاجراءات الروتينية (الحصول على اذن بالسفر من الحاكم العام)

وأجريت أول انتخابات فى ظل الاتفاقية .

كان الحزب الوطنى الاتحادى ينادى بالاتحاد الفيدرالى مع مصر

وكان حزب الأمة يعلن استقلاله عن مصر وبريطانيا .

وفاز الوطن الاتحادى بأغلبية ساحقة تتجاوب مع مشاعر الجماهير السودانية التى تربطها علاقات تاريخية وانسانية واجتماعية مع أهل الشمال ..

وشاء القدر أن ينتزع منا شباب صلاح سالم الذى لعب دورا حاسما فى عقد الاتفاقية قبل أن يكتب تاريخ هذه الفترة الشديدة الحيوية فى تاريخ مصر والسودان ، ويفسر لنا كثيرا من الظواهر التى حدثت بعدها ..

ولكن حسين ذو الفقار صبرى عضو لجنة الحاكم العام يشير الى بعض ماكان يلاقيه فى اللجنة من عنت استعمارى ، كان يقاومه بنشر

بيانات صريحة موقعة باسمه فى الجرائد السودانية .

من ذلك مثلا مشكلة عرض الخلافات التى تنجم عن الاتفاقية على القضاء العالى الذى كان يتولاه البريطانيـون .. واسـتمرت مقاومة ذلك حتى استقال القضاة البريطانيون .

ونشر حسين ذو الفقار صبرى بيانا آخر ضد لجنة الحاكم العام لأنها منحت نفسها أجازة لمدة أربعة شهور يتجول فيها الأعضاء على حساب الحكومة السودانية مما يؤدى الى تعطيل أعمـال لجنـة السودنة التى كانت تعرض قراراتها على لجنة الحاكم العام .

ويؤكد حسين ذو الفقار صبرى ظهور اتجاه فى صفوف حـزب الأمة ينادى باستقلال السودان تحت رئاسة حاكم عام بريطـانى متمثلين فى ذلك بوجود اللورد مونتباتن حاكما عاما للهند بعد اعلان استقلالها !!

ولا ينبغى لنا أن تعبر هذه الفترة التاريخية الحاسمة دون أن ننقد الاتجاه الى دفع كثير من الأموال الى عدد من المشتغلين بالسياسة السودانية دون هدف واضح ... ذلك أدى الى انهيار القيم ، وتمزيق نفوس الكثيرين ، وبذر التطلعات الذاتية ، وخلق فئة من الذين تحركهم الأموال أكثر مما تحركهم المبادىء .

وقد تركت هذه الطريقة الفجة آثارها فى مسار الحياة السياسية .. ولم تؤد فى النهاية الى أية نتيجة ايجابية .

الأزهرى يغير سياسته

وساد شعور غامر بأن الاتفاقية قد مهدت الطريق فعلا لوحدة وادى النيل .. وأن الوقت وحده هو الذى يفصل بين الأمل والحقيقة بعد أن تولى اسماعيل الأزهرى رئاسة الوزارة وهو الذى أدلى بألوف التصريحات من أجل الوحدة على أساس سياسى .

ولكن تبين أن اسماعيل الأزهرى كان ينادى بما لا يؤمن به .. حرصا على كسب التأييد فى الانتخابات .. وكان يلتقى فى رغبة الانفصال مع حزب الأمة .

وشرع فى اتخاذ خطوات مضادة غير متوقعة :

- أوقف الصحف الاتحادية وسحب رخص بعضها ..
- رفض هدية من الأسلحة الحديثة عرضتها مصر فى أوائل ١٩٥٤
- رفض ارسال ضباط سودانيين للتدريب فى مصر على نفقتها وأصر على تدريبهم فى بريطانيا
- لم يوافق على رصد مصر لمبلغ ٣/٤ مليون جنيه لتنفيذ مشروعات ثقافية وصحية واجتماعية فى أرجاء السودان .

وقبل نهاية ١٩٥٤ ألف الحزب الوطنى الاتحادى لجنة من أعضائه لدراسة شكل الحكم المنتظر وقررت اللجنة التخلى عن مسألة الاتحاد مع مصر ، ووافقت الهيئة العامة للحزب على ذلك .

ولم يأخذ اسماعيل الأزهرى هذه الخطوات تجاه مصر فقط ..

ولكنه اتخذ خطوات أخرى فى السودان .

وكان للحزب الوطنى الاتحادى جريدتان « العلم » و «الاتحاد» فصل اسماعيل الأزهرى أسرة تحرير جـريدة العلم التى كانت مكونة من محيى الدين صابر وزير التعليم فى حكومة ثورة مايو وعقيل أحمد عقيل نقيب المحامين الحالى ومحمد أمين حسين وحسن دراوى سفير السودان الحالى فى سوريا وغيرهم لميولهم وكتاباتهم الواضحة من أجل تحقيق الاتحاد مع مصر .

وأغلق الأزهرى جريدة « الاتحاد » وجعل أسرة تحريرها هى التى تصدر جريدة « العلم »

وهنا يثور سؤال :

لماذا تغيرت سياسة اسماعيل الأزهرى بهذه السرعة ، وهو الذى كسب الانتخابات تحت شعار الاتحاد ؟

وعلينا أن نرصد تحركات وأحاديث الأزهرى لنخرج منها بمعالم التغيير ..

فى مؤتمر باندونج لم يقف اسماعيل الأزهرى مع الدول المتحررة ، ولكنه اتخذ موقفا التقى فيه مع الدول الرجعية ومنها دول حلف بغداد مثل العراق « الملكية » فى ذلك الوقت !

وعندما زارت الملكة اليزابيث يوغندا سافر اسماعيل الأزهـرى لمقابلتها فى كمبالا رغم معارضة الشعب السودانى ونصيحة الثورة المصرية له بعدم الذهاب .. وهناك قبل يد الملكة وعاد بتصريحات سيئة ! ..

وفى عام ١٩٥٥ سافر على رأس وفد مكون من يحيى الفضـلى

والشيخ على عبد الرحمن الى لندن حيث قوبل مقابلة حافلة .

كان الاستعمار البريطانى بعد نجاح الأزهرى فى الانتخابات قد رسم سياسته على التركيزعلى الجواد الرابحوهو أول رئيس لحكومة سودانية ..

وفى سرعة شديدة بدأت سياسة الأزهرى تتغير وأخذ يتغاضى عن النضال الشعبى المشترك ضد الاستعمار البريطانى ويعلن أن تسمية الحزب بالاتحادى ، انما تعنى « اتحاد قبائل السودان » !

وظلت وزارة اسماعيل الازهـرى وهى الوزارة السـودانية الوحيدة التى شكلت من حزب واحد نمارس خطتها فى عزل نضال الشعب السودانى عن نضال الشعب المصرى ..

وقد أدت بعض خطوات الازهرى الى حدوث تناقض فى صفوف الختمية .. الأمر الذى أدى الى خروج عدد من أنصار السيد على الميرغنى وتكوينهم لحزب الشعب الديموقراطى فى يوليو ١٩٥٦ بعد الاستقلال ..

وبعد أن أخذت اجراءات السودنة مداها وأوشكت ثلاث سنوات الانتقال على النهاية ، أبلغت الحكومة السـودانية حـكومتى مصر وبريطانيا برغبة الجمعية التأسيسيةفى مـزاولة حق تقرير المصـير ، وطالبت بسحب جيش الاحتلال لاجراء الاستفتاء (فى جو حر محايد) ..

وسحبت مصر وبريطانيا جيوشهما .

وتركت مصر كل الأسلحة الثقيلة التى كانت تخص جيشها فى السودان ..

وتم الجلاء فعلا فى نوفمبر ١٩٥٥

ووجدت حكومة السودان بعد الجلاء أن الأمر لايحتاج الى استفتاء بشأن شكل الحكم بعد اتفاق كل الأطراف الحاكمة على معارضة الاتحاد .. وأعلنت قيام الجمهورية السودانية فى ١٩ديسمبر ١٩٥٥ .

وأعلن استقلال السودان رسميا فى أول يناير ١٩٥٦ ، دون استفتاء أو تقرير للمصير .. ودون ارتباط بمعاهدات أو أحلاف أو اقامة لقواعد أجنبية ، وشكل أول مجلس سيادة سودانى لرئاسة الدولة ..

ويلاحظ أن هذه الاتفاقية قد أدت الى جلاء القوات البريطانية عن السودان قبل أن تجلو نهائيا عن مصر ذاتها فى يوم ١٨ يونيو ١٩٥٦ .. وهكذا كانت السودان أول دولة عربية افريقية تستقل فى القرن التاسع عشر بعد ثورة المهدى .. وأول دولة عربية افريقية تجلو عنها قوات الاحتلال أيضا .

السودان بعد الاستقلال

كان استقلال السودان انتصارا كبيرا للشعب السودانى الذى أجهدته تصرفات الاستعمار أكثر من نصف قرن .. وساد تصور عام بأن الاستقلال هو العصا السحرية التى يمكن أن تحل كل المشكلات وترفع قبضة الاضطهاد ، وتمنح الناس فرصا ثمينة لحياة لا تعرف الظلم ..

نمى هذا التصور رجال الأحزاب الحاكمة ، والفئة الصاعدة من التجار .. والرأسماليين الذين ارتبطوا بالشركات الاستعمارية البريطانية أساسا ..

وفقد النضال الوطنى حرارة الاصرار على التطور الاجتماعى .. وتزايد الطابع اليمينى للطبقة الوسطى السودانية التى تهيأت لها فرص العمل والثراء ، وبرز وجهها الرجعى المعادى للتقدم الاجتماعى والاشتراكية وحركة الطبقة العاملة .

وفى كلمات لم تربط الحركة السياسية التقليدية فى السودان نفسها بهدف التطور الاجتماعى ، وكانت تركز دائما على شعارات وطنية مجردة ، خالية من أى مضمون يحمل الأمل فى تغيير حياة الانسان ..

لم تحاول هذه الأحزاب أن تخلق للاستقلال مضمونا شعبيا أصيلا ، وانما تضاعف فهمها للكسب من وراء الاستقلال فقط ..

ولم تبذل الأحزاب السياسية جهدا فى دراسة التكوين الطبقى للمجتمع السودانى وظلت ايديولوجيتها تعبيرا عن الطبقة التى كونتها من أبناء البرجوازية .. الذين أتيحت لهم فرصة التعليم ، وبذرت فى نفوسهم التطلعات الفردية ..

ووجه قادة الأحزاب الرجعية استفزازات شديدة للمناضلين تحت راية الاشتراكية وتحرير الانسان السودانى من القهر والظلم الاجتماعى ..

ولكن هؤلاء المناضلين لم يستجيبوا لهذه الاستفزازات ، وانما تعمدوا مواجهة كل اتهام ، والرد عليه ، وكشف جذوره الرجعيه ومع ذلك فقد الحزب الشيوعى عددا من أعضائه المثقفين الذين أجهد النضال خطواتهم ، ووجدوا فى جهاز الحكم بعد الاستقلال فرصة تهيىء لهم الاستقرار ..

وبالرغم من الصعوبات الذاتية والموضوعية التى واجهها الحزب فى الفترة مابين ٥٦ – ١٩٥٨ الا أنه ظل يناضل بثبات من أجل التغلب عليها

وبدأت الحركة الجماهيرية تتصاعد مع مطلع عام ١٩٥٨ ضد مواقف محددة أخذت تجنح اليها حكومة عبد الله خليل الائتلافية التى حلت محل حكومة اسماعيل الأزهرى فى ٥ يوليو ١٩٥٦ وتكونت من الحزبين المتنافرين أصلا .. الأمة والشعب الديموقراطى

كانت حكومة عبد الله خليل تفتح أبواب السودان للاستعمار الجديد وتهيىء الجماهير لقبول المعونة الأمريكية ..

ولكن نضال الثورة المصرية ضد الاستعمار البريطانى وتحقيق

الجلاء فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ ، ثم تأميم القنال ، وفشل العدوان الثلاثى فى تحقيق أهدافه ، ورفض مصر الارتباط بأى نوع من الأحلاف العسكرية ، وعقد صفقة الأسلحة التى حررت مصر من تبعيتها للاستعمار ومقاومة محاولات التدخل الأمريكى فى صلابة وصراحة ووحدة مصر وسوريا .. وتحسن العلاقات الاقتصادية والثقافية مع الاتحاد السوفييتى ودول المعسكر الاشتراكى .. كل ذلك كان له بالتأكيد تأثير قوى وشديد النفوذ على تيار العمل السياسى فى السودان ..

التجربة الرائدة للثورة المصرية ، وخطواتها الثابتة فى طريق التقدم ، جعلت شعب السودان يزداد اصرارا وثباتا على مقاومة حكومة عبد الله خليل التى حاولت اعادة السودان الى سيطرة الاستعمار من جديد .

وافتقد الحكم فى الفترة من أول يناير ١٩٥٦ حتى ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ الوحدة الوطنية التى تهيىء له الثبات والاستقرار .

عجزت وزارة الحزب الوطنى الاتحادى الأولى لأنها كانت وزارة حرب واحد ..

وفشلت الوزارة الائتلافية الثانية لأنها أهملت القوى التقدمية والمزارعين والفلاحين ..

ويذكر أن الرئيس جمال عبد الناصر كان قد التقى باسماعيل الأزهرى وعلى عبد الرحمن معا فى القاهرة .. وأرسل سفير السودان « يوسف التنى » عضو حزب الأمة الى عبد الله خليل يبلغه بأن اتفاقا قد تم فى القاهرة لتشكيل حكومة من الوطنى

الاتحادى والشعبى الديمقراطى واخراج حزب الأمة من الحكم !!!

وبادر عبد الله خليل بتنفيــذ مخططه وتســليم الحكم للقيــادة التقليدية للجيش .

وتسليم الأحزاب التقليدية الأمر للقيادة التقليدية للجيش .. له قصة مثيرة ..

واستلام المجلس الأعلى للقــوات المسلحة للسلطة كان يشـكل انعطافا حادا فى تاريخ السودان ... وكادت الأمور تغرق مع الأيام فى ظلام اليأس .

الباب السادس

ثورة أكتوبر

- صورة الثورة من الخرطوم
- محاولات ثورية ضد الدكتاتورية العسكرية
- قبضة العنف ..
- الرجل المريض فى افريقيا .. وقتلة لومومبا
- الانهيار الاقتصادى
- الحريات الديموقراطية
- شرارة الثورة
- الجيش مع الشعب
- اتجاهات الثورة .. ورأى الحزب الشيوعى
- صورة أخرى من الخرطوم
- نكسة ثورة أكتوبر

صورة الثورة من الخرطوم

ولم يطل الأمر كثيرا ..

اهتز الشعب المصرى فرحا وهو يسمع فى الاذاعة آنباء الثـورة على الحكم العسكرى الديكتاتورى فى الخرطوم .. وظلت الأنبـاء تصل الى القاهرة ، ولكنها لا تعطى صورة صادقة عما يحدث هناك فى البلد الشقيق .

وقررت أن أكون هناك وسط الأحداث .. بين جماهير الشعب السودانى .. لأعيش فترة من فترات التاريخ العامرة بنبض التقدم والأمل ..

الطائرة تتحرك الى الخرطوم وجواز سفرى لا يحمل تأشـيرة دخول الى السودان !!

أسرعت مع الطائرات الأولى بعد افتتاح المطار .. دون أن أتريث تلبية لكلمات موظف الجوازات فى سفارة السودان بالقـاهرة .. الذى وعدنى بتأشيرة دخول فى مدى عشرة أيام .. !!

ومكتب الخطوط الجوية السودانية رفض أن يعطينى التذكرة الا بعد أن كتبت اقرارا بأنى أتحمل مسئولية ماينجم عن ذهابى الى السودان دون تأشيرة دخول !

ترى هل الموقف فى السودان ، يستدعى هذه الاجراءات ؟

ماذا يمكن أن يحدث لى فى مطار الخرطوم ؟

هل أعود على نفس الطائرة الى القاهرة ؟

أسئلة كثيرة كانت تنتظر الجواب فى مكتب ضابط الجوازات ..

الساعة بعد منتصف الليل والسكون يغمر كل شىء .. وأنا لا أكاد أسمع الا دقات قلبى

ونظر الضابط فى صفحات الجواز ، ثم قال لى فى هدوء :

ـ أنت لا تحمل تأشيرة دخول .. لماذا ؟

ـ أخذت تأشيرة الخروج اليوم .. وكنت فى عجلة أريد أن ألحق بأول طائرة ..

ـ لماذا حضرت ؟

وقلت فى صراحة :

ـ أنباء السودان جذبتنى الى هنا كصديق ..

وابتسم الضابط وهو يقول :

ـ انتظر قليلا ..

وعاد بعد دقائق ، يقول لى :

ـ أتكفيك الاقامة هنا عشرة أيام ؟

وقلت وأنا لا أكاد أصدق أن الأمر يمكن أن ينتهى فى مثل هذه البساطة وبكل هذه الدقة :

ـ طبعا يكفى ..

وخرجت مسرعا من المطار الصغير استقبل نسمات ليل الخرطوم باحثا عن ثورة ٢١ أكتوبر .

ولكن .. أين مظاهر الثورة .. المطار هادىء ليس به جنود . الطرق تكاد تكون خالية .. أمام القصر الجمهورى جنديان

فقط •• ووزارة الدفاع يحرسها حارس واحد •• و
مظلمة ..

سائق التاكسى يتحدث فى حماس عن ثورة الشعب
العشرة التى تفجر فيها الموقف كالبركان .. وسقط
والجرحى وارتوت الأراضى بالدماء

ومع شروق الشمس كانت تتضح الحقيقة .. وينحس
مع الظلام .. ثورة ٢١ أكتوبر لعب الشعب فيها دور ا
اشترك فيها كل الناس .. القضاة والعمال وأسـ
والطلبة والأطباء .. والمهندسون .. والنساء ••

واشترك فيها أيضا ضباط الجيش •• نعم •• ضـ
اشتركوا فى الثورة مع الشعب ضد المجلس الأعلى للق
الذى تولى الحكم منذ ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ ..

الشرارة الأولى للثورة كانت هى الطلقة التى استق
الشهيد أحمد قرشى .. الذى حمله زمـلاؤه الى مبنى ا
وناموا حول جثته لحراستها ..

وفى اليوم التالى حمل الجثمان أساتذة الجامعة وهـ
الأرواب واجتمع أكبر حشد للجماهير فى تاريخ السود
الجماهير بعربات الجيش المصفحة وبالدبابات . وانطلة
تدوى فى أرجاء الفضاء تطلب سقوط الحكم القائم ..

كان جديدا أن يقف القضاة مع جماهير الشعب ..

وكان جديدا أن تبرز من خلال الأحداث قيادة ثوريـ
القومية الموحدة تضم نقابات الأطباء والعمال والمحامين

وأساتذة الجامعة والمعلمين واتحاد الطلبة ..

وكان جديدا أن يعلن الاضراب السياسى العام من أمام المحكمة العليا بالخرطوم تحت تهديد الدبابات .

كل هذا كان جديدا فى تاريخ السودان الحديث .

ولكن .. هل اندلعت الثورة بطريقة عفوية تلقائية ؟

وهل كانت المشكلة هى اجتماع الطلبة للاحتجاج على تنبيع الجامعة الى وزارة التربية والتعليم التى كان يتولاها طلعت فريد ؟

وهل كانت مشكلة الجنوب هى التى جعلت الاناء يفيض ؟

الواقع أن ثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٤ كانت حصادا طبيعيا لنضال الشعب السودانى ضد طغيان الحكم السابق .. وانها أيضا أكبر ثورة فى تاريخ السودان الحديث ..

وتبدأ القصة قبل ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ ..

كان أسلوب الحكم البريطانى يعتمد على امتصاص وتفريغ الحركات الوطنية . وجذب عناصر من اليمين الذى تنهض سطوته على الطائفية الدينية وينمى فى نفوسهم دعوة الكراهية والانفصال عن نضال الشعب المصرى .

ولكن ما أن حصل السودان على استقلاله ، وخفت قبضة بريطانيا عن الجهاز التنفيذى للحكم حتى ظهر وريثها القوى ، الاستعمار الأمريكى الجديد ، الذى جعل من بريطانيا ذاتها تابعا اقتصاديا له وبدأ يتسرب الى هذا البلد الكبير ، الملىء بالخيرات ، الذى يتميز بموقعه الاستراتيجى الهام فى مركز القلب من افريقيا .

ولم يتردد الاستعمار الأمريكى الجديد فى اقتحام هذا المجال ،

ولعلنا مازلنا نذكر الأمريكيين الذين وفدوا عام ١٩٥٢ الى السودان بدعوى بحث « حل مشكلة السودان » .. أسفر عن نفسه منذ بدء الاستقلال وعندما قوبل بعقبات نتيجة المعارضة الشعبية التي تجسمت حول محاولاته الواضحة ، دبر خطة تسليم الحكم للعسكريين ، حتى يقضى نهائيا على كل محاولة ديموقراطية تعبىء الشعب ضد اتجاهاته ..

كان محددا فى هذا اليوم أن يجتمع البرلمان السودانى لاقرار الغاء المعونة الأمريكية ، واسقاط عبد الله خليل الذى اعتمد فى رئاسته على حزب الأمة وتشكيل حكومة أكثر وطنية .

وكانت الجماهير الثورية خارج البرلمان قد جمعت صفوفها ، واقتربت من حالة صدام مباشر مع الحكومة وخاصة بعد أن وصل النضال الى ذروته فى الاضراب التاريخى الذى دعا اليه اتحاد النقابات وتم تنفيذه يوم ٢١ اكتوبر .

وفجأة ..

تخلى عبد الله خليل عن الحكم .. وتم تسليم السلطة بتشجيع من الدوائر الاستعمارية الى كبار ضباط الجيش !!

نعم .. تسليم السلطة .. وأزيد الأمر تأكيدا

لم تكن هناك ثورة .

ولم يكن هؤلاء الضباط ثوارا !!. ورثوا الحكم بطريقة تقليدية :

وسمعت أنه كان مفروضا أن يفصل معظمهم من الجيش .. اذ كان قد نفذ مشروع « السودنة » الذى أثير فى فترة حكم الحزب الاتحادى ، لحماية الحركة الوطنية من عملاء الانجليز !!

كتب اللواء السابق أحمد عبد الوهاب يقول « لما كان يتمتع به عبد الله خليل من مكانة واحترام فى قلوب أبنـــائه الضباط كان يعلم بالانقلاب ، وأن الوقت مناسب جدا فباركه ، وكل ما قاله ربنا يوفقكم » !!

وهكذا تم الحكم للديكتاتورية العسكرية .

وفى الأسبوع الأول أسفر الحكم الجديد عن وجهه الحقيقى .. حل البرلمان ، والأحزاب وكل النقابات والجمعيات .. حتى مجالس ادارة الاندية الرياضية . !

صدر قانون دفاع السودان لعام ١٩٥٨ ولائحة دفاع الســودان أيضا ، الأول يتيح عقوبة الاعدام والسجن لكل من يعمل على تكوين أحزاب أو يدعو لاضراب ، أو يعمل على اسقاط الحكومة أو يبث الكراهية ضدها ، والثانية تلغى كافة الحريات للمواطنين ..

ومن بعد ذلك لم يتخذ خطوة واحدة ثورية .

ويبدو أن فاقد الشيء لا يعطيه .

وبدأ حكم كبار الضباط يثير صغارهم من الأحرار والثوار ..

محاولات ثورية ضد الديكتاتورية العسكرية

بدأت عدة محاولات للقيام بانقلاب عسكرى ضد هذا الحكم الديكتاتورى .

الأول كان بعد أربعة شهور ونصف فى ٤مارس١٩٥٩ عندما قام الاميرالاى عبد الرحيم شنان والأميرالاى محيى الدين أحمد عبدالله والصاغ محمد ابو الدهب والبكباشى حسن ادريس بانقلاب لم ينجح وان كان قد أظهر أن الجيش يضم عناصر يمكن أن تتعاون مع الشعب فى كفاحه من أجل حريته .

طالب عبد الرحيم شنان بحل المجلس الأعلى الحاكم ، واطلاق سراح المسجونين السياسيين ، وعودة بعض الضباط المحالين الى الاستيداع ..

وتم الاتفاق معه على ادخاله عضوا فى المجلس الأعلى .. وابعد أكثر عناصره رجعية وهو اللواء أحمد عبد الوهاب بينما تسلل الى المجلس اللواء المقبول أمين الحاج

وتعتبر حركة ٤ مارس تغييرا فى طبيعة مراكز السلطة ، ولكنها لم تحدث تغييرا فى طبيعة النظام الرجعى الديكتاتورى ، وذلك لأن الحركة الجماهيرية لم تكن متماسكة وتأثيرها داخل الجيش كان ضعيفا فكريا وتنظيميا .

ولكن حياة شنان فى المجلس الأعلى لم تطل .

قامت حركة تطهير فى ٢٢ مايو ١٩٥٩ .. اعتقل بعدها الأميرالاى عبد الرحيم شنان والبكباشية حسن ادريس وعبد الحفيظ شنان وقدموا الى المحاكمة .

وفى دفاعه عن نفسه أمام المحكمة العسكرية رفع شنان الستار عن مؤامرة عسكرية أمريكية .

قال إنه دبر الانقلاب لأنه فى أثناء قيادته لمنطقة شمال السودان ، التقى مع خبراء أمريكيين كانوا يدرسون فكرة اقامة قاعدة أمريكية عسكريه فى منطقة حلايب ، شمال السودان وقريبا من حدود مصر الجنوبية ..

وأغلقت أبواب السجن على شنان .. وأسدلت الستار على فكرة اقامة القاعدة الأمريكية فى حلايب .

وكشف عبد الرحيم شنان أيضا عملية تسليم الحكم لعبود بقوله :

« لقد قال عبد الله خليل لى اننى عندما سلمت الحكم للرئيس عبود كنت مطمئنا اليه » .

واتخذ الدفاع وجهة سياسية فقال البكباشى عبد الحفيظ شنان فى دفاعه أمام المجلس العسكرى العالى :

لقد قامت حركة ١٧ نوفمبر وقال قائدها إن الذى قامت من أجله هو القضاء على الفساد والمحسوبية والارتشاء وتبصير الشعب بمصالحه الحقيقية .. فماذا فعلت حركة ١٧ نوفمبر .. ؟

١ ــ كممت الأفواه واسكتت الشعب وأغلقت الصحف وعطلت النقابات .

٢ ــ حاكمت زعماء العمال بتهم لم يعرفها الشعب وبطريقة مريبة

٣ ـ كونت لجنة للنظر فى قـوانين العمـال لم نسـمع بهـا ولا بمجهوداتها الا يوم أعلن نبأ تشكيلها .

٤ ـ وصفت العلاقة بين الجمهورية العربية المتحدة والسودان بأنها جفوة مفتعلة خلقها الساسة المدنيون ، ولم تزدها الا جفـوة وافتعالا ..

٥ ـ لم تحاكم أى مرتش أو مستغل لنفوذه ! أو مثر على حساب الشعب أو مفسد للحكم

٦ ـ قال الرئيس ان الثورة لا تحقد على أحد ولذلك عفا الله عما سلف ونقول إن من حق أى شخص أن يعفو عما له من ديون على الغير ولكن حق الشعب لايعفيه إلا الشعب .

٧ ـ اعتقلت المواطنين بالجملة وهى تعلم أنها لا تستطيع محاكمتهم لأنه لا يسندها قانون يحاكمهم وليست هناك جريمة يحاكمون عليها

٨ ـ انها بدلا من محاكمة المرتشين واللصوص صارت تحيلهم على المعاش وتزيدهم من مال الشعب الذى نهبوه .

٩ ـ انها لم تتخلص من أعوان الاستعمار فى الخدمة المدنية وهى تعلم أنها سبب كل بلاء وفساد اصاب البلاد منذ نيل الاستقلال .

١٠ ـ انها لاتعلم أن المبادىء لاتحارب الا بالمبادىء وأشـياء أخرى أكثر وأعظم ..

هذا الاتجاه السياسى المعبر عن وجود قوة سياسية ثورية داخل الجيش انتهى الى محاكمة عشرات من الضـباط ، وصلت فيهـا الأحكام الى ١٤٠ عاما على عشرة ضباط .. المؤبد على الأميرالايين عبد الرحيم شنان ومحيى الدين عبد الله والبكباشية حسن ادريس

وعبد الحفيظ شنان ومحمد على السيد والصاغ أحمد أبو الدهب والسجن ١٥ عاما على اليوزباشي محجوب بابكر سوار دهب وطرد ١٧ ضابطا منهم اللواء أحمد عبد الله حامد والقائمقام على صالح سوار الدهب .

ومع ذلك فقد أسدلت هذه المأساة الستار على فكرة اقامة القاعدة العسكرية الأمريكية فى حلايب شمال السودان قريبا من حدود مصر الجنوبية ..

بدأت الحركة الشعبية فى النهوض بقيادة العناصر الثورية النقابية والحزب الشيوعى . فقد وقعت اضرابات فى صفوف العمال بالعاصمة وبين الطلاب فى المعاهد العليا والثانوية . ولكن تلك الحركة لم تكن شاملة ولم تصل الى المستوى الذى تحمى فيه العمل المسلح وتمنحه التأييد الشعبى الكافى .

وفى ٦ نوفمبر ١٩٥٩ تجمع عدد من الضباط الثائرين على الاستبداد .. وارتبط بهم بعض الضباط التقدميين ، ولكن انقلابهم لم يتحقق رغم نجاح خطواته الأولى .. وأعدم خمسة من شباب الضباط منهم الطيار الصادق محمد حسن ، والبكباشى يعقوب كبيدة ، والبكباشى على حامد والصاغ عبد البديع على كرار واليوزباشى عبد الحميد عبد الماجد .

وأعدم الضباط شنقا رغم مخالفة ذلك لتقاليد الجيش خوفا من عصيان الجنود لتنفيذ الأوامر .

وحكم بالسجن المؤبد على الصاغ عبدالرحمن كبيدة والملازم ثان محمد محجوب عثمان وطرد عدد من ضباط القوات المسلحة

قبضة العنف

ومن بعد هذه المحاولات بدأ ضباط الحكم العسكرى يحمون أنفسهم عن طريق التجسس والسجن والاعتقال والتشريد ، وأخذوا ينعزلون عن الشعب ، ويعزلون السودان ايضا عزلة كاملة .

كانت السجون والمعتقلات لاتخلو من الأحرار

وتحمل الشيوعيون العبء الأكبر من جرائم ارهاب حكم عبود

وحكم بالسجن على الشفيع أحمد الشيخ سكرتير اتحاد نقابات عمال السودان والعضو البارز فى قيادة الحزب الشيوعى .

واعتقل ٢٥ من الشيوعيين فى يونيو ١٩٥٩ ونقلوا الى معتقل « ناجيشوط » وهو جبل ارتفاعه أكثر من ٦٥٠٠ قدم وجوه رطب جدا .. وكان من بين المعتقلين أحمد سليمان المحامى ، والدكتور عزالدين على عامر ، وجوزيف جرنج وزير الجنوب الحالى فى وزارة ثورة ١٤ مايو ، ولم ينزلوا من الجبل الا بعد اضرابهم عن الطعام فى أكتوبر ١٩٥٩

ووصلت الحملة ضد الحزب الشيوعى الى ذروتها فى الفترة بين منتصف ١٩٥٩ ومنتصف ديسمبر عام ١٩٦٠ ، حيث كان كل أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى .. عدا اثنين داخل السجون والمعتقلات ، وتمت عمليات تفتيش جماعى لمدن وأحياء بأكملها فى ليلة واحدة كما حدث فى عطبرة وأم درمان ، فى محاولة من

الحكم العسكرى لتصفية الحزب الشيوعى تصفية كاملة .

ومع ذلك كانت القوى الوطنيـــة تتجمع وأرسل الســياسيون مذكرات يطلبون فيها اعادة الحياة الديموقراطية ..ولكن بلاجواب..

وحدثت أن اشتد التعذيب على مواطن يسمى حسنين حسنى .. وقدمت من أجل ذلك مذكرة احتجاج ، وقع عليها عدد من رجال الأحزاب ..

ولم يطق المجلس الأعلى صبرا .. اعتقل فى يوليو ١٩٦١ مئات من المشتغلين بالسياسة من مختلف الاتجاهات .. عبد الله خليل رئيس الحكومة التى أورثتهم الحكم .. الى عبـــد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعى السودانى .. وكان ضمن المعتقلين اسماعيل الأزهرى ومبارك زروق ومحمد أحمد محجوب وأحمد سليمان .

***

وظل هؤلاء المعتقلون سبعة شهور فى جوبا .

وكان من أثر هذه الاعتقالات أن أوقفت الأحزاب التى تولت الحكم كل نشاط يعارض الحكومة .

آثر رجال الأحزاب التقليدية السكينة

وبدأ النشاط السياسى يتخذ طابعا جديدا .. اتجه الى التجمعات الشعبية والهيئات والنقابات العمالية والمهنية .

كانت الحكومة قد وضعت لها قوانين رجعية شديدة القسوة .. ورغم ذلك كان يفور فيها نشاط العناصر الحرة الثورية ..

وبينما أخذت الأحزاب التقليدية تتواكل وتتكاسل وينخر اليأس قلوب أعضائها نشـــط الحزب الشيوعى والهيئات والشـــخصيات

النقدمية ، وبرزت عنــاصر جديدة ترفض قبول ا
الارهابى ..
وارتفع شعار « الاضراب السياسى العام » كمــا

وكان حكم كبار الضباط يقدم كل يوم دليلا جديدا للشعب ، على أنه يمضى فى ركب الاستعمار .. وانه يحول ربيع الحياة السودانية الى خريف يذبل فيه كل شىء ..

ومظاهر ذلك واضحة لاتحتاج الى تفسير طويل ..

السودان ليس عضوا فى مؤتمر التضامن الأسيوى الافريقى وليس هناك من يمثله فى سكرتارية المؤتمر بالقاهرة !!

السودان ليس عضوا فى اتحادالعمال العرب .. رغم أنه يتميز بنشاط نقابى عريق والحكومة ترفض تكوين اتحاد للعمال وترفض أى ارتباط بالعرب .

السودان يدير ظهره للمؤتمرات العربية ويكاد لايشترك فيها الا بقدر ضئيل .

لثمت حكومة اللواءات وجه السودان العربى .

طلعت فريد أحد وزراء عبود يقول فى مؤتمر صحفى عقد فى فبراير ١٩٥٩ « لا معنى لأن تهاجم صحافتنا فرنسا .. فكما تقتل فرنسا الجزائريين فان الجزائريين يقتلون الفرنسيين .. ولذا فان وفود الحكومة الجزائرية زارت كل الدول العربية عدا سودان عبود

القوى الشعبية فى السودان ترى فى ثورة ٢٣ يوليو انتصارا لها .. لأنها تبنت شعار حق تقرير المصير كما جاء فى اتفاقية ١٩٥٣ ..

وهى سطلع الى الخطوات التى تتخذها لمصلحة الشعب العربى ..
ولكن حكومة السودان كانت تقيم اسوارا عالية تمنع تدفق العلاقات بين الشعبين .. وكانت تعيش بعقلية حكام مصر قبل الثورة ، وتعتبر كلمة الاشتراكية جريمة لايحق لسودانى أن يرددها أو يتحدث عنها .

ومنعت حكومة عبود الطائرات العربية من النزول فى بورسودان لمساعدة الجمهورية اليمنية بينما فتحت الميناء للاسطول البريطانى !

بينما أغلقت حكومة السودان أبوابها أمام العلاقات الحية المتجددة مع الشعوب والدول الافريقية المتحررة ، فتحت أبوابها لرؤوس الأموال الأجنبية ، وامتلأت الوزارات بالمستشارين والخبراء الألمان والأمريكان .. وأخذ الاستعمار الجديد يثبت أقدامه عاما بعد آخر .

ولذا لم يكن غريبا أن يشتهر السودان بين الشعوب الأفريقية باسم « الرجل المريض فى أفريقيا » كما قال سيكوتورى زعيم غينيا ..

ومن المظاهر التى أثارت شعب السودان موقف حكومته من المساعدات التى أرادت الجمهورية العربية المتحدة وغيرها من الدول مثل الاتحاد السوفييتى أن ترسلها الى قوات لومومبا فى الكونغو .

رفضت حكومة السودان السماح لها بعبور أراضيها !! ورفضت أن تمد قواته بالأغذية .

واتهم الشعب السودانى حكومته بأنها أسهمت فى قتل لومومبا وخنق الحرية فى الكونغو .

كانوا يطلقون على أعضاء المجلس الأعلى اسم قتلة لومومبا .

هذا فى الوقت الذى كانت تسمح فيه حكومة السودان لبريطانيا بنقل الأسلحة والطائرات الى الجنوب العربى ، فوق أرض السودان !

لماذا يسمى الشعب السودانى أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة باسم قتلة لومومبا ؟

الواقع أن حكومة السودان قد اتخذت موقفا غريبا من حوادث الكونغو ، استجابت فيه تماما لرغبات الولايات المتحدة الأمريكية .

نشرت صحيفة الوشنطن بوست الأمريكية فى ٦ أكتوبر ١٩٦٠ ..

« ولا يفوتنا أن نذكر أن السودان قد ساند الأمم المتحدة بكل قوة فى موضوع الكونغو ، ورفض السماح بحق الطيران فوق سمائه أو الهبوط فى أرضه لشحنات الامدادات السوفييتية لليوبولد فيل ، وبحكم جيرته للرئيس عبد الناصر ، فقد عرف كيف يصد بفعالية الضغط الصادر عن القاهرة .. ولاشك أن هذه البلاد ربما تنظر فى أمر تقديم الكثير لمساعدة السودان فى سبيل تدعيم دوره الاستقلالى فى قارة أفريقيا .. »

هكذا بكل وضوح وصراحة ، تظهر الجريدة الأمريكية ان رجال المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، قد اتخذوا موقفا معاديا لمساندة لومومبا ، وجيزنجا من بعده ..

وترسل حكومة السودان السابقة تأكيدا لذلك فى شكل مذكرة الى السفارة البلجيكية فى الخرطوم يقول فيها أحمد خير ، « ان حكومة السودان لاتقر الفوضى وعدم احترام القانون ، وستعمل على اعادة الأمور الى نصابها وهى لاتضمر أى عداء للحكومة

البلجيكية !! » ..

ليس هذا فقط بل ان اللواء حسن بشير أدلى بتصريح فى لندن يشكو فيه حكومة الجمهورية العربية المتحدة لأنها تضغط على السودان ليسمح لها بارسال المساعدات !! ..

ويكمل مينن ويليمز وكيل الخارجية الأمريكية لشئون افريقيا صورة الأحداث عندما صرح فى مطار الخرطوم يوم ١٧ فبراير سنة ١٩٦١ بقوله « ان حكومة السودان قد بذلت جهدا شاقا لتحول دون عبور الأسلحة الى الكونغو » .

ولذا فانه عندما وردت الأنباء بمصرع لومومبا ، هب شعب السودان فى مظاهرات جارفة يعلن غضبه على أعضاء الحكومة والمجلس الأعلى للقوات المسلحة ، واصفا اياهم بأنهم « قتلة لومومبا » ..

ومن خلال هذه المظاهرات ، تمت حركة اعتقالات واسعة ، واستمرت حكومة السودان فى سياستها المتهاونة .

وقفة قصيرة ..

الموقف الذى اتخذته حكومة المجلس الأعلى للقوات المسلحة كان يمكن أن يكون مفهوما لو أنه اتسم بالحيدة الكاملة ..

ولكن ..

صدر بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٦١ أمر رقم ٩٤ بتوقيع قائد مطار الخرطوم يحذر فيه من الادلاء بأية معلومات عن الطائرات ، خصوصا « غير التجارية » التى تهبط بمطار الخرطوم !!

لماذا صدر هذا الأمر ؟

لأن الطائرات الحربية الأمريكية كانت تتدفق على مطار الخرطوم ..
وتمكن بعض المواطنين من تسجيل عدد هذه الطائرات ووجهاتها ..

فى ثلاثة أيام تبدأ يوم ٢٤ مارس ١٩٦١ هبطت ٢٥ طائرة حربية أمريكية محملة بالعتاد الحربى !!

وخلال أسبوعين بلغت هذه الطائرات ٨٩ طائرة .

وهى تتحرك بين القواعد العسكرية الأمريكية فى الشرق الأوسط !! ..

الانهيار الاقتصادى

فتح الحكم الديكتاتورى العسكرى ذراعيه لرءوس الأموال الأمريكية الأموال لم تخلق صناعة سودانية ، ولم تسهم فى بناء مجتمع الاكتفاء الذاتى الذى لايعتمد على المعونة ..

المصانع التى أنشئت كانت للكماليات مثل البيرة والروائح والحلويات .. ومعظمها يعتمد على خامات مستوردة !! ..

وأموال المعونة التى بلغت فى ثلاثة أعوام مبلغ ٤٤ر٤٠٠ر٠٠٠ دولار فقط « ١٥ر٥ مليون جنيه انجليزى » .. صرف منها ٣ ملايين جنيه لمليونير أمريكى لانشاء «مصنع نسيج فى الخرطوم بحرى» والبعض يصرف على استيراد البضائع الأمريكية مثل الغسالات والثلاجات وأجهزة الراديو والتليفزيون .. والبعض لمحاولة انشاء الطرق

وأخضعت الحكومة كافة قطاعات الاقتصاد السودانى لسيطرة الاستعمار الحديث بقيادة أمريكا .. كانت المعونة الأمريكية هى التى تخطط والبنك الدولى يشرف والدول الاستعمارية تقدم قروضا مشروطة عالية الفوائد « بين ٥٪ ، ٧٪ » .. أما القروض من الدول الاشتراكية التى لاتتجاوز فوائدها ٢ر٥٪ فلم تتجاوز ١٠٪ ..

وشركات الاحتكار الأجنبية فرضت سيطرتها ..

شركة كاليفورنيا اكسبلوريشن أخذت حق التنقيب عن البترول فى شواطىء البحر الأحمر والاحتكارات الأمريكية تبنت البنك الصناعى ووضعته تحت اشرافها وهو البنك الذى يمول مختلف

الصناعات .. وأسهمت فى بناء خزان الروصيرص بمبلغ ١٨ر مليون جنيه .. ومصنع النسيج الأمريكى — ٣٠ مليون دولار — وحق استخراج النحاس والمعادن الأخرى .

وألمانيا الغربية أسهمت فى خزان الروصيرص ومحطة أبحاث الجديدية للزراعة .. ومصنع السكر بالجنيد « ٤٦ مليون مارك » واحتكارات كروب أخذت حق استخراج الحديد ومعادن أخرى .. وكهربة خزان سنار ١٤٥ مليون مارك واعتمادات استيراد بمبلغ ٢٥ مليونا ..

أما ايطاليا فقد حصلت شركة « اجيب » على حق البحث عن البترول .. وامتياز النحاس فى الغرب .. والمساهمة فى خزان « خشم القربة » ٥ر٢ مليون ..

وانجلترا أخذت حق عمل مصفاة لتصفية البترول على البحر الأحمر

ومع القروض والمشروعات يتوافد الخبراء الذين تعطيهم الدولة باليسار ماتأخذه من معونة باليمين .. بعض الخبراء الأمريكيين يتقاضى ٠٠٠ر٢٤ جنيه فى السنة !

وأخيرا ..

تكونت لجنة دولية للاشراف على رؤوس الأموال الأجنبية الاستعمارية فى السودان تحت اشراف البنك الدولى .. وتكونت هذه اللجنة بعد موافقة أمريكا والمانيا الغربية وانجلترا وايطاليا على خطة التنفيذ لعشر سنوات قادمة !!

وهكذا كانت تنسج حكومة السودان سياستها مع سياسة الاستعمار الجديد الذى يتخفى فى ثوب اقتصادى ..

ثم سؤال ..

اين راس المال الوطنى ؟

انه يلعب دور التابع .. فهو لايملك صناعات يزيد رأسمالها عن ١٠٠ الف جنيه مطلقا الا عددا محدودا جدا ! .. وهو اذا ساهم فى صناعات كبيرة ، ظهر بنسبة محدودة !!

وارتبط الانهيار الاقتصادى .. بفساد شديد

ولم يكن ممكنا أن تتم السرقات فى السودان خلف ستار !!

فالخرطوم يكاد أهلها يعرفون بعضهم بالاسم ، فهم لايزيدون عن ٣٠٠ ألف وعندما أدخل حسن بشير نائب القائد الأعلى السابق للقوات المسلحة المياه والنور والمجارى الى قريته حلفاية الملوك القريبة من الخرطوم لم يخف الأمر على أحد !!

وعندما اشترك أحمد خير وزير المالية مع المليونير الأمريكى صاحب مصانع النسيج ، كان هذا الأمر حديث المجالس ..

ومحمد أحمد عروة شريك مقاول خزان خشم القربة .. ومساهم فى صناعة الروائح ..

ومحمد المقبول الأمين ترك رائحة تزكم الأنوف من الانحلال والفجور والشذوذ .. والعثور على شاب صغير غريقا فى النيل أمر يعرفه الجميع وامتداد مدينة الخرطوم .. قصور وفيللات بمختلف الأشكال والألوان .. وقصتها تستحق الرواية

السكن فى الخرطوم مرتفع الأسعار جدا .. المسكن العادى يصل الى ٥٠ جنيها أو تزيد بلا فرش ولا أثاث .

وعندما زاد عدد أفراد السلك الديبلوماسى فى الخرطوم ، وتدفق

عليها الخبراء، ارتفعت ايجارات بعض الدور والفيللات الى ٣٠٠ جنيه تقريبا .. وأصاب الجشع كثيرين من رجال الحكم بالجنون ..

اندفعوا يبنون الفيللات والقصور ليحصلوا على الايجارات العالية المغرية .. ولم يكن معهم ما يكفى من النقود وامتدت الأيدى الى خزانة الدولة .. وأصبح طبيعيا أن يسرق الموظف ويرتشى لأنه يبنى « فيللا » !! واذا كان شريفا يستدين ! ..

واندفع الجميع الى البناء .. ماذا كانت النتيجة ؟

مدينة كبيرة جميلة تكلفت الملايين .. معظم منازلها ينعق فيه البوم .. وليس فيها سوق وأسعار الدور كلها هبطت لزيادة العرض على الطلب .. ملايين الجنيهات تحولت الى طوب صامت كالقبور .. !

ليس هذا فقط ..

بل ان الدولة خصصت ٢٥ مليون جنيه لبناء منازل حكومية فى خطة العشر سنوات ..

ومن هذه الصورة التى تبين تسرب الأموال من خلال الأصابع المفتوحة يمكن أن يعكس الشعور بضعف القبضة على الاقتصاد القومى .. والاتجاه الى تبديد الأموال فى مشروعات غير انتاجية ..

ومثل آخر ..

فى كثير من بلاد العالم تنبت الاشتراكية ، وتؤمم الدولة بعض المرافق لصالح الشعب ..

ولكن فى السودان .. حدث شىء مثير ..

الأوتوبيسات التى كانت تابعة للحكومة .. تحولت الى شركات تتبع القطاع الخاص !!

نعم ... هذه حقيقة ..
لم يكن ممكنا أن تمضى الأمور طويلا فى هذا الطريق ..
ومع هذا كان يندفع فيه أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، وكأن على عيونهم غطاء !
وقفة قصيرة عند ميزانية بعض الوزارات عام ١٩٦٣/١٩٦٤ .
زادت ميزانية وزارة الاستعلامات ٣٠٠ ٪ حيث كانت ٤٢٢ ألف عام ١٩٥٩ وأصبحت ١٫١٨٨٫٠٠٠ جنيه ... الاذاعة السودانية لا تسمع بوضوح فى غرب السودان !!
زادت ميزانية وزارة الاستعلامات ٣٠٠٪ حيث كانت ٤٢٢ ألفا ٣٫٦٧٠٫٠٠٠ جنيه والزيادة طبعا كانت من أجل تقوية أجهزة التجسس والتنكيل .
هذا بينما ميزانية وزارة الصحة لم تزد الا زيادة ضئيلة من ٣٫١٥٣٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٥٩ الى ٣٫٨٨١٫٠٠٠ جنيه هذا العام !..
وميزانية الجامعة زادت فى ٦ سنوات بنسبة ١٣٫٥ ٪ ..
ومن مظاهر الأزمة المالية أيضا .. ارتفاع الضرائب غير المباشرة خلال السنوات الخمس الماضية بنسبة تتراوح بين ٥٠ و ٦٣ ٪ ..
وارتفعت الأسعار ارتفاعا جنونيا ، جعلها مصدر شكوى لا ينقطع وبلغ عدد العاطلين المسجل فى مكاتب الخرطوم ٦٠ الفا فى مدينة لا يزيد سكانها عن ثلث مليون !
ومثل غريب .. استوردت الحكومة السودانية فى النصف الأول من ميزانية عام ٦٠/٦١ سيارات وقطع غيار بمبلغ ٢٫٥ مليون جنيه هذا المبلغ أكثر من نصف رأس المال الموظف فى الصناعة خلال ٥٩/٦٠

الحريات الديموقراطية

ونكسة الحريات الديموقراطيـة كانت عاملا من أهم عـوامل انقضاض ثورة ٢١ أكتوبر ..

بعد أسبوع من تسلم العسكريين للحكم من عبد الله خليل صدر قانون دفاع السودان ولائحة دفاع السودان لعام ١٩٥٨ ..

أعطى البوليس هـذه السلطات .. حق رقابة البريد والجـرائد والمنشورات والكتب ومنعها من الظهور !!

حق فرض حظر التجول فى أى منطقة .. وحق منع المواطنين من السفر !!

حق ارغام المواطنين على تقديم المعلومات التى يطلبها البوليس .. أو التعرض للسجن !!

حق تفتيش أى منزل ، أو بناء ، أو مركب ، أو عربة ، فى أى وقت من الليل أو النهار !!

حق القبض والاعتقال دون ضرورة التقديم للمحكمة !!

حق تحويل القضايا من المحاكم المدنية الى المحاكم العسكرية فى أى مرحلة !!

حق منع الأشخاص من الاقامة فى مناطق معينة أو الدخول اليها !!

وبدأ وزير الداخلية .. ومن خلفه جهاز الحكم يمارس العمل فى ظل هذا القانون الغريب الذى يلغى حرية الانسان الغاء كاملا ..

مثل واحد صغير، فىعطبرة وفى عام واحد تم تفتيش ٣٠٠٠منزل!
وفتحت المعتقلات لمئات المناضلين ..وصودرت الصحف الآتية نهائيا : الميدان .. والطليعة .. والنيل
وعطلعدد كبير منالصحف لفترات معينة منها الصحيفة النسائية «صوت المرأة» وهى مجلة شهرية للنساء ، تم تعطيلها مع مطلع هذا العام ..

واختفت من الصحف تماما كل الانباء التى تدور عن الأزمة الاقتصادية ، أو سياسة الحكومة الخاطئة فى الجنوب ، آو نشر أخبار فساد أجهزة الدولة ، أو سيطرة الاحتكارات ..
وكان أعظم ما تقرؤه فى الصحف السودانية هو أخبار الرياضة ، وخاصة كرة القدم !!
وبعد ذلك لنتقرأ شيئا واحدا نافعا.. ولنتقع عيناك علىكلمةنقد
والقضاء أصبح فى محنة ..
وأصبحت معظم القضايا تنظر فعلا أمام المحاكم العسكرية !!
قضت هذه المحاكم على قادة حركات مارس ومايو ونوفمبر١٩٥٩ بأحكام مددها تزيد على ٢٠٠ سنة !! والأحكام التى صدرت على ٩ من قادة الجيش الوطنيين بلغت ١٨٠ عاما ..
وكثيرا ما شهدت هذه المحاكم كلمات نارية من بعض المحامين ، ينسحبون بعدها من مهزلة المحاكم .. وكان المتهمون غالبا يرفضون رجاءالرحمة الذىيتقدم بهالمحامون الذين لايملكون منأمرهم شيئا
وكلمة عن بعض القضاة ..
المحامون السودانيون اجتمعوا فى شكل جمعية عامة وأصدروا

قرارا جماعيا رفعوه الى رئاسة مجلس الوزراء مطالبين بعزل كبير القضاة المسمى « محمد أحمد أبو رنات » وقاض آخر يسمى « مجذوب على حسيب » وذلك ــ كما ورد فى نشرتهم « بما أن القضاة المذكورين قد وقفوا موقفا عدائيا لثورة الشعب ، وتعاونوا مع النظام العسكرى المعادى ، بل وفلسفوا وجوده وقانونيته .. وحطموا سيادة القانون ، وأطاحوا باستقلال القضاء .. وبما أن ثورة الشعب ، وثورة ٢١ أكتوبر ، وقد دمغتهم بالخيانة ، بل وطالبت برءوسهم مما يجعل بقاءهم فى هذا الجهاز ضد الارادة الشعبية مستحيلا

فرق بين موقف القاضى العظيم والرجل الفاضل بابكر عوض الله الذى قاد مع زميله عبد المجيد امام ثورة الشعب فى اطار الجبهة .. وتعرضا فى لحظة الى محاكمة جزاؤها الاعدام .. فرق واسع بين بابكر وعبد المجيد وبين أبو رنات والمجذوب !!

لم ألتق برجل فى السودان الا وهو يتحدث عن فساد رجال الحكومة السابقة ..

- الرشوة هى القاعدة .. والسرقة هى ثمرة الحكم ..
- كل وزير له شركاء من المقاولين ..
- المشاريع الكبيرة تتم فى ارتجال شديد

أمثلة محدودة أقدمها :

- خزان خشم القربة « حلفا الجديدة » قدر له أن يتكلف ٨ ملايين جنيه .. ارتفعت التكاليف الى ١٨ مليون جنيه !!
- ليس هذا فقط ولكن بناء الخزان نفسه لم يحقق ارتفاعا فى الانتاج ولا أضاف فائدة .. ملموسة ..

• خزان الروصيرص بدأ العمل فيه عام ١٩٦١
تكلف حتى الآن ٦٥ مليون جنيه ، والمفروض أن يروى ١٠مليون فدان . فى أرض كنانة . ولكن الأرض نفسها ليست معدة للزراعة !!
• الحكومة تعطى الشركة مكافأة لأنها حجزت المياه .. رغم انها بحيرة ، لا تتسرب مياهها فى أرض زراعية !

الارتجال هو القاعدة السائدة .. لا دراسة ولا تخطيط ..

وكل وزير حول اسمه سهرات المجالس فى الخرطوم الآن .. وتتتابع القصص والروايات .. وهى فى الأغلب صادقة ، لأن الخرطوم مدينة لا يخفى فيها شىء . لايمكن أن يتم الفساد فى الظلام .. ويستحيل أن تخفى الحقيقة ..

والخرطوم مدينة ذات طابع خاص .

سهرات الليل تضم أصدقاء تختلف ميولهم السياسية اختلافا حادا.. يضحكون ويمرحون.. ثم يتبادلون الهجمات فى صحف الصباح!

وفى هذا الجو ترتفع الستار عن كل شىء .. وتصبح المعلومات مشاعا للجميع .

ومن أجل هـذا فرض الوزراء المعـزولون حول أنفسهم عزلة مصطنعة .. أقاموا بينهم وبين الناس حجبا لم يعتدها أبناء السودان .. أصبحت مقابلة الوزراء أمرا عسيرا .. حاولوا اخفاء أنباء الرشوة والفساد عن طريق اشاعة التجسس ، وفرق الارهاب .

شرارة الثورة

كل هذه العوامل ..

- اخفاء وجه السودان العربى ..
- موقف الابتعاد عن الجمهورية العربية المتحدة وانتصاراتها .
- القضـــاء على الحريات الديموقراطية .
- الابتعاد عن النشاط الآسيوى الأفريقى .
- فتح الأبواب للاستعمار الجديد ومعاداة الأفكار الاشتراكية .
- الفساد والرشوة والانحلال الداخلى للحكومة ..

كل هـــذا أثر فى وعى الشعب .. ويوما بعـــد يوم كان يزداد الغليان .. ويتحدث الناس عن فرصة الخلاص .

وفى هدوء واصرار .. بعيدا عن الأحزاب التقليدية التى خفتت أصواتها كثيرا بعد خروج زعمائها من المعتقل .. بدأ الشعب يتجمع فى هيئاته ونقاباته وحدثت بعض اضطرابات اقتصادية .

صحيح أنها لم تنجح ..

ولكنها كانت بمثابة « البروفات » .. فى صيف ١٩٦٣ أضرب المزارعون فى مشروع شمال الجزيرة .

وفى بداية عام ١٩٦٤ تمت الانتخابات بين المزارعين على الأسس الرجعية التى وضعتها الحكومة .

وكانت النتيجة نجاح ١٥٤ عضوا كلهم ليسوا من أتباع الحكومة!

ثم حدث شيء مثير ..

وافقت الحكومة فى صيف ذلك العام على مبدأ تكوين اتحاد لنقابات العمال ..

وفى هذه الفترة شددت الحكومة قبضتها وضاعفت من رقابتها ..

ولكن ٥٥ نقابة من ٦٣ قررت انتخاب الشفيع أحمد الشيخ سكرتير عام اتحاد النقابات المساعد ، الذى أرسلته الحكومة الى السجن لمدة خمس سنوات !

وفجأة ..

وفى يوم ١٢ أغسطس .. قررت الحكومة منع عقد المؤتمر الذى كان مقررا أن ينعقد بعد ثلاثة أيام !!

هذا بعد أن حضر العمال المدعوون من مختلف الدول .. وكان منهم ممثلون لاتحاد نقابات العمال العرب .. واتحاد عمال الجمهورية العربية المتحدة !!

ولم تكتف الحكومة بذلك ..

شنت حملة اعتقالات واسعة ضمت المئات من النقابيين والديموقراطيين الاشتراكيين ..

ويبدو أن صبر الجماهير السودانية كان قد نفذ ..

فقرروا ضرورة التفكير فى عمل ايجابى ..

عندما تدفقت الجماهير الى الشوارع أصبح واضحا أن الثورة قد بدأت ..

الأحداث تلاحقت فى سرعة مذهلة .. عواطف الناس وصلت درجة الغليان .. القاضيان بابكر عوض الله وعبد المجيد امام يتحولان الى

قائدين من قواد الثورة ..

عابدين اسماعيل نقيب المحامين يعلن للجمـاهير تكوين الجبهة القومية الموحدة ... واعلان الاضراب السياسى العام .

وهنا يرتفع زئير الجماهير .. ويتحول الشعب الى عملاق بطل ..

اللواء حسن البشير يحاول أن يتشبث بالسلطان .. يقرر تشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة أعضاء الجبهة التى أصبحت منبرا يلتف حوله الشعب .. ويعلن انه سيحاكم المتظاهرين بالمادة ٤ من قانون الدفاع التى تنص على الحكم بالاعدام ! ..

ولكن اللواء البشير لم يكن يحسن التقدير كعادته ..

انتهت الثورة فى كل أنحاء السودان ..

.. وتحطم القرار قبل أن يصدر ..

وصلت الأنباء ظهر يوم ٢٦ أكتوبر بأن المزارعين فى الجزيرة قد رفعوا أيديهم عن الزراعة ، وأنهم يتحركون الى العاصمة ..

فى مدينة الدويم ، أطلقت الجماهير سراح المسجونين .. وكان فى السجن الأميرالاى عبـد الرحيم شنان .. الذى قاد انقلاب مارس ١٩٥٩ ، ودخل السجن فى مايو ١٩٥٩ بعد أن اشترك شهورا فى المجلس الأعلى .. ولكن الأميرالاى شنان لم يخرج من السجن .. كان مترددا .. وبقى خلف القضبان .. ينتظر قرار الافراج عنـه من أعضاء الحكم الجديد ..

وفى مدينة مدنى سلم الحاكم العسكرى السلطـة الى القضاة المدنيين ، وفى عطبرة انسحبت قوات الجيش الى الثكنات ..

وفى بور سودان ، أمضت الجماهير ليلتها يقظى فى الشوارع ..

وتحول السودان كله الى ساحة ثورية .. وفى غمرة هذه الأحداث تحولت قوة من الاخوان المسلمين وتسربت الى السفارة المصرية حيث حاولت حرقها بدعوى الاحتجـاج على مقالات ظهرت فى بعض الصحف المصرية .

ولكن الرئيس جمال عبد الناصر فوت هذه المؤامرة الاستعمارية قائلا : «ان ذلك لا ولن يؤثر على تأييد ثورة مصر لثورة السودان»

الجيش مع الشعب

ويخطىء من يظن أن ثورة ٢١ أكتوبر قامت ضد جيش السودان ..

ويخطىء من يظن أن قوات الجيش تعادى ثورة الشعب ..

الحقيقة ان القوات المسلحة أسهمت الى حد كبير فى نجاح الثورة ، عندما تحركت أجزاء من مشاة حامية أم درمان الى الخرطوم وكان فى مقدمتها جعفر نميرى وفاروق عثمان حمد الله وعدد من الضباط الأحرار ، بعد محاولة اللواء حسن البشير انتزاع السلطة والانفراد بها وحده ..

حاصرت هذه القوات القصر الجمهورى عصر يوم ٢٦ أكتوبر .. وقدمت مطالبها التى وقع عليها حوالى ١٦٠ ضابطا والشعب يحيط بها

كانت هذه المطالب هى :

- حل المجلس الأعلى للقوات المسلحة ..
- حل مجلس الوزراء .
- وقف المجازر .
- تطهير الجيش من عناصر الفساد .

وكانت نتيجة ذلك بيان الفريق ابراهيم عبود الذى أذيع فى التاسعة والنصف ليلا وبعد اذاعة البيان عادت قوات الجيش الى ثكناتها ، لتمارس عملها الحقيقى كقوات مسلحة فقط لحماية الوطن

وليس لكبت جماهير الشعب ..

أيا ما كانت الظروف .. فان لجنة من القوات المسلحة من مختلف الرتب قامت باتصالات دائمة مع أعضاء الج الموحدة لحل كل المشاكل وتصفية الخلافات وتنفيذ تط المسلحة فى حدود ما تقضى به المصلحة الوطنية .

الدليل على أن هذه اللجنة التى تمثل الجيش ، لا تهـ فرقة بين الجيش والشعب .. انها قاومت فكرة تعيين ضـ للدفاع !!

ولم تكد تمضى عدة أيام حتى فوجئت الجماهير باعتقا الضباط الوطنيين منهم جعفر نميرى وفاروق عثمان ـ وهنا بادر فاروق أبو عيسى المحامى، وسكرتير الجبهة الو بالذهاب الى محطة اذاعة أم درمان وأعلن أن الثورة وهنا تدفقت الجموع الى الشوارع فى ليلة حافلة يدة ويهتفون لحماية الثورة ، حتى اضطرت السلطات الرجعي الى الافراج عن الضباط المعتقلين .

ويذكر أن اذاعة القاهرة كانت هى الاذاعة الوحيد ما تذيعه أم درمان وهى تطالب الشـــعب بالخروج لـ الوزراء ومبنى الاذاعة حتى استقر الأمر وعاد الى الهـ

ويمكن القول فى ثقة أن نجاح ثورة ٢١ أكتوبر يرجع

أولا ــ الاضراب السياسى الذى نفذته قوى العاملين

ثانيا ــ انحياز أقسام مقررة فى القوات المسلحة الى وتولى وزارة الدفاع رئيس الوزراء سر الختم .

اتجاهات الثورة .. ورأى الحزب الشيوعى

أصحاب الأنوف الحادة كانوا يحاولون أن يشموا رائحة الثورة ، ويتعرفوا على اتجاهاتها ويحللوا مستقبلها .

وبعض الأقلام حاولت أيضا أن تثير الأقاويل التى تبعث الانقسام والفرقة ..

ومن ذلك ما كتبه مندوب للأسوشيتد برس يسمى ماكارثى .. وقال فيه ان الذى يملك زمام الموقف ، رجل غامض ، يسمى عبد الخالق محجوب ، سكرتير الحزب الشيوعى ! ..

وكأنما ثورة ٢١ أكتوبر هى ثورة شيوعية خالصة .

والحقيقة كانت غير ذلك ..

عناصر الشعب البسيط اشتركت فى الثورة .. لم يتخلف عنها انسان .. لم يتردد فى تأييدها أحد ..

لم أشهد فى حياتى اجماعا على تأييد ثورة ، مثلما شهدت هنا فى السودان .. ومثلما شاهدته فى ٢٣ يوليو فى مصر ، عندما كانت تنهمر الدموع من العيون ، والشعب يهتف للضباط الأحرار الذين كسروا أغلاله ..

الناس هنا فى هذه اللحظات الخالدة لا يتحدثون عن الآراء السياسية ، ولا يناقشون الخلافات الحزبية .

ولا يقول أحد انها ثورة شيوعية ، اطلاقا لا تسمع هذه

الكلمة ..

صحيح ان الحزب الشيوعى ممثل فى الوزارة بأحد الوزراء .. لأنه كان حزبا علنيا ، حتى قبل اعلان الاستقلال .. وكان يحمل اسم « الجبهة المعادية للاستعمار » .

وصحيح ان هذا الحزب تحمل أكبر قدر من التضحيات فى فترة الحكم الأخير حتى ان عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب خرج من السجن قبل الثورة بأيام .

ولكنه صحيح أيضا أن الثورة ليست حزبية ..

الاتجاه الأكيد لثورة ٢١ أكتوبر انها كانت تريد أن تعيد للسودان وجهه العربى ، أن تعيد الصلة بينه وبين الدول العربية المتحررة .. ان تصل بينه وبين الحياة المتجددة المتطورة .. أن تحقق العدالة والاشتراكية والديموقراطية ..

وفى لقاء مع عبد الخالق محجوب الذى درس الآداب فى جامعة القاهرة ، وانضم مع غيره من الشباب الى الحركة المصرية للتحرر الوطنى ، ثم ساهم فى انشاء الحركة السودانية ، وأصبح اليوم سكرتيرا للحزب الشيوعى السودانى ، حرصت على معرفة رأيه فى ثورة ٢١ أكتوبر .

قال عبد الخالق محجوب :

ــ الحديث عن مستقبل ثورة ٢١ أكتوبر واحتمالات هذا المستقبل يرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة تلك الثورة والقوى الاجتماعية التى اشتركت فيها ، فقد ولد انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ ميتا منذ البداية ، بوصفه انقلابا رجعيا وعميلا للاستعمار الأجنبى لا ثورة

أصيلة للجيش السودانى .. وقد شرعت الطبقات الاجتماعية المختلفة فى النضال ضده بدرجات متفاوتة .. وقد فجرت اجراءاته الديكتاتورية الارهابية قوة لم تكن فى حسبانه وهى القوى الوطنية المناهضة للاستعمار والتسلط الرجعى فى جيش السودان .. وقد ساهمت هذه القوى فى اضعاف النظام وفى الحيلولة دون تنفيذ الخطة الكاملة للاستعمار والتى كان قد رسمها لكبار ضباط الجيش الذين تربوا فى أحضانه .

وقد أدى هذا الوضع الى مزيد من العزلة للنظام وسارت حركة المعارضة المقاومة له فى طريقها وهى تضم قوات اجتماعية سياسية ذات وجهات نظر مختلفة فى مستقبل السودان ، ولأسباب عديدة وقع عبء المعارضة لذلك الحكم الرجعى على أكتاف القوة الشعبية الثورية من عمال ومزارعين ومثقفين وطلبة ودوائر سياسية نشطة فى معارضة النظام .

ولذلك يمكننا أن نعتبر ثورة ٢١ اكتوبر بأنها « ثورة وطنية مناهضة للاستعمار القديم والحديث » ويعتمد مستقبلها على مقدرة القوى التى أشعلتها فى التعبير عن ارادتها تعبيرا ديموقراطيا .

كما أجاب عبد الخالق محجوب على سؤال عن موقف الحزب الشيوعى من قضية بناء الاشتراكية فى السودان فقال :

ان الظروف التى أحاطت بثورة ٢١ أكتوبر والعوامل التى أثرت فى الشعب السودانى خلال سنوات الحكم الرجعى الست قد فتحت الآفاق لطريق واسع لبناء الاشتراكية فى السودان .

صحيح ان الحزب الشيوعى ظل خلال هذه المدة يدعو للاشتراكية

ويؤثر على أقسام من جماهير الشعب ولكن من غير الصحيح اعتبار المطامع الاشتراكية لكل قطاعات الشعب المناضل وقفا عليه وحده .. وهذه حقيقة لا تفوت على بال الشيوعيين فى السودان لأنها موضوعية وذات صلة بالحياة المعاصرة لشعب السودان .

وعلى الرغم من أن الحزب الشيوعى السودانى قد أبرز تنظيمه علنا بعد انتصار ثورة ٢١ أكتوبر الا أنه لم يعتبر هذا التنظيم وحده معبرا عن الاتجاهات الاشتراكية المختمرة فى أذهان ثوار ٢١ أكتوبر .. ولكن وجود الحزب الشيوعى يساعد فى تجميع كافة القوى الاشتراكية على صعيد واحد .

وعلى العموم فان رياح التغيير تهب على كل المنظمات الاجتماعية والسياسية فى السودان بدرجات متفاوتة وليس من الأمر السهل التجاوز عن أن معظم هذه التنظيمات تعلن الاشتراكية فى برامجها بغض النظر عن الدوافع ، ويصبح المحك لصدق الدعوى الاشتراكية هو بمقدار قبولها لتجمع اشتراكى واحد منه على أساس الاشتراكية العلمية بتجاربها المختلفة ، هو باخلاصها وتفانيها فى النضال وقبول الجماهير لها .

ان الاتحاد بين القوى الاشتراكية يتطلب امتحان هذه القوى فى النضال اليومى من أجل مصالح الجماهير .

من هذا الحديث مع عبد الخالق محجوب يثبت أن الذين حاولوا تصوير ثورة ٢١ أكتوبر بأنها ثورة شيوعية فقط انما كانوا يستهدفون اثارة التفرقة بين قوى الشعب السودانية الهادفة لتغيير الحكم العسكرى الديكتاتورى .

ويتضح كذلك مرونة فكر سكرتير الحزب الشيوعى فى تحليله نوافع الاتجاه الاشتراكى فى السودان ، وعدم تصويره وكأنه احتكار خاص للحزب الشيوعى وحده .

وقبل أن أختم هذا .. أحب أن أشيد بظاهرة رائعة ..

• جماهير الشعب السودانى لم تنطلق عابثة مدمرة .. لم تحطم على غير هدى ولم تشعل النار بلا سبب .. ولم تتحول الثورة الى مجزرة ..

• الشعب نظم صفوفه .. وقاد جموعه .. وحقق أهدافه .. فى اصرار وفى سلام ..

• أثبت شعب السودان مرة أخرى .. ان الشعب دائما هو البطل ..

ماذا بعد انتصار ثورة اكتوبر ؟

الواقع ان ثورة ٢١ أكتوبر ، كانت تحمل فى طياتها بذور الثورة الاجتماعية فى جانب الثورة السياسية ..

والسبب أن تنظيمات الطبقة العاملة والمزارعين والمثقفين الثوريين والنقابات المهنية قد اشتركت فى التحضير للثورة .. ثم فى قيادتها .

وهى التى أعلنت الاضراب السياسى سلاحا للشعب ..

ومن هنا تتجـه الأحزاب والهيئات جميعا الى منـاقشة برامج جديدة ... تظهر فيها كلمة الاشتراكية ..

وقد يتصور البعض ان واقع المجتمع السودانى قد يعادى بناء الاشتراكية والحقائق تثبت غير ذلك ..

ليس فى السودان اقطاع واضح صريح !!
معظم الأراضى تملكها الدولة .. ولكنها لا تزرعها !!
ومن هنا يظهر اقطاع من نوع آخر ..

اقطاع الرخص .. وهو نوع من الاقطاع يتيح لشخص واحد أن يتحكم فى زراعة آلاف الأفدنة بايجـار اسمى لمـدة معينة .. ويشترط عليه أن يقيم تجهيزات خاصة فى الأرض .

مثل هـذه الرخص كانت تمنح للأقارب والمحـاسيب وأعوان المستعمرين !!

لعله مما يثير الدهشة أيضا أن الرأسمالية فى السودان ليست احتكارية كبيرة ...وفيما أوضحت سابقا أن أكبر مشروع وطنى لا يتجاوز رأسماله ١٠٠٫٠٠٠ جنيه .

الخطورة تتمثل فى أعوان الاستعمار ، الذين يسهمون معه فى شركاته واحتكاراته .. وهم كما أوضحت أيضا يلعبون دور الشريك التابع الذى لا يملك من أمر المشروع الذى يسهم فيه شيئا !! ..

وهكذا يقترب واقع المجتمع السودانى كثيرا من الاشتراكية !.. ولا تفصله عنها حواجز عسيرة ..

وطبيعة الشعب السودانى تجعله يتعامل أيضا بروح اشتراكية .. لا فرق بين غنى وفقير .. لا تعالى ولا كبرياء .. ينادون بعضهم بالأسماء المجردة .. ويتعاملون فى بساطة ملحوظة ..

ولكن ..

كيف يمكن الوصول الى تحقيق الاشتراكية ؟

جواب هذا السؤال كما تظهره احداث الثورة .. هو الديموقراطية ..

ولعل مفهوم هذه الكلمة يتغير كثيرا بين أصحاب النظريات والمبادىء المختلفة ..

هى عند أقصى اليمين .. ديموقراطية ليبرالية ..

وهى عند أقصى اليسار .. ديموقراطية موجهة ..

ومن وجهات النظر المختلفة يمكن أن تتحدد معالم المجتمع السودانى الجديد ..

المجتمع الذى يحرص كل أبنائهعلى ارساء معالم الحرية ..ووضع تقاليد جديدة للديموقراطية ..

والانتخابات الحرة المباشرة هى التغيير الذى يجمعون عليه ، للوصول الى نوع الحكم الجديد ..

وكل حديث عن سيطرة حزب .. أو سيادة اتجاه معين .. هو حديث مسموم يهدف الى نسف انتصارات ثورة ٢١ أكتوبر ، وفتح الطريق لنكسة خطيرة ..

الانتخابات ... رغم كل شيء !!

وفى زيارة أخرى للسودان خلال شهر ديسمبر ١٩٦٤ تبينت حدوث أشياء كثيرة ..

معالم المجتمع فى السودان تتغير كل يوم ..

قرارات حكومة الثورة الشعبية لا تتوقف ..

رجال النظام المنهار يسقطون كأوراق الخريف الذابلة ..

حكومة السودان تحقق أشياء جليلة ..

• أصدرت قرارها الوطنى العظيم بمنع مرور الطائرات البريطانية فوق مجالها الجوى وهى فى طريقها الى الجنوب العربى .. وكانت ٧٥ ٪ من الطائرات بالمنطقة تسلك هذا الطريق كما أعلن متحدث بلسان وزارة الدفاع البريطانية ..

• وأصدرت قرارا بحق تفتيش الطائرات المدنية للبحث عن المواد الحربية التى قد تهرب فى طائرة أمريكية أو بريطانية ..

• وصادرت أموال رجال المجلس الأعلى السابق ، وبعض الذين اثروا عن طريق الاتصال المريب بهم ..

• وشكلت لجنة لتطهير الصحافة .

روح الثورة ما زالت تدفع كل شيء .. رغم أن الهدوء قد عاد الى الخرطوم ، عدا مظاهرات أسمع هتافها الآن ، تنادى بسقوط أمريكا ، وبلجيكا !! ..

ولكن ..

هل أصبح كل شيء هادئا ، هدوء مياه النيل فى شهر نوفمبر ؟

الجواب ليس سهلا ..

وهدوء الليل يعكره نقيق الضفادع .

وماذا يمكن أن يعكر صفو الانتصار الشعبى غير الانتخابات ؟!

والانتخابات الآن هى محور حديث الناس فى كل مكان ..

حددت لها الثورة شهر مارس موعدا ..

ولكن هل يمكن أن تتم فى هذا الموعد ؟

أذكر فى مقابلتى الأولى للسيد سر الختم الخليفة ، فى أول صباح لى فى السودان .. انه قال ان أربعة شهور قد تبدو غير كافية للاستعداد للانتخابات .. ولكنه استطرد قائلا ، انهم سيبذلون الجهد لتدبير كل شيء فى موعده ..

وكان فى حديثه نبرة الأمنية ..

ولكن كل صباح جديد ، كان يحمل للحكومة عاملا جديدا ، يجبرها على أن تضع الانتخابات على مائدة المناقشة رغم ما تفكر فيه وتنفذه من قرارات متدفقة ..

ما هى عوامل الشد والجذب فى الانتخابات ؟ ..

الجنوب هو موضع الاعتبار الأول ..

والخطوات التى اتخذت حتى الآن لحل مشكلة الجنوب هى خطوات متقدمة ، تستهدف وحدة السودان ، والقضاء على سياسة السيطرة والتفرقة ..

أصدرت الحكومة قراراتها باطلاق سراح المسجونين السياسيين

من أبناء الجنـوب ، والاعتراف بعطلة يوم الأحـد ، والبـدء فى بالمفاوضات مع ممثل أحزاب الجنوب ..

ومع هذا التيار الوطنى السليم .. يبدو أن آثار حـكم المجلس الأعلى السابق مازالت تترك بصماتها فى الجنوب ..

اتحاد السودان الوطنى الافريقى ، أو حزب « سانو » الجنوبى ، أرسل خطابا مفتوحا الى رئيس الوزراء جاء فيه :

ـ وكما نعلم فان هناك آلافا من اللاجئين من مواطنى جنوب السودان يوجدون حاليا فى بلاد افريقية مجاورة وخصوصا يوغندا والكونغو (ليوبولدفيل) وأثيوبيا وجمهورية افريقيا الوسطى وكينيا وتنجانيقا ، وان كثيرا منهم قد منح حق اللجوء السياسى .. وهؤلاء اللاجئون يمثلون قسما هاما من شعب جنـوب السـودان فمنهم الزعماء السياسيون ، والمهنيون ، والفنيون .. وزعماء القبـائل ، والطلاب ، وبعض هؤلاء اللاجئين خرج من السودان مباشرة بعد عصيان الجنوب سنة ١٩٥٥ أثناء حكم الحكومة الوطنية الأولى ، ولكن معظمهم اضطر الى مغادرة البلاد ابان الحكم العسكرى منذ عام ١٩٥٨..وتحت ظل تلك الظروف كانت الحكومة العسكرية تطبق سياسة هى أشبه بسياسة الدول الاستعمارية فى مستعمراتها ، وكان هذا مايهدد المستقبل الطيب لهذا البلد ..

هنا ينتهى حديث حزب سانو ..

ويقول زعماء أحزاب الجنوب ، ان اجراء الانتخابات فى مارس ١٩٦٥ .. أمر مستحيل .. لأن عشرات الألوف يعيشـون لاجئين خارج السودان .. وعشرات الألوف هربوا من الظـلم الى الغابات ..

والاتصال بهم فى هذا الوقت القصير أمر عسير أو مستحيل ..

والمفروض فى الانتخابات أن تكون تمثيلا صادقا للشعب كل الشعب

وهو كلام منطقى كما نرى ..

وليس تحديد شهر مارس آية من آيات القرآن .. انه يمكن التأجيل شهرا أو شهرين مثلا ..

ولكن الطبيعة تتدخل ! ..

اذا لم تتم الانتخابات فى مارس ، يبدأ موسم المطر ، الذى يمتد حوالى ثمانية شهور ، يصعب فيها التنقل ، ويصعب فيها الاتصال .. ولا يمكن خلالها — باجماع الاراء — اجراء الانتخابات ..

ولهذا يطلب زعماء الجنوب تأجيل الموعد الى الفترة بين نوفمبر ١٩٦٥ ، مارس ١٩٦٦ ..

وبعد تأثيرالجنوب فى الانتخابات يأتى تأثير الأحزاب التقليدية ..

الصادق المهدى ممثل حزب الأمة ، واسماعيل الأزهرى ممثل الحزب الوطنى الاتحادى قدما طلبا بضرورة اجراء الانتخابات فى موعدها أى فى مارس ١٩٦٥ .

ولن نقف طويلا عند ما يتحدث به الناس علنيا ، من أن الأحزاب التقليدية تود أن تتعجل جنى مكاسب ثورة الشعب ، رغم استكانة قياداتها أثناء فترة الحكم المنهار ..

ولا عن دهشة الناس من اتفاق الأزهرى مع حزب الأمة عند مطلب موحد ، رغم مابين جماهير الحزبين من خلاف واضح ..

ولكننا نقف طويلا عند نقطتين ..

أولا :

هل يمكن أن تتم انتخابات سليمة معبرة تمام التعبير عن رأى الشعب قبل أن يتم تطهير الأجهزة الادارية التى ساندت الحكم المنهار ؟ ..

انه رغم سرعة خطوات الحكومة فى التطهير ، فان الطريق أمامها مازال طويلا ، والرجعيون مازالوا أحياء فى مناصبهم ..

ثانيا :

ماهو موقف الجنوب ، لو استمر الاصرار على اجراء الانتخابات؟

وهنا نصل الى عنق الزجاجة ..

الجنوب يرفض تحديد مارس موعدا للانتخابات ..

والأحزاب التقليدية تطلب ذلك وتبقى القوة الثالثة فى المعركة ..

الجبهة الوطنية للهيئات ..

وموقف الجبهة الوطنية للهيئات التى تتشكل أساسا من القوى الوطنية والديموقراطية يتخذ شكلا نضاليا صريحا .. يمكن تلخيصه فى أنها لا يمكن أن تسمح بأى موقف يؤدى الى استمرار مشكلة الجنوب التى يقويها الاستعمار من أجل تجزئة الوطن الواحد .. والجبهة تثق فى الحكومة ثقة كاملة ..

وهكذا يمكن أن تتأجل الانتخابات من أجل المحافظة على وحدة الشعب السودانى ، الذى يعيش منه ٣ مليون مواطن فى الجنوب ..

وقبل أن أطوى صفحة الانتخابات أنقل هنا تجسيما للموقف خاتمة خطاب حزب (سانو) الى رئيس الوزراء ..

« وأخيرا ـ اذا لم تعبر الحكومة المدنية هذه المطالب المتواضعة، فاننا فى حل مما يترتب على هذا الرفض من مشاكل ـ ذلك أننا

لا نستطيع ايقاف رجالنا عن حمل السلاح ، وفى هذا تعطيل للتقدم الاقتصادى فى البلاد كلها ورفض اعطائنا الفرصة كاملة لكى نشترك فى حكم أنفسنا سوف يدفعنا الى حمل السلاح ، وحمل قضيتنا الى الأمم المتحدة وتنبيه أذهان الافريقيين والعرب لما يجرى فى السودان . ومن الذى يكون مسئولا آنذاك ؟ قطعا ليس أهل الجنوب ..

ومع ذلك فان قرارا لم يتخذ لتأجيل الانتخابات ..

ولما أصبح الجنوب مشكلة مجسمة وحاسمة عقد مؤتمر المائدة المستديرة فى الخرطوم فى الفترة من ١٦ الى ٢٦ مارس ١٩٦٥ وحضره لأول مرة منذ ٦ سنوات ممثلون للشمال والجنوب معا يمثلون الحزب الشيوعى السودانى وجبهة الهيئات وجبهة الجنوب وحزب سانو وحزب الأمة وحزب الشعب الديموقراطى وحزب الوطنى الاتحادى وجبهة الميثاق الاسلامى وأصدر عدة قرارات لتسوية بعض مشاكل الجنوب أهمها تعيين أبناء الجنوب فى الوظائف الهامة وحرية التنقل وضرورة انشاء جامعة ومدرسة ثانوية للبنات وتكوين مجلس اقتصادى قوى للتنمية .

نكسة ثورة اكتوبر

في هذا الجو العاصف ، الذي تكتلت فيه القوى السياسية المختلفة حول قضية الانتخابات كموضوع صراع رئيسي ومبدئي .. كانت هناك نقط خلاف أخرى صغيرة ..

رفضت الأحزاب التقليدية سرعة محاكمة قادة الحكم العسكري المنهار

ورفضت أيضا الاقتراح المشترك من الحزب الشيوعي وحزب الشعب الديموقراطي والاتحاد العام للعمال بتكوين حرس شعبي مسلح ..

وانتقل الخلاف الى الشارع

جلب حزب الأمة ٣٠ ألفا من الأنصار ليقيموا في أم درمان ويشتركوا في مظاهرات تهتف للطائفية والأحزاب التقليدية .

وقابل ذلك مظاهرات أخرى تحت قيادة الجبهة ترفض وزارة بلا عمال أو مزارعين .

وسقط بعض المتظاهرين قتلى في شرق السودان وهم يحتجون على اجراء الانتخابات التي أصدر النائب العام فتوى بعدم دستورية اجرائها في الشمال دون الجنوب .

وكان محور هذا الخلاف السياسي يتركز أساسا في يد سر الختم الخليفة رئيس الوزراء ، الذي كان يستطيع مواصلة مسئوليته التي اختاره الشعب لها ، ولكنه نظرا لارتباطات خاصة وشخصية ، اتخذ موقفا غريبا ، طعن به الثورة التي اختارته رئيسا وخان

الجماهير التى منحته ثقتها .

فاجأ سر الختم الخليفة بعض أعضاء وزارته الذين سهر معهم حتى الثانية بعد منتصف الليل ، بتقديم استقالته فى ١٨ فبرايرسنة١٩٦٥ .

طوت صلة رئيس الوزراء المستقيل بأسرة المهدى وشدة تأثيرها عليه ، واغداقها الوعود له .. صفحة مجيدة من صفحات نضـــال الشعب السودانى .

وأخذت المفاجأة القوى التقدمية التى لم تكن قد اســتجمعت طاقاتها ، ووصلت بتأثيرها الى كافة المراكز العصبية والحساسة فى المجتمع .. وتشكلت وزارة جديدة ، أصر حــزب الأمة والوطنى الاتحادى على ابعاد جبهة الهيئات منها .. وأصبح لكل من حــزب الأمة والوطنى الاتحادى والشعب الديموقراطى ثلاثة وزراء ووزير واحد لكل من الشيوعيين والاخوان المسلمين .

وكان فى هذا التشكيل الجديد انتصار لقوى اليمين ، التى اندفعت لتحقيق هدفها باجراء انتخابات عاجلة ، تمت فى ابريل ١٩٦٥ وقاطعها الجنوبيون وحزب الشعب الديموقراطى !

أجهضت القوى الرجعية والأحزاب التقليـــدية أمـــل الشـــعب السودانى فى ثورة أكتوبر وتبددت أحلامه فى مواصلة المســـيرة الثورية الى مجتمع جديد متحرر .

انتكست ثورة أكتوبر لأنها ارتضت منذ البداية الديموقراطيـــة الليبرالية واجراء انتخابات بعد ستة شهور فى وقت كان اليمين فيه مسيطرا على كافة أجهزة الحكم منذ انقلاب ١٧ نوفمبر

وكانت الروابط الطائفية مازالت بعلاقاتها القبلية والطبقية تشكل

حاجزا وسدا منيعا أمام قوى التقدم ..

ورغم أن الأحزاب التقليدية لم تكن فى مركز السلطة الرئيسى من ناحية التمثيل الوزارى الا أنها كانت صاحبة نفوذ اقتصادى واجتماعى وفكرى ، لم تستطع القوى التقدمية ان تقدم له بديلا نظرا لقصر المدة التى استطاعت فيها مخاطبة الجماهير علنا وصراحة وعلى نطاق واسع ..

وعى الجماهير وارادتها كانا يرتبطان الى حد كبير بالأسماء والشخصيات والتنظيمات التقليدية ، لأن القوى التقدمية كانت قد أرهقتها خلال سنوات الحكم العسكرى عمليات القمع والسجن والمطاردة

اتحاد نقابات العمال كان محلولا .. وبعض النقابات سلمت لقيادات انتهازية وعمليات تصفية شديدة طاردت القوى التقدمية ، التى كانت تحتاج الى وقت أطول لاعادة تنظيم صفوفها والانطلاق الى مرحلة عمل سياسى جديد .

ولكن الفترة القصيرة التى حددتها الثورة لاجراء الانتخابات أبرزت فورا وبصورة واضحة كل الدوافع الانتهازية فى صدور المشتغلين بالسياسة ..

والواقع أن الثورة — أى ثورة — يجب أن تتوفر لها فترة انتقال كافية ، تتيح احداث التغييرات الفكرية والاجتماعية الضرورية لتجميع الشعب حول أهدافها .

كما أن الديموقراطية الليبرالية ليست هى أفضل الأشكال لجنى ثمار ثورة شعبية فى دولة نامية حديثة الاستقلال .. بل انها من المؤكد وخلال ستة شهور فقط ، لا يمكن أن تؤدى إلا الى نكسة

رجعية ، خاصة وقد افتقد التعاون والتحالف بين القوى الثورية فى الجيش وخارجه .. هذا ماحدث تماما فى السودان ..

ومع ذلك يبقى سؤال ..

هل مضت ثورة ٢١ أكتوبر ادراج الرياح بلا أثر ؟

الواقع أنه رغم نكسة ثورة اكتوبر من ناحية امكانية التعبير الصحيح عن القوى التى أشعلتها ، ومن تأكيد السلطة فى يد الجماهير ، الا أنها حققت انتصارات كثيرة ، جعلت الشعارات التى رفعتها باقية وصامدة أمام المد الرجعى .

حققت ثورة أكتوبر نهاية الحكم العسكرى الديكتاتورى الذى حارب كل القيم الديموقراطية

وكسرت القضبان التى عزلت شعب السودان عن الدول العربية والافريقية ..

وجعلت .. الاشتراكية .. كلمة مباحة ، يعتنقها البعض عن ايمان علمى ، وتدرجها الأحزاب ، فى برامجها لاغراء وخداع جانب من الجماهير المتطلعة اليها .

بدأت تتحقق فكرة جبهة شعبية من الحزب الشيوعى وحزب الشعب الديموقراطى فيما سمى وقتئذ بالتجمع الاشتراكى الديموقراطى

وأخذت قوى الثورة التى قادت الاضراب السياسى تعيد تنظيم قواتها ، تدعم اتحاد نقابات العمال . وأخذ يمارس دوره القيادى العلنى ، وانتظم اتحاد المزارعين ، ونشطت النقابات المهنية خلف قيادات تقدمية ، وتكون اتحاد الموظفين .. وبدأت التنظيمات الوطنية داخل القوات المسلحة تستجمع قوتها وتوحد صفوفها وتمارس نشاطها

الباب السابع

حكم الأحزاب التقليدية

- قاع السياسة
- الاقتصاد يهبط الى الحضيض

قاع السياسة

أسفرت الانتخابات المتعجلة التى تمت فى ابريل ١٩٦٥ وقاطعها الجنوبيون وحزب الشعب الديموقراطى عن حصول حزب الأمة على ٧٥ مقعدا من ١٧٣ ، والوطنى الاتحادى على ٥٣ مقعدا ، والحزب الشيوعى على ثمانية مقاعد .. كما أسفرت انتخابات الخريجين على حصول الحزب الشيوعى على ١٣ مقعدا من ١٥ .

والواقع أن رفض حزب الشعب الديموقراطى دخول الانتخابات لم يكن له مبرر مطلقا .. اذ أنه سهل سقوط الأغلبية فى يد حزب الأمة ـ أكثر الأحزاب التقليدية رجعية ـ كما انه حرم التجمع الشعبى الديموقراطى من فرصة الحصول على مقاعد كافية ، تؤدى الى تكوين معارضة قوية نشطة .

ومع ذلك فان معارضة ممثلى الحزب الشيوعى للحكومة المشكلة من حزب الأمة والوطنى الاتحادى كانت ذات أثر كبير ، أدى الى اصطناع تمثيلية مخجلة ، رفعت الزيف والخداع عن كلمات الحرية البرلمانية والديموقراطية الليبرالية التى أحاطتها الحكومة بهالة من الدعاية .

دفعت عناصر الحكومة طالبا فى أحد المعاهد بأم درمان كان منتسبا فى الماضى للحزب الشيوعى الى التهجم على الدين الاسلامى الحنيف .

وأخذت من هذا الموقف تكأة استندت اليهـا فى حـل الحزب الشيوعى قانونا ، وفصل أعضائه من الجمعية التأسيسية !

ورفع الحزب الشيوعى ذلك القرار الجائر الى المحكمة العليـا التى أصدرت حكمها برئاسة بابكر عوض الله بعدم شرعية تعديل الدستور الذى تم بموجبه حل الحزب الشيوعى وطرد أعضائه من الجمعية التأسيسية ..

وأصبحت الحكومة محاصرة .

المحكمة العليا تحكم بعدم شرعية قراراتها .

ووزير الداخلية والجمعية التأسيسية يرفضان الاستجابة الى قرار المحكمة ..

هذا وقد استقال بابكر عوض الله من منصـبه فى مايو ١٩٦٧ احتجاجا على عدم تنفيذ قرار المحكمة .

ولم يكن هذا هو التناقض الوحيد الذى ظهر فى حـكم تجمع الحزبين التقليديين .

ظهر تناقض جديد داخل صفوف حزب الأمـة بين « الامام » الهادى المهدى ورئيس الوزراء الصـادق المهدى .. وهو تنـاقض انبعث من خلافات شخصية داخل الحزب حول الموقف من الامامة والخضوع لها .

كان الهادى المهدى يمثله محمد احمد محجوب رئيس الوزراء قبل الصادق وبعده .. وانقسم الحزب فعلا الى كتلتين متنافرتين .. ووصل الخلاف الى الحد الذى جعل نائبـا من الأمة يضرب وزير الصحة وهو من حزبه أيضا حتى ينقل الى المستشفى !!

وكان هناك صراع أيضا على منصب رئيس الجمهورية بين اسماعيل الأزهرى الذى كان يتولى هذا المنصب بصفته رئيسا لمجلس السيادة، وبين الهادى المهدى الذى كان يتطلع الى المنصب أيضا .

وفى هذه الفترة أخذ حزب الشعب الديموقراطى يدير ظهره الى التجمع الاشتراكى الديموقراطى الذى ربطه بالقوى التقدمية ، ويفاوض الحزب الوطنى الاتحادى من أجل الاندماج معا تحت اسم الحزب الاتحادى الديموقراطى .

كان أحد المطالب الرئيسية لحزب الشعب الديموقراطى حل الجمعية التأسيسية التى لم يكن ممثلا فيها .. وكان الوطنى الاتحادى يرغب فى بقائها حتى توافق على الدستور .

والدستور كان موضع خلاف شديد اذ أن القوى الرجعية وفى مقدمتها الأمة والاخوان المسلمين كانت تتشبث بجعله مايسمى دستورا اسلاميا بعيدا عن روح العصر ، بينما عارضت القوى التقدمية هذا الاتجاه فى كل موقع ، حتى حلت الجمعية التأسيسية فى أواخر عام ١٩٦٧ لتنعقد من جديد فى فبراير ١٩٦٨ بعد انتخابات جديدة .

وأخيرا ترك حزب الشعب الديموقراطى جبهة التقدم نهائيا ، وانضم الى الحزب الوطنى الاتحادى حيث تكون حزب الاتحادى الديموقراطى .

ومنذ اللحظة التى تجمعت فيها الأحزاب التقليدية جميعا فى حكومة واحدة ، وبدأت محاولات التئام حزب الأمة ، تبين تماما للشعب السودانى أن قوى التخلف والرجعية قد احتشدت فى جبهة تسيطر على السلطة ، وأن القوى العاملة والجماهير العريضة أصبحت

رغم كل الظروف فى جبهة واحدة خارج الحكم .

وأدى هذا الموقف الى مزيد من الوضوح ، وخاصة بعد أن اكتشف أن محاولات حزب الشعب الديموقراطى للانضمام الى جبهة التقدم والديموقراطية ، كانت من باب التضليل والتعلق بانتصار قريب وحاسم للقوى الاشتراكية التى ظهرت حقيقة قوتها فى ثورة أكتوبر ، فلما بدا لها أن الانتصار غير قريب ، هرعت عائدة الى حضنها القديم حزبا تقليديا طائفيا .

وبدأت الأحزاب التقليدية تتجه صراحة الى فرض « ديكتاتورية مدنية » تسعى للاختفاء خلف شعار الدين الاسلامى ، بمحاولة فرض ما أسمته « الدستور الاسلامى » .. وتحولت جامعة « أم درمان » الاسلامية التى كانت تمولها بعض الدول الأخرى الى مقر لبث الدعاية المضادة للتقدم والاشتراكية والحريات الديموقراطية ، واستجلبت من الخارج أساتذة من عتاة الرجعية والتخلف .

ولا يفوتنى التنويه هنا بأن الحرية الدينية لم تكن محل خلاف اطلاقا بين كل الأحزاب بما فيها الحزب الشيوعى ، الذى اعتاد أن يبدأ اجتماعاته بتلاوة من آيات الذكر الحكيم .. والذى حرص فى مؤتمره الأخير على دعم القيم والفضائل الدينية التى تؤكد العدالة الاجتماعية .

والواقع أن محاولات طعن ارادة التقدم والتغيير الاجتماعى وبناء المجتمع الاشتراكى عن طريق الدين قد وصلت فى السودان الى طريق مسدود بعد أن تبين أن البعض قد استغلوا الدين وأصبحوا أبعد الناس عن تقديم مايرفع الظلم والغبن عن حياة البسطاء الكادحين

وهنا يجب أن نفكر طويلا فى هذه الظاهرة

لا يمكن القول بأن هناك شعبا « محافظا » أى رافضا لدوافع التقدم .. والا كان معنى ذلك تشبث المظلومين بالظلم والقهر والجوع

ولا يمكن تصوير تمسك الناس بالدين على أنه تحفظ أو رجعية تقف ضد تطور المجتمع نحو الاشتراكية .. فنحن فى عصر يدرك فيه الناس أنه يجب تحرير حياتهم من قيود الفقر والمرض والتخلف ، ولم يعد منطق رجال الدين الرجعيين الذى يطالب الناس بقبول الفقر طمعا فى نعيم الآخرة مقبولا فى هذا العصر .

ضاقت جماهير الريف فى السودان وهى تكون حوالى ٨٦٪ من مجموع السكان بأسلوب الأحزاب التى تفرض الولاء الطائفى وتصدر توجيهاتها عن المركزية الروحية ، وبدأت تتطلع لمن يستوعب طاقتها البشرية وامكانياتها الطبيعية خلال عملية انتاج حديثة منظمة .. ووجدت فى الاتحادات الديموقراطية نصيرا وسندا لها يبدد الظلام الذى أحاط بها سنوات طويلة ، عاشتها فى خديعة الأمل والوعود الكاذبة من قادة الطائفة أو الأعضاء المرشحين للبرلمانات والجمعيات التأسيسية .

هكذا كانت الحالة السياسية فى السودان .

أحزاب تقليدية عاجزة عن اقناع الجماهير .. وجماهير متطلعة الى التغيير .

حكومة تهتم بفرض ديكتاتورية مدنية عن طريق مايسمونه بالدستور الاسلامى ... وجماهير ضاقت بالوعود الطائفية ، وكشفت

تماما خديعة كبار الرجال المستغلين للدين .

تجمع لكل القوى التقليدية فى موقع السلطة .. وتجمع لكل قوى التقدم والاشتراكية فى موقع المعارضة

جامعة اسلامية يحيط بها اخوان مسلمون تتاح لهم فرص التهجم على الاشتراكية .. وقوات واتحادات جماهيرية اشتراكية تقدمية تناضل فى مواجهة هذا الهجوم وتكسب كل يوم مواقع وأنصارا جددا

خلال فترة حكم الأحزاب التقليدية وصلت السياسة الى القاع .. وهبطت الناحية الاقتصادية أيضا الى الحضيض .

الاقتصاد ... يهبط الى الحضيض

كانت الأحزاب التقليدية تحاول الهبوط بمستوى العمل السياسى الى القاع ، ولم يقنع الجميع مبادرات الأزهرى ومحجوب بعقد مؤتمر القمة العربى بالخرطوم فى أغسطس ١٩٦٧ ، فان الجماهير فى تأييدها للصمود العربى كانت أكثر وضوحا وصلابة .. وكان لقاء جمال عبد الناصر دليلا على اصرار الشعب السودانى على استمرار الثورة والتقدم لبناء المجتمع الاشتراكى

والاتجاهات التى وضحت فى السياسة ، اقترنت بأخطاء وانحرافات ادارية وشخصية أدت الى هبوط الاقتصاد الوطنى الى الحضيض .

وتكررت فيما يبدو أخطاء بعض رجال الحكم العسكرى المنهار .

هرع عدد من النواب والوزراء الى الاستفادةالشخصية ، وعادت قصص الرشوة والفساد وتصاريح الاستيراد واعطاء رخص السلاح تصبح حديث المجالس من جديد ..

وحقق البعض ثروات تحت شعار « سودنة التوكيلات التجارية » الأمر الذى أدى الى استفادة النواب فوائد شديدة كشفت عنها محاكمات الثورة الأخيرة

وحديث الأرقام فيه مايثير

المصروفات العامة قفزت من ٥٨٫٥ مليون جنيه فى السنة السابقة

على ثورة أكتوبر الى ١٠٧ مليون جنيه أى بزيادة ٤٨ر٥ مليون جنيه .. بينما لم تزد ايرادات الميزانية بعد فرض سلسلة من الضرائب المباشرة وغير المباشرة الا بمقدار ٣٧ر٥ مليون جنيه .

بلغ العجز المقدر لمجالس المديريات والمجالس المحلية حوالى ٥ مليون جنيه .

ارتفعت مديونية القطاع العام للمصارف من ٣ر٩ مليون جنيه عام ١٩٦٥ الى ٤٦ مليون جنيه عام ١٩٦٩

واجهت الميزانية عجزا عاما سنويا مقداره يتراوح بين ٦ الى ٩ مليون جنيه كل عام ، ونتيجة لذلك انخفضت الأرصدة الأجنبية انخفاضا كبيرا متصلا ، فتدهورت العملات القابلة للتحويل من ٦١ مليون جنيه عام ١٩٦١ الى ١٦ر٣ مليون جنيه عام ١٩٦٩

ولم تعكس هذه السياسة وفرا فى السلع الاستهلاكية ، ذلك أنه لم تكن هنالك مراعاة لأسبقية استعمال العملات الأجنبية .. كانت الرخص التجارية توزع بلا حساب لاستيراد السلع التى لا تتصل باحتياجات الشعب ولا باحتياجات عمليات الانتاج ولا بالمواد الخام اللازمة للصناعة المحلية .

بلغت ترخيصات الاستيراد من اليابان وحدها ٧ مليون جنيه ليس فيها شيء واحد يخدم الاقتصاد أو جماهير البسطاء !

وأنقل هنا فقرة من تقرير منصور محجوب وزير الخزانة الذى قدمه بعد ثورة مايو بتاريخ ١٧ يونيو يحمل فيه صورة الموقف الاقتصادى .

« من أسباب هذه الأزمة ــ فترة الحكومات الحزبية ــ المعالم

الباب الثامن

قصة
ميلاد ثورة مايو

الآتية :

١ ـ انتهاج سياسة أدت الى تبديد الأموال العامة بسبب الاهمال والاسراف والتبذير كتعدد رحلات الوزراء الى الخارج بدون مبرر واعتمادات مايسمى بمال الوزير والرشاوى السياسية والعلاج فى الخارج الذى تحول الى سياحة على حساب الدولة والحفلات الاكرامية والمعاشات الاستثنائية ، واعفاءات الديون القائمة

٢ ـ المبالغة فى العلاوات والبدلات والامتيازات والحوافز

٣ ـ عدم التقيد باللوائح والقوانين المالية وتخطى جهات الاختصاص .

٤ ـ السباق المحموم بين الوزارات لتمثيلنا فى الخارج والمبالغة فى عدد موظفى السفارات وامتيازاتهم

ويواصل منصور محجوب تعداد نقط الخطأ والانحراف ، ثم ينتهى الى القول بأن :

« هذه قائمة عاجلة لبعض مظاهر الفساد الاقتصادى ، ولكن الفساد الأكبر هو فشل النظام الحزبى البائد فى تطبيق الاصلاح الاقتصادى والمالى والادارى ، فلجأ أولا الى أسلوب الرشوة السياسية للفئات والطبقات بدون دراسة متأنية ، ودون تخطيط ، واضطر بعد ذلك الى فرض الضرائب المتعددة المباشرة وغير المباشرة حتى أثقلت كاهل الشعب والى استخدام بعض القروض النقدية بطريقة أرهقت كاهل الميزانية العامة ، ثم خضع بعد ذلك لارادة النواب وتسابقهم على مطالبة الحكومة بمطالب عاجلة تخص دوائرهم وأشخاصهم فكانت مقترحات الصرف على غير أساس »

وينهى وزير الخزانة تقريره بالقول بأنه عندما ارتفع العجز المالى الى مستوى لم تعرفه البلاد من قبل ، ولم تكف القروض لتغطيته ، لجأ النظام الحزبى البائد الى الاستدانة محليا من بنك السودان وغيره وهذا أخطر ما يمكن أن تلجأ اليه حكومة لمعالجة الموقف الاقتصادى اذ أن زيادة المديونية والتوسع فى الائتمان المصرفى قد أدى الى زيادة النقد المتداول بنسبة أكبر بكثير جدا من احتياجات الاقتصاد نجم عنها ارتفاع المستوى العام للاسعار والغلاء الذى اكتوى بناره المواطنون وانخفاض فى الدخل الحقيقى للافراد ، خاصة ذوى الدخل المحدود ..

هكذا هبط الاقتصاد الى الحضيض .. وفى كلمات كان السودان على شفا هاوية الافلاس

كثير من الموظفين لم يتسلموا مرتباتهم الا بعد أول الشهر بأيام ..

وارتفعت الأسعار .. ووصل سخط الجماهير غايته

ولم يعد هناك من سبيل الا التعبير عن هذا السخط بطريقة ايجابية ..

الشعب كان مهيئا تماما لذلك .. والقوات المسلحة أيضا .

لم يكن انحدار سياسة الحكومة الى القاع .. وهبوط الاقتصاد الى الحضيض .. مما يمكن أن تغمض عنه عين الثوار الأحرار

كان التنظيم التقدمى الرئيسى ــ الحزب الشيوعى السودانى ــ والاتحادات الديموقراطية المختلفة تمارس دورها النضالى فى تعبئة الشعب ..

وكانت تنسج فى صفوف القوات المسلحة قصة ثورة جديدة

وخلال صفحات هذا الكتاب يمكن التعرف على قصص الثورة فى الجيش السودانى .. والتعرف أيضا على تاريخ وتضحيات بعض الضباط السودانيين ، الذين قدموا حياتهم فى النضال ضد الاستعمار البريطانى ، وضد الديكتاتورية العسكرية .

الجيش السودانى لم يكن بعيدا أبدا عن السياسة .

وثورة ٢٣ يوليو فى مصر كانت بداية مرحلة جديدة للعناصر الوطنية فى الجيش السودانى التى تأثرت بالدور الذى قام به الضباط الأحرار فى مصر .

وتكون فى هذه الفترة تشكيل للضباط الأحرار السودانيين كان من المنظمين له محمود حسيب الضابط بسلاح الاشارة فى ذلك الوقت ووزير المواصلات الحالى .. ولم يكن لهذا التنظيم اتجاه معين للاستيلاء على السلطة .. ولكنه على حد تعبير محمود حسيب « أحس الضباط ان لهم دورا ايجابيا ، وأنه لابد لهم أن ينظموا

أنفسهم ليكونوا على الأقل صمام أمان فى المستقبل اذا انحرف القادة السياسيون عن الطريق القويم ، وكان المهم أن يشعروا المستعمر الانجليزى ان الجيش لن يستمر مطية يمكن أن يسخرها لأغراضه الخاصة » .

غيبة الهدف عن هذا التنظيم ، وعدم ارتباطه برغبة التغيير جعلته لايتحرك حركة ايجابية ، خاصة وأن شعب السودان فى هذه الفترة كان يعبر مرحلة الانتقال متطلعا الى الاستقلال ، وكأنه العصا السحرية التى سوف تنقذه من كافة المصاعب والمشاكل .

وما كاد استقلال السودان يتحقق فى مطلع عام ١٩٥٦ وتتحرر الأرض من قوات الاحتلال البريطانية قبل أن يتم الجلاء عن مصر حتى فقد الحزب الوطنى الاتحادى رئاسة الحكومة فى شهر يوليو لموقفه المتهادن وحل محله عبد الله خليل ممثل حزب الأمة الرجعى متعاونا مع حزب الشعب الديمقراطى .

وحدثت فى مصر خلال هذا العام عدة حوادث بارزة هى جلاء القوات البريطانية فى ١٨ يونيو ثم تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو وأخيرا التجمع الاستعمارى والعدوان الثلاثى فى ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦

وكان عام ١٩٥٦ من أعوام المد الثورى فى الوطن العربى .. احتشدت الأمة العربية حول شعب مصر فى موقفه من العدوان الثلاثى .. ومع ظهور مشاعر الشعب السودانى بدأ الضباط الأحرار السودانيون يتجمعون من جديد وأمامهم نضال الشعب المصرى

ولكن سرعان ما اكتشف الأمر عام ١٩٥٧ وحاكمت حكومة حزب الأمة عددا من الضباط الأحرار هم الصاغ عبد الرحمن كبيدة

ويعقوب كبيدة وعمر خلف الله وعوض بابكر

وأحيل النقيب جعفر نميرى الى الاستيداع ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقدم فيها للتحقيق والمحاكمه .

وكانت هذه الضربة من العوامل التى ساعدت على تنفيذ تسليم الحكم للعسكريين يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ فى هدوء .. اذ أن الضباط الوطنيين لم يكونوا قد تجمعوا بعد من جديد .

ولكن الروح الوطنية عند رجال الجيش السودانى سرعان ماثارت ضد الديكتاتورية العسكرية .

المحاولة الأولى للانقلاب كانت فى ٤ مارس ١٩٥٩ كما سبق أن أوضحت فى الباب الخامس .. وقد نجح الانقلاب عسكريا تحت قيادة الأميرالاى عبد الرحيم شنان الذى دخل المجلس الأعلى للقوات المسلحة ومعه اميرالاى محيى الدين عبد الله بعد أن خرج منه اللواء أحمد عبد الوهاب المدبر الحقيقى للانقلاب الرجعى

وسرعان ماقرر الضباط الأحرار القيام بمحاولة انقلاب أخرى فى ٢٢ مايو ١٩٥٩ تحت قيادة الأميرالاى عبد الرحيم شنان أيضا والبكباشية حسن ادريس وعبد الحفيظ شنان ، ولكن الحركة فشلت وحوكم عدد كبير من الضباط وطرد آخرون .

وقبل أن ينتهى العام وارتباطا بحركات اضراب واسعة بين الطلبة والطالبات وعمال السكة الحديد واتحاد نقابات العمال ، قامت محاولة انقلاب ثالثة يوم ١٠ نوفمبر ١٩٥٩ ، وقدم للمحاكمة قادة الحركة الضباط الوطنيون التقدميون البكباشى على حامد والبكباشى يعقوب كبيدة والصاغ عبد البديع على كرار واليوزباشى طيار

الصادق محمد الحسن ، واليوزباشى عبد الحميد عبد الماجد .. فصدر عليهم الحكم بالاعدام ونفذ الحكم شنقا خوفا من عدم تنفيذ الجنود للحكم رغم مخالفة ذلك لتقاليد الجيوش فى أنحاء العالم .

وكان من بين المعتقلين فى هـذه الحركة الرائد فاروق عثمـان حمد الله عضو مجلس قيادة ثورة مايو ووزير الداخلية .

واضح أن هذه الحركات المتلاحقة كانت تعبر عن ضيق شديد بطبيعة الحكم الديكتاتورى ، وأنها أيضا كانت عمليات سياسية غير ناضجة .

وخلال عام ١٩٦١ أعيد احياء تنظيم الضباط الأحرار وصدرت مجلته السرية الأولى « صوت القوات المسلحة » وكانت هذ المجلة عاملا من أهم عوامل تجميـع المناضلين فى القـوات المسـلحة السودانية ، وربطهم بالقوى الوطنية التقدمية خارج الجيش .

فى أحد أعداد هذه المجلة السرية الصادر فى منتصف فبراير ١٩٦٢ وردت هذه الفقرة عن الاستراتيجية الفكرية للمناضلين داخل القوات المسلحة :

« ان تنظيم الصفوف فى الجيوش والحركة الشعبية أصبح شعار الساعة ، وشعبنا وجيشنا الذى اصـطدم بالاستعمار اصـطداما مباشرا خلال أعوام ١٩١٠ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٤٧ وبأعوانه فيما بعد لقادر على الاطاحة بهذا الحكم الضعيف المعزول .

ان برنامج الوحدة الشعبية الذى تتمثل فيه أمانى ومصالح بلادنا الحقيقية والذى يتلخص فى قيام حكومة وطنية معادية للاستعمار تكفل للشعب حقوقه وحـرياته الديموقراطية ليتمكن من صـنع

أمجاده بنفسه وتتخذ أسلوبا واضحا فى سياستها الخارجية ضد الاستعمار والأحلاف العسكرية ، وتقف فى صف السلم ، ومن أجل صيانة الاستقلال ومساعدة الشعوب الأخرى المكافحة من أجل استقلالها ، حكومة تتجه لتحسين حياة الشعب المادية والثقافية وتنهج سياسة اقتصادية من أجل تصنيع البلاد ومن أجل تجارة حرة .

.. هذا البرنامج كفيل بتوحيد كافة المواطنين من أجل انجاح الاضراب السياسى المقترح الذى سيشل حركة العصبة العسكرية الحاكمة ويأتى بالسلطة فى أيدى الشعب وطبقاته الوطنية خاصة اذا تفاعلت الحركة الشعبية وتجاوبت مع القوى الوطنية فى الجيش »

ولعله لم يعد سرا أن « صوت القوات المسلحة » كانت تصدر للتعبير عن رأى الضباط الأحرار ، وانها كانت تطبع سرا بأجهزة طباعة الحزب الشيوعى السودانى الذى كان يضم التنظيم عددا كبيرا من أعضائه .

ويجدر بنا أن نتعرف على آراء هؤلاء الضباط الأحرار خلال مجلتهم .

عن الديموقراطية يقولون :

الديموقراطية التى نريدها هى الديموقراطية الحقة ، والتى فى مضمونها تبنى حكم الشعب بواسطة الشعب ، والتى لا تقبل تسلط فرد أو طبقة معينة .

وعن ضعف الجيش السودانى يوضحون :

الضعف العسكرى الذى منى به جيشنا فى السنوات الأخيرة من ناحية الكم والنوع ، فخيرة ضباطه فى السجون والشوارع وتحت

الثرى ... مع انعدام التدريب ... كل هذا مضاف اليه عدم وجود الخبرة العسكرية والسياسية .

وعن الانقلابات المتكررة ينقدون :

« ان الانقلابات التى حدثت فى السنوات الأخيرة جعلت الشعب يفقد الثقة فى أى انقلاب عسكرى غير مرتبط بكفاحه ، وقد قال الشعب كلمتـــه وهو انه يريد الديموقراطية ولن يؤيد أى حكم عسكرى مهما كانت أهدافه ، وما دام تنظيمنا قام من أجل هــذا الشعب مندفعا بثوريته مرتبطا بنضاله فالديموقراطية تفرض علينا نفسها ويفرضها علينا الشعب السودانى بتراثه الوطنى وبكفاحه المستميت

واستمر تنظيم الضباط الأحرار ينمو يوما بعــد يوم ، ويزداد صلابة ووعيا ، حتى أسهم بدور بارز فى اسقاط حكم عبود كما سبق أن أوضحنا عندما وقف ضباط الجيش وفى طليعتهم بكباشى جعفر نميرى ويوزباشى فاروق عثمان حمد الله ، يحاصرون يوم ٢٦ اكتوبر قصر عبود ، ويجبرونه على الاستقالة بعد تقديم مطالبهم فى مذكرة وقعها ٦٠ ضابطا .

وعادت القوات المسلحة الى ثكناتها بعد انهيار ديكتاتورية عبود والمجلس الأعلى .

والواقع أن هذه المرحلة كانت تتجاذبها وجهتى نظر ..

الأولى .. تقضى بضرورة مواصلة القوى الوطنية والتقدمية فى الجيش لدورها بمساندة جماهير اكتوبر التى لم تكن تملك القدرة الكافية على امتلاك زمام الموقف كما أثبتت الأحداث فيما بعد .

الثانية .. تقضى بضرورة عودة القوى الوطنية والتقدمية فى الجيش

الى الثكنات ، تحت ضغط الرغبة الشعبية الجارفة المضادة لأى لون من ألوان الحكم العسكرى والتى ملأت سماء الخرطوم هتافات تقول « الى الثكنات يا ... » ، وأقامت فى الشوارع ليلة ٩ نوفمبر متاريس تمنع سير كل أنواع الدبابات والعربات والمصفحات .

انتصرت وجهة النظر الثانية لأن التنظيم العسكرى فى الجيش لم يكن قد نضج الى الدرجة التى تؤهله لحمل مسئولية السلطة ..

وتركت عودة القوى الوطنية والتقدمية الى الثكنات جماهير اكتوبر وقياداتها التقدمية فريسة لمؤامرات الرجعية الطائفية والأحزاب التقليدية التى أجهضت الثورة الشعبية الأصيلة .

قال الرائد فاروق عثمان وزير الداخلية لجريدة الموند بعد ثورة مايو « لو كنا قد نسقنا عملنا مع المنظمات الشعبية لما كانت ثورة اكتوبر قد فشلت ، وذلك لأن التحالف بين المدنيين والعسكريين التقدميين هو وحده الذى يمكن أن يؤدى الى اصلاحات جديدة ودائمة ومقاومة حملات الرجعية » .

دليل صحة هذا القول انه لم تكد تمضى عدة أيام على حصار الضباط للقصر الجمهورى وسقوط حكم عبود ، حتى دبرت الدوائر الرجعية فى الجيش مؤامرة ضد الضباط الثلاثة « نميرى وفاروق والرشيد » ومعهم خمسة آخرون واعتقلتهم ليلة ٨ نوفمبر بعد أيام قليلة من انتصار ثورة أكتوبر .

وصدر منشور فورا من الضباط الأحرار يقول :

« ان الدوائر الرجعية تحاول أن تردد الاتهام للضباط الأحرار بأنهم يعملون لحساب مصر ، وهذه محاولة رخيصة لستر الحقيقة

تقصد من ورائها الدوائر الرجعية أن تبرر موقفها فى تصفية الجيش من العناصر الوطنية وفرض سيطرة العناصر الرجعية عليه » .

وتدفقت المظاهرات الى شوارع الخرطوم تطالب بالافراج عن الضباط الأحرار مما اضطر السلطات الحاكمة الى اطلاق سراحهم .

وقد أوضح ذلك للجماهير الدور الوطنى الذى قام به بعض ضباط الجيش .. وثبت لهم ان القوات المسلحة ليست كلها نماذج من ضباط عبود !

وخطا تنظيم الضباط الأحرار خطوة أخرى الى الأمام بمحاولة توسيع جبهته .. وأصدروا مجلتهم الجديدة « الأحرار » بدلا من « صوت القوات المسلحة » .

ووضح الاتجاه الاجتماعى للضباط الوطنيين فى القوات المسلحة فى جريدة الأحرار التى صدرت يوم ٤ يناير ١٩٦٥ بعد انتصار ثورة اكتوبر وجاء فيه :

« نحن ندرك اليوم كما يدرك العمال والمزارعون والمثقفون بأن طريق الرأسمالية الذى سرنا فيه بعد الاستقلال والذى أدى انقلاب ١٧ نوفمبر لترسيخه انما هو طريق شقاء لا حدود له بالنسبة للشعب وهو لا يقود الى التقدم بل الى التخلف والتبعية التامة للاستعمار ، ولفقدان الاستقلال نفسه ..

« نحن ندرك ذلك فنتلفت حولنا فنرى بلادا عانت من الاستعمار مثلنا بل أشد ولكنها شقت طريقها ونجحت فى حماية استقلالها ، ذلك لأنها رفضت الطريق الرأسمالى واتخذت الاشتراكية هدفا لها » ..

هكذا أصبحت « الاشتراكية » هدفا للمواطنين فى القوات المسلحة السودانية .. وبدأت تظهر صلة وثيقة بين الضباط وصف الضباط والجنود ، عبرت عنها مجلة « الأحرار » أيضا بقولها :

« ان الجبهة تضع فى المقام الأول علاقة الضباط بالجنود فالارتباط بينهم ارتباط حتمى تمليه طبيعة العمل والأهداف المشتركة ، ولذا كان لزاما أن تصل العلاقة بينهما الى أقصى مراتب التعاون » .

ولم يكن النشاط السياسى فى القوات المسلحة قاصرا على القوى الوطنية التقدمية ، وانما كانت القوى الرجعية تثبت أنصارها فى مراكز الجيش القيادية .. وكان الصادق المهدى نشطا فى ذلك غاية النشاط .. بل انه كان يدبر لانقلاب رجعى عسكرى .

وحاول الصادق المهدى ضرب القوى الوطنية فى الجيش عن طريق مؤامرة مفتعلة اختار لها ملازم ثان اسمه خالد الكد يمت بصلة قرابة الى عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعى وان لم تربطهما معا أية صلة فكرية أو سياسية .

واعتقل خالد الكد والضباط جعفر نميرى وهاشم العطا والرشيد نور الدين ورشيد أبو شامة ومن المدنيين عبد الخالق محجوب وغيره .. ثم تبين ان التدبير كان ساذجا وعجز التحقيق عن توجيه الاتهام لأى معتقل فأفرج عنهم جميعا .

وعموما اتخذت الرجعية موقفا من الضباط الوطنيين .. نقلتهم الى الجنوب والى معسكرات بعيدة عن العاصمة ..

نقل جعفر نميرى الى غرب السودان وفاروق عثمان حمد الله الى جوبا .

ولكن ذلك لم يوقف تيار المد الثورى ، أو يعرقل وحدة التجمع التنظيمى .. بل العكس هو الصحيح اذ أنه تكشف لبعض هؤلاء المناضلين مأساة الجيش السودانى .

يقول فاروق عثمان (ان الجندى كان ينزف الدم فى الجنوب حتى يموت دون وجود أية اسعافات أولية .. وان بعض الوحدات كانت تقضى ثلاث سنوات بلا غيار أو اجازات ، وبعض الوحدات عزلت سنة كاملة وكانت تمون بالطائرات .. وبعض الجنود كانوا يشترون الملابس من جيوبهم الخاصة !!) ..

ويقدم فاروق عثمان حمد الله بتاريخ ١٨ يونيو ١٩٦٩ صورة شديدة الوضوح والتأثير لموقف القوات المسلحة السودانية تبين ان الحكومة فى الخرطوم كانت معزولة تماما عما يدور فى الجنوب وكانت تحجب عن الرأى العام بل وتتجاهل الحقائق التى كانت تصلها ، وأهملت تماما واجبها نحو توفير أبسط احتياجات الجندى المقاتل من ملابس وذخيرة .

ويقول فاروق عثمان ان قيادة القوات المسلحة بالخرطوم كانت تساعد فى تعميق المشكلة فقد كان التنظيم رديئا وكان التسليح ضعيفا وكانت المعدات عموما فى حالة سيئة بسبب سوء الادارة وكثيرا ما اختل نظام الضبط والربط ووقعت حوادث تمرد فى القوات العاملة فى الجنوب .

وبشكل عام كانت الفوضى هي الصفة التى يمكن أن تطلق على الوضع فى القوات المسلحة .

وكان النقص عاما فى الضباط والجنود فى كافة الوحدات دون

استثناء وبعض « البلوكات » كان مرتبها خمسة ضباط .ولم يكن يوجد فيها ضابط واحد !

وكان العساكر لايتمكنون من صرف مرتباتهم لمدة تصل الى ستة شهور .. وكانت تصل اليهم أطعمة فاسدة لا تصلح لأكل انسان ..

وكان الجنود يواجهون مشكلة حتى بالنسبة لمياه الشرب ومعظم كمائن المتمردين تقع فى أماكن تواجد المياه .. وحدث فى كبالة أن استشهد ١٧ صف ضابط وعسكرى وجرح أربعة جنود أثناء محاولاتهم للحصول على المياه .. وتعذر احضار الجرحى لعدم توفر الوقود !؟

والى جانب ذلك كان هناك نقص فى الذخيرة والتسليح والصيانة والمدرعات .. الأمر الذى أدى الى انهيار الروح بين الجنود ، وحدثت خمسة حوادث تمرد فى وحدات كاملة بالجنوب .

ويقول فاروق عثمان ان من أقوى أسباب انعدام الثقة وسوء التفاهم بين الجنود والضباط .. وعد القائد العام أثناء جولته فى الجنوب فى حوالى أغسطس ١٩٦٥ بأنه تقرر أن تكون مدة الخدمة بالجنوب سنة واحدة ، هذا فى الوقت الذى توجد فيه وحدات أمضت حوالى ثلاث سنوات ولم ينفذ هذا الوعد ، الأمر الذى أدى الى أن يعتقد الجنود أن الضباط هم السبب فى التأخير ... وقد دفع ذلك بعض الجنود الى نشر بعض المنشورات واقامة جمعيات سرية منها جمعية « لهب » والجنود الأحرار .

ورغم بعثرة الضباط الأحرار الا انهم كانوا على اتصال دائم حول مجلتهم السرية « الأحرار » .. واستطاعوا أن يجمعوا توقيع ٨٠

ضابطا على مذكرة للقيادة تطلب زيارة وزير الدفاع والقائد العام للجنوب .

وعندما حضر الاثنان طلب منهما الضباط :

١ ـ تحسين الحالة المعيشية للجنود وضباط الصف والعناية بأسر الشهداء .

٢ ـ اعادة تنظيم وتسليح القوات المسلحة .

٣ ـ تطهير القوات المسلحة من العناصر الفاسدة .

وفى ختام الاجتماع شكر الوزير والقائد العام الضباط على وطنيتهم وأكدا لهم تنفيذ المطالب وعدم اتخاذ اجراء ضد أى ضابط ..

وعندما عاد الاثنان الى الخرطوم تقرر طرد عدد من ضباط الجيش منهم فاروق عثمان الذى عين فى وظيفة مدنية ببلدية أم درمان ، تقرر نقله بعدها الى الجنوب ولكنه استقال ليظل قريبا من تنظيم الضباط ..

وكان هذا الاجراء نقطة تحول فى تاريخ القوات المسلحة اذ وضح لتنظيم الضباط الأحرار الذى يتولى فاروق عثمان سكرتاريته ان الاصلاح لن يتم الا اذا تغير الجهاز الحاكم نفسه .

ولم يكن تنظيم الضباط الأحرار منعزلا عن التنظيمات الشعبية ... كان حلقة الاتصال بين القوى الوطنية والتقدمية داخل الجيش وخارجه ، بابكر عوض الله رئيس القضاة الذى استقال احتجاجا على تصرفات الحكومة ورفضها تنفيذ قرار المحكمة العليا الصادر بعدم قانونية تعديل الدستور الذى أباح للجمعية التأسيسية حل

الحزب الشيوعى وفصل أعضائه منها .
بدأت صلة الضباط الأحـرار مع بابكر عوض الله عقب ثورة اكتوبر ١٩٦٤ عندما شكلت لجنة من القضاة لتطهير الجيش ..
وكانت الأحداث السياسية تدفـع تنظيم الضباط الأحرار الى سرعة الحركة .
حرص الضباط الأحرار على منع اقرار الدستور الرجعى الذى يتخفى باسم الاسلام .. وحرصوا أيضا على منع اجراء انتخابات للرئاسة ..
وبدأت تظهر تحركات واجراءات مريبة .
حزب الأمة بدأ يكون مليشيا عسكرية .
قام الصادق المهدى بزيارة مشبوهة للخليج وأبو ظبى .
ثم تنازل الصادق عن بعض آرائه فى سبيل المصالحة للاستيلاء على الحكم .
وأخذت الصورة تبدو مظلمة ويائسة ..
ولم يجد شباب الضباط الأحرار سبيلا الا الحركة لتغيير الحكم من الجذور .. وكانت ارادة التغيير عند الشعب قد وصلت ذروتها .
ولكن كانت هناك صعوبات فنية فى التنفيذ ... حرصت قيادة الضباط الأحرار على أن يشترك أقل عدد وأحسن مستوى ثورى من الضباط .
وفى لحظات الاعداد الأخيرة تقاعس بعض الضباط المنتظمين فى لجنة الضباط الأحرار لارتباطات خاصة ، وتحليلات غير سليمة .
وانكمش عدد المسئولين عن التنفيذ ... وجابهوا هذا الموقف

بالتمويه بأنهم صرفوا النظر من جهـة ... وعملوا على الاسراع بالتنفيذ من جهة أخرى .

تقرر موعد الثورة لأول مرة يوم ١٤ مايو .

وتأجل للمرة الثانية ليكون ٢١ مايو بمناسبة سفر الأزهرى .

ثم استقر ليكون ٢٥ مايو أثناء وجود كبار ضباط الجيش فى زيارة للاتحاد السوفييتى .

وحمل مسئولية الثورة سريتان من المظلات وقوة من المدرعات لاتتجاوز فى عددها ٤٠٠ صف ضابط وعسكرى كانوا فى مناورات خارج الخرطوم حسب مشروع سابق

وتمت العملية فى هدوء .. ولم تطلق سوى طلقة رصاص واحدة فى الهواء فى مكتب بريد الخرطوم أثناء قطع المواصلات .

وانتصرت ثورة مايو .. ولم تنجح محاولات تأجيلها الى حين استكمالى تشكيل « الجبهـة الديموقراطية » التى كانت قد تمت محـاولات جادة لتشكيلهـا من الشيوعيين والاشتراكيين وسائر المنظمات الشعبية .

***

وانتصرت الثورة فى الساعة الثانية صباح يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩ .

وأعلن فى الصباح تشكيل مجلس قيادة الثورة برئاسة العقيد جعفر نميرى وعضوية بابكر عوض الله والمقدم بابكر النور والرواد فاروق عثمان حمد الله وخالد حسن وهاشم العطا ومأمون عوض أبوزيد وأبو القاسم ابراهيم وأبو القاسم هاشم وزين العابدين محمد أحمد عبدالقادر .

وأعلن أيضا تشكيل وزارة جديدة برئاسة بابكر عوض الله .

وهزت هذه الأنباء أرجاء الوطن العربى ، وكان لها صدى عالمى كبير ..

وبعد ساعات من الثورة .. كنت فى الخرطوم .

الباب التاسع

ثــــورة مــايــو

- فى الخرطوم .. بعد ساعات من الثورة
- تلال المشاكل
- قائد الثورة يتحدث
- آخر صورة .. من السودان

فى الخرطوم .. بعد ساعات من الثورة

منذ اللحظة الأولى فى مطار الخرطوم تتبين على الوجوه اشراقا وابتهاجا بما تحقق منذ ساعات فى السودان .. كلمات الترحيب والابتسامات المضيئة .. سائق التاكسى لايتوقف عن الحديث طول الطريق .. انه يخفف علينا حرارة الجو التى تعلو على الأربعين ، والعربة كأنها تخترق جبالا من لهب .

الشوارع هادئة والأنوار تغمر النوادى ، ودور السينما مزدحمة بالرواد .. ولا تلمح الا عددا محدودا من الجنود عند القصر الجمهورى وثلاث مصفحات .

الملامح التى رأيتها فى الخرطوم منذ خمس سنوات عندما انفجرت ثورة أكتوبر الشعبية أشاهدها اليوم أكثر اشراقا وحيوية .. ومسئولية أيضا .

الطلقة التى استقرت فى قلب الشهيد الطالب أحمد القرشى فى أكتوبر ١٩٦٤ .. عندما تظاهر الطلبة نتيجة تتبيع الجامعة لوزارة التربية والتعليم التى كان يتولاها طلعت فريد لم تضع عبثا .. فى هذه الأيام المجيدة ظهرت للشعب السودانى قيادات أصيلة جديدة .

هذه القيادات التى بزغت من صفوف الشعب فى أكتوبر ١٩٦٤ ، هى التى تقود الخرطوم اليوم فى مايو ١٩٦٩ بعد فترة مهتزة كئيبة .

السودانيون يذكرون تماما ذلك الضابط الشاب الذى تردد

اســــمه أكثر من مرة فى كل عمل وطنى داخل القوات المســلحة السودانية ... انه العقيــد ــ أو اللواء الآن ــ جعفر نميرى قائد الثورة .. الذى كان أحد الضباط الذين اشتركوا مع الشعب فى ثورته وطالب بحل المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، وحل مجلس الوزراء ، ووقف المجازر وتطهير الجيش من عناصر الفساد .

وساعة انتصر الشعب بعد اذاعة بيان عبود فى التاسعة والنصف ليلا عاد جعفر النميرى مع زملائه الى الثكنات ، ينتظر حصــــاد الثورة ... ولكن طال به الانتظار !

ورئيس الوزراء بابكر عوض الله عضو المحكمة العليا فى ذلك الوقت لم يتردد لحظة عن وقوفه الى جانب شــــعب أكتوبر ... واختار موقفا يعرضه لخطر شديد .. ولكن صلابته وأصالته وايمانه بوطنه وشعبه كانت حوافز قوية لموقفه الثــورى ، الذى يرفض أيضا منصب رئيس الوزراء الذى عرض عليه ، والذى قدمته الثورة الى رجل بعيد عن الأضواء .. بعيد عن السياسة ، هو سر الختم خليفة الذى رأس أول وزارة ســودانية شــــعبية ترفض الظلم والاستبداد ... والتى كان يمكن لها أن تؤدى دورا عظيما خلاقا فى حياة البلد الشقيق .

ولكن سر الختم خليفة آثر فى اللحظة الحرجة الحاسمة أن ينسحب من الميدان خاذلا زملاءه ووزراءه ، ورضى بأن يصبح سفيرا فى روما ثم فى لندن ... ولذا كان من أول قرارات الثورة الجــديدة تنحيته عن منصبه .

قابلت قائد الثورة الذى تسبقه ســمعته الطيبة فى مقر مجلس

الثورة بالقيادة العامة .

قال اللواء جعفر نميرى : يخطىء من يظن أن ثورة أكتوبر قامت ضد جيش السودان .. انها هبت ضد الحكم الفاسد ... ويخطىء من يتصور أن قوات الجيش الآن يمكن أن تقف ضد ارادة الجماهير ... ان ثورتنا تهدف الى تحرير الشعب السودانى من الفساد الذى أصبح موضع نقمة الجميع ..

ويواصل اللواء حديثه فى هدوء : « لقد انتظرنا من الذين وثبوا الى الحكم بعد أكتوبر أن يقدموا لنا مثلا طيبا على الروح الجديدة التى انبثقت فى صفوف الجماهير . ولكن للأسف كان يغمرنا الأسى ونحن نرى شجرة الثورة تصفر أوراقها وتذبل وتذروها الرياح ... لقد قتلت الأحزاب التقليدية أمل الشعب فى التغيير ، وأصبح رجل الشارع البسيط ، يطلب انقاذا للبلاد مما غمرها من فساد .

وسألت اللواء جعفر النميرى :

ــ وهل تعتبر ثورة مايو امتدادا لثورة أكتوبر ؟

وقال قائد الثورة فى حسم :

ــ طبعا .. اننا نعبر عن ارادة الجماهير .. وتشكيل مجلس الوزراء الجديد يدل على أن الثورة حريصة أشد الحرص على اختيار عناصر جديدة لم تتلوث بالارتباط بالحكم القديم .

وواصل حديثه قائلا :

ــ البعض يحاول تصوير ثورتنا بأنها انقلاب .. وهذا غير صحيح .. لأننا لانقوم بحركتنا محصورين فى اطار الجيش وحده .. ولكننا ننفتح تماما على شعبنا الذكى الأصيل .. ونضع أهدافنا فى

خدمة الذين عانوا طويلا من الظلم والاستغلال .

ويقول بابكر عوض الله رئيس الوزراء :

ــ ان الاعتراف بألمانيا الديمقراطية يعبر عن أصـالتنا وتقاليدنا العربية فى تقدير موقف الأصدقاء .. ان ألمانيا الاتحادية كانت أنشط الدول الاستعمارية فترة حكم عبود ، وتصورنا ان موجة تدخلها سوف تنحسر فى عهد مابعد الثورة ، ولكنها زادت نفوذا ، وأصبح رئيس مجلس السيادة ينادى بعودة الاعتراف بها .

ــ ان قنصلنا العام فى بون الآن ، كان سفيرنا هناك قبل قطع العلاقات . الحكم المنهار كان يود أن يؤكد لهم أن شيئا لم يحدث !

ظاهرة أخرى تتميز بها الثورة .. هى الحسم السريع .

ان قيادة الثورة ومجلس الوزراء يدركون جميعا أن قوى الثورة المضادة فى السودان والمنطقة كلها تتربص فى محاولة الانقضـاض عليها . ولذلك فانهم يجابهون فى صرامة ، يضربون أعداء الشعب فى نفس الوقت الذى يمدون فيه أيديهم الى الجماهير .

انهم يحكمون بروح أكتوبر ، ولكنهم لايمثلون وزارة « مصالحة وطنية » كما كانت وزارة أكتوبر .. استفادوا خبرة من خطأ تكوين هذه الوزارة التى لم تستند الى قوة الجيش مع الجماهير .. ولذا استطاعت الأحزاب التقليدية أن تنقض على كل انتصاراتها .

هناك اتجاه واحد مميز للحكم الجديد .. اتجاه وطنى تقدمى .

كنت أرقب حماس الناس فى الخرطوم للتظاهر تأييدا لثورة مايو بشغف شديد ، كل الذين قابلتهم كانوا يعلنون رأيهم فى حماسة جارفة .. وينتظرون اللحظة التى يعلن فيها وزير الداخلية موافقته

على قيام مظاهرات التأييد .

وكانت مظاهرة ٢ يونيو احتفاء بمرور سبعة أيام على الثورة هى بداية التعبير الشعبى الأصيل عن ارادة التغيير عند الشعب السودانى الذى فجر ثورة أكتوبر ثم فوجىء بأن الانتصار قد تحول الى هزيمة ... وان الآمال قد تبددت بمناورات الأحزاب التقليدية ، وحصر العمل السياسى فى غرف مغلقة وقيود روتينية .

والجماهير التى احتشدت فى ميدان أبو جنزير وتدفقت الى ميدان عبد المنعم ، أعادت الى الذاكرة مظاهرات أكتوبر ، وليلة ٩ نوفمبر الخالدة عندما سهر الشعب السودانى طوال الليل يدق الطبول ويردد الشعارات والهتافات ، حماية لثورته ، بعد أن سمع فى الاذاعة الكلمات التى قالها فاروق أبو عيسى وزير الدولة الحالى بأن « الثورة فى خطر » .

والناس يقارنون بين حالتهم اليوم وحالتهم عندما قوضوا حكم عبود عندما انفجرت ثورة أكتوبر كان سعر كيلو اللحم ١٧ قرشا ويباع اليوم بخمسة وثلاثين قرشا ، وعلبة السجاير ارتفعت من عشرين الى ثلاثين قرشا .. والبنزين من ١٨ الى ٢٥ قرشا ، والأرز من ٦٥ مليما الى ١١ قرشا وزجاجة البيرة من ١٨ الى ٢٨ قرشا .. وهكذا .

صحيح ان الكادر الأخير قد رفع المرتبات ١٥ ٪ ولكن نظرة الى ارتفاع الأسعار توضح أنها قد تجاوزت هذه النسبة كثيرا ، والرابح هو التاجر الكبير المستغل ، الى جانب ان ميزانية الدولة قد تحملت عبء زيادة حوالى ١٥ مليون جنيه ، دون أن تقدم خدمة حقيقية للجماهير

لذا كان من أول قرارات ثورة مايو تخفيض أسعار الشاى والبن والملح وهى أساسيات فى غذاء الشعب .. ومعالجة الموقف الاقتصادى علاجا شاملا ..

ومما دفع الشعب السودانى الى الوقوف فى صلابة مع ثورة مايو الاحساس المخيف بأن الفساد قد بدأ يتسلل الى كل موقع ، حتى كاد يصبح أمرا طبيعيا ... أسماء كثيرة من المسئولين أصبحت الأصابع تشير الى عمارات يمتلكونها ، وأرصدة ضخمة يحتفظون بها فى البنوك ، بينما مرتباتهم لا تسمح الا بحياة متواضعة .. ولن نجعل من ذلك مجالا لضرب الأمثلة فهى معروفة لدى كل سودانى حاول أن يأخذ حقه من طريق طبيعى ، فأجبرته الظروف على دفع ما كانت تفرضه بعض الشخصيات .

وعندما يصبح الفساد حديث المجتمع ، تكون الثورة هى المنقذ الوحيد والجمعية التأسيسية التى حلتها الثورة لم تلعب أبدا دور الرقابة الشعبية ، ولم تمارس سلامة التعبير عن ارادة الجماهير ، ولم تحفظ للديموقراطية مظهرها الشكلى وانما استجابت لمؤامرة أدت الى قرارها بحل الحزب الشيوعى وطرد أعضائه من الجمعية ، وهو ما رفضته المحكمة العليا .

أكبر ما كانت تهدف اليه الجمعية التأسيسية هو اقرار « الدستور الاسلامى » الذى كان يؤدى بالحتم الى تعقيد المشكلة مع الجنوب والى خلق نظام متخلف باسم الأمامة الاسلامية يرتبط بالاستعمار ارتباطا وثيقا .

وثورة مايو تتميز بموقفها الحاد الصريح من « الديموقراطية

الليبرالية » التى انتهكت ارادة الشعب وأجهضت ثورة أكتوبر .. وجعلت الديموقراطية فى خدمة الرجعية الاقطاعية والمالية المتركزة فى الأحزاب التقليدية .

الديموقراطية الليبرالية أثبتت عدم صلاحيتها فى السودان ، كما فى سيلان عندما حاولت مسز باندرانيكا أن تسيطر القوى التقدمية على الحكم عن طريقها ولكنها انتهت الى خروجها من الحكم وسيطرة القوات الرجعية .

وقد أعطى ذلك لشعوب الدول النامية خبرة سياسية ثمينة .. هى أن الثورة الشعبية لا يجوز لها أن تتعاون مع أعدائها .. أو أن تمنحهم فرصة التسلط على الحكم تحت شعار « الديموقراطية » أو اغراء « المصالحة الوطنية » .

الديموقراطية الاشتراكية ، أو ديموقراطية قوى الشعب العاملة القائمة على الحقوق الديموقراطية للجماهير الثورية هى ما تتبناه ثورة مايو ، وتحاول بها أن تعيد للجماهير صوتها وارادتها .

وثورة مايو تتميز بأصالة وجهها الاشتراكى .. كل الذين شاركوا فيها بالتخطيط أو التنفيذ أو العمل المسئول ، لم يعرف عنهم فى تاريخهم أى انحراف لليمين .. ولم يسهم واحد منهم فى دعم سلطة الرجعية أو الأحزاب التقليدية .. ولهم جميعا دور واضح فى دفع الاتجاه الاشتراكى التقدمى فى السودان .

واذا كانت ثورة مايو قد حرصت على تأكيد دور الشعب السودانى فى تحرير الأرض العربية من الصهيونية والامبريالية العالمية، فانها تدرك بذلك ان استمرار الثورة فى السودان يرتبط

تماما باحباط المؤامرة الاستعمارية المحيطة بأرجاء الوطن العربى أو المتسللة الى داخل أرضه .

ونحن لا نريد أن نقلل من الأخطار التى تجابه ثورة مايو .. سواء من الداخل أو الخارج ..

زعماء الطائفية من الأنصار لم يسعدهم نشوب ثورة مايو التى تهدد مصالحهم ، حيث يسخرون الجماهير فى أرضهم ، ويحاولون أن يغرقوها فى غيبيات سخيفة متخلفة متنافية مع تعاليم الدين .. ولذا فان الثورة قد أخذت منهم موقفا حازما منذ اللحظة الأولى أدت الى اعتقال الصادق المهدى ، وهو أول أمر اعتقال يصدر على زعيم من زعماء الأنصار وانتهت الى ردع حركة التمرد فى جزيرة آبا ومصرع الهادى عبد الرحمن عند محاولته الهرب على حدود أثيوبيا .

وثورة مايو تختلف عن أى حكم سابق فى السودان ... لأنها تعزل اليمين فى صراحة ، وتتبنى موقفا اجتماعية واضحا لا يسمح لها بالتردد أو المهادنة .

قادة الثو رة والجماهير يعرفون أن أى انتكاس لثورة مايو لابد

يزداد ويتماسك يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد أخرى .. حيث تبينت كل القوى والشخصيات والتنظيمات التقدمية أن هناك التحاما عضويا ومصيريا بينهم وبين قادة الثورة .. وأصبح التعاون الوثيق المطلق هو أسلوب الأغلبية المتطلعة الى الحق والعدل الاجتماعى والانسانى فى مواجهة الأقلية الرجعية المتشبثة بالتقاليد البالية والاستغلال الشديد .

وتواجه ثورة مايو أخطارا أخرى قد تحركها القوى الاستعمارية على الحدود المشتركة للسودان .. ولكن كل هذه الاخطار سواء فى الداخل أو الخارج لا يمكن أن تشكل تهديدا حقيقيا لاستمرار الثورة ، طالما هناك وحدة أصيلة بين الثوريين ، وطالما أن الثورة لا تعتمد على الأسلحة وحدها .. ولا تستمد سلطتها من قوة الجنود فقط .. ولكنها كما أعلنت منذ اللحظة الأولى ترتبط بالشعب .. وتعمل على تشكيل تنظيم شعبى ديمقراطى يحمى وجودها ويعمق جذورها

وهنا يتساءل البعض :

كيف ستكون الصورة فى المستقبل ؟

وماذا ستكون العلاقة بين مجلس الثورة والحكومة والتنظيم السياسى المحتمل ؟

وهى أسئلة لا تكون ملحة — فى رأيى — الا بعد الانتهاء تماما من تأمين الثورة فى كافة المجالات ، وهو الهدف الذى يجمع عليه اليوم كل الثوريين والتقدميين .

ومع ذلك فانه كانت هناك خطوات ايجابية فى خلق تنظيم سياسى تراكى ديموقراطى متمثل فى « الجبهة الديموقراطية » التى كانت

تضم كل الأحزاب والقوى والشخصيات الوطنية التقدمية ، والتى أعدت فعلا مشروع برنامجها وكان مقررا أن تظهر علنا قبل نهاية هذا العام ، لتسبق اجراء انتخابات الجمعية التأسيسية فى فبراير .

« والجبهة الديموقراطية » هى التحول الأساسى فى محاولات اللقاء الثورى التقدمى بعد وصول « التجمع الديموقراطى » إلى طريق مسدود .

ان اضافة كلمة « الديموقراطية » الى اسم السودان ليصبح « جمهورية السودان الديموقراطية » لا يعبر عن تغيير شكلى ، وانما يعبر فعلا عن تحول موضوعى فى بناء المجتمع .

ان ثورة مايو تنهى خدعة « الديموقراطية الليبرالية » التى تترك الحكم يتعثر فى يد الرجعية المتسلطة وتضيف الى الوطن العربى قوة تقدمية ثورية .. وتحقق للمجتمع السودانى وجها اشتراكيا ديموقراطيا واضح المعالم .

بل ان ثورة مايو تفرض نفسها على الوطن العربى كحدث من أهم الأحداث التى أشرقت وسط ظلام النكسة ... وأنهت الاعتقاد بأن صدمة الهزيمة المفاجئة قد أصابت الجماهير العربية بشلل مؤقت سوف يعجزها عن السير لمدة طويلة ، ويدعها فريسة محتملة لنكسة اجتماعية وسياسية .

ثورة مايو أثبتت أنها اضافة جديد للنضال الوطنى التقدمى الذى فجرته اليقظة الشعبية بعد عنف الهزيمة العسكرية .. وبدلا من اليأس انطلقت ثورة شعب فلسطين ، وتبعتها ثورة شعب السودان

واذا كان لكل من الثورتين طبيعة مختلفة وخصائص مميزة ، الا

أنه يجمعهما خيط واحد .. هو الانفجار بعد النكسة ، فى وقت كاد ينسرب فيه اليأس الى كل شيء وانهما معا تحملان وجها تقدميامشرقا.

ورغم أنه لم تكد تمضى الا أسابيع محدودة على ثورة مايو ، الا أنها أبرزت معانى ودلالات هامة ، يحسن بنا أن نقف عندها طويلا ، حتى تتبين سلامة طريق الثورة السودانية .

أولا : أعظم ماتقدمه لنا ثورة مايو هو احتجاجها العملى على وقوع آمال الشعب السودانى وأهدافه التى ثار من أجلها فى أكتوبر ١٩٦٤ فريسة فى يد رجال الأحزاب التقليدية ، الذين لم يعرفوا السياسة الا بأسلوبها القديم ...أسلوب الحكم الروتينى الذى يخدر المشاعر بديموقراطية ليبرالية مظهرية تطفو على السطح ، وتترك العفن راسبا فى الأعماق .

رفض ثورة مايو لهذا الأسلوب من جذوره .. دليل على أنها ثورة شعبية ، تريد أن تحرث المجتمع حرثا جديدا ، لتنمو فيه بذور التقدم والحضارة .

ثانيا : الاستجابة الشعبية السريعة لأهداف ثورة مايو ، والتكتل الجماهيرى الراضخ لحماية الثورة وتأييدها يأتى أساسا من ضيق الشعب بمظاهر الفساد التى لم تعد هناك حتى محاولة لاخفائها أو التستر عليها .

ذلك يؤكد أن الفساد الاجتماعى هو الذى يقوض نظام الحكم ، ويخنقه بالاحتجاج والكراهية ..

ثالثا : العلاقة الوثيقة التى ظهرت وتأصلت بين القوات العسكرية والقوات الشعبية منذ اللحظة الأولى ، تفسر لنا أن ثورة مايو ليست

انقلابا عسكريا محدودا ، ولكنها ثورة شعبية متفتحة ... يحمى فيها الجيش سلطة الشعب التى سلبت منه بعد أكتوبر .

ومجلس الثورة السودانى يتميز بأن بعض أعضائه من الضباط الذين مارسوا السياسة منذ مطلع الشباب عندما كانوا طلبة فى المدارس الثانوية أو الجامعة ... والبعض الآخر منهم لحقت به أخطار السياسة ، فتعرض للاعتقال أو الفصل أو التشريد .

ولذا فانهم ينسجون كل أفكارهم بالسياسة ، ويحرصون دائما على ألا تعزلهم الروح العسكرية عن تدفق الحياة الشعبية .

رابعا : تبينت الثورة منذ اللحظة الأولى انها يجب أن تعتمد على قوة سياسية منظمة ... وهذا التنظيم السياسى واضح أنه لن يعتمد على الأحزاب التقليدية .

تعتمد الثورة حاليا على التنظيمات الجماهيرية والسياسية التى لم تتلوث بفساد الحكم ... والتى طرحت مهام التغيير الاجتماعى منذ اعلان الاستقلال مطلع عام ١٩٥٦ ، ثم قادت ثورة اكتوبر ١٩٦٤ ذات الأهداف الوطنية الديموقراطية .

واذا كانت ثورة مايو تهدف الى تكوين تنظيم سياسى يضم قوى الشعب العاملة صاحبة المصلحة الحقيقية فى التطور الاجتماعى والاشتراكية ، فانها لن تجد ذلك أمرا عسيرا .

يتميز السودان بوجود قوى سياسية تقدمية ذات تاريخ نضالى واضح ، يمتد أثرها ونفوذها الى التجمعات العمالية والزراعية والمهنية ..

هذه القوى هى الحليف الطبيعى للثورة ، وهى الأساس الذى

يمكن أن تتبلور حوله كل القـوى التقـدمية التى تشـكل جبهة ديموقراطية سليمة ..

ان حرص الثورة على وجود تنظيم سياسى تقدمى وديموقراطى ، هو حرص منها على تأصيل الثورة وتعميق جذورها الشعبية ... وهو ما يضمن لها الاستقرار والاستمرار .

خامسا : كثير من الثورات تبدأ خطواتها الأولى متأرجحة ومهتزة، ولكن ثورة مايو تتميز بأنها تواجه الواقع فى ثبات ، وترسم خطوات المستقبل ف وضوح لأنها تعتمد على الرصيد النظرى للحركة الثورية السودانية .

ذلك يتضح فى موقفها من مسألة الجنوب التى تحل مشكلة مزمنة، وموقفها من عزل أعداء الثورة وسد الطريق أمام تسربهم الى مركز السلطة ، ووضعها حلولا للمشاكل الاقتصادية ، وحرصها على اعادة تكوين الجيش الوطنى على أسس سليمة فى التسليح والتدريب والتنظيم

هذا دليل على أن ثورة مايو لم تنبت فجأة ، ولم تنفجر كفورة عاطفية ... وانما كان هناك تمهيد فكرى وتنظيمى سابق لها ، أدى الى وجود أبحاث ودراسات لكثير من المشاكل ، أسهم فيها عدد كبير من المثقفين والمفكرين السودانيين .

سادسا : ان ثورة مايو لم تتردد لحظـة فى الاعلان عن وجهها الاشتراكى ، ثقة منها فى هذا الميدان الانسانى ، الذى يحقق أحلام الجماهير اذا أحسن تطبيقه ، ولم تثقل الأخطاء والانحرافات خطاه .

ان التطبيق الاشتراكى هو الدماء التى تتدفق فى عروق الثورة .. وكلما كان التطبيق سـليما ومرتبطا بالواقع السودانى ، ازدهرت

حيوية الثورة وانطلقت طاقات الشعب .

وتصريحات قادة ثورة مايو تؤكد انهم علميون لا ينجرفون الى أفكار عاطفية ، ولا ينفرون من فلسفات انسانية عالمية ، ولا يبتعدون شعرة عن أرض السودان أو واقع الشعب السودانى .

ولذلك فان ألفاظ التفاؤل نسمعها فى كل مكان مؤكدة بأن الاشتراكية لن تكون مبدأ مفترى عليه فى السودان ، لأنها تطبق بعقول اشتراكية وأفكار واقعية وأصالة سودانية .

سابعا : تعتبر ثورة مايو تأصيلا للاتجاه الاشتراكى فى الوطن العربى ... الذى يعمل على رفع قبضة الاستغلال عن البشر ، ومنحهم كل الفرص المتاحة للتقدم الاجتماعى .

وبذلك تزداد صلابة الوطن العربى فى مواجهة مؤامرات الامبريالية التى كثيرا ما تجد سبيلا لتتسرب الى الدول التى لا تخضع السلطة فيها الى قيادة ثورية واعية . وثورة مايو تعيد الحيوية من جديد الى شعارنا الخالد « وحدة القوى التقدمية والثورية » .

هذه هى بعض المعانى والدلالات التى أبرزتها ثورة مايو السودانية .. تؤكد أن ظلام النكسة لا يمنع اشراقة الثورة ... وان الاشتراكية فى دولة نامية هى حلم الجماهير المتعطشة الى العدل الاجتماعى وحياة العصر ... وان الجيش الوطنى ينسج أحلامه فورا مع الجماهير الشعبية فى تنظيم سياسى يجعل من عمله العسكرى انتصارا شعبيا له جذوره التى تضمن له الدوام والحيوية والانتصار.

وهكذا نجد فى ثورة السودان تحديا آخر للنكسة ولمحاولات الأمبريالية بتحطيم كل ما هو تقدمى ومشرق وأصيل فى الوطن العربى

تلال المشاكل

يخطىء من يتصور أن وصول الثورة الى الحكم يعنى اختفاء كل الأخطاء والانحرافات بلمسة سحرية ، وفتح صفحة جديدة ناصعة البياض ..

الثورات فى شهورها الأولى تكون متخمة بالأعباء والمسئوليات ... تحاول جهدها أن تتخلص من قيود الماضى ، لتنطلق بعناصرها وطاقتها الواعية الى الأمام .

وثورة مايو انتصرت بعد فترة طويلة من الردة الرجعية فى البلاد ... وتحركت قواتهـا وليست عنـدها دراسـة كاملة وافية لكل المشاكل .

صحيح ان استراتيجيتها شديدة الوضوح .. وانها أعلنت طبيعتها الديموقراطية الواعية للاشتراكية منذ اللحظة الأولى ، وفصلت بين الرجعية الطائفية والتقليدية وبين جماهير الشعب العاملة والقوى الاشتراكية للمرة الأولى فى تاريخ السودان .

ولكنه صحيح أيضا أن هناك تلالا من المشاكل تحتاج فى مواجهتها الى جهد ودقة .. وشجاعة أيضا .

أولا ــ الثورة المضادة

أخطر ما يواجه الثورة .. أى ثورة .. هى عناصر الثورة المضادة

.. وهى فى السودان واضحة فى رجال الطوائف المستفيدين من استغلال الدين ، وقادة ونواب الأحزاب التقليـــدية الذين جعلوا الحكم مغنما وفائدة وارتبطت مصـــالحهم بالتنمية الرأسمالية ... والتنظيمات الرجعية المساندة لهؤلاء مثل الاخوان المسلمين .

والقوى الرجعية لا تنحصر فى حدود أفراد أو جماعات فقط .. ولكنها فى الحقيقة مصالح مادية اقتصادية واجتماعية ترتكز على قواعد خارجية فى مقدمتها الولايات المتحـــدة ودوائر الاســـتعمار الحديث .. وقواعد داخلية تتمثل فى الهيئات والطبقات التى ذكرتها والتى تعتمد بدورها على رجال الادارة الأهلية وبعض كبار التجار والاداريين والمثقفين الذين أبعدتهم الثورة أو الذين مازالوا يعملون مستخدمين ألوان التمويه .

وقوى الثورة المضادة لا يمكن أن تهدأ أو يصيبها اليأس .

انها تنتهز كل الفرص المتاحة للطعن والاساءة بالكذب والتضليل ... وقد تعرضت ثورة مايو لبعض هذه المحاولات .

حاولوا التشهير بأن الثورة ملحدة ومعادية للدين .. ولكن سرعان ما طاش هذا السهم بعد أن اكتشف بسطاء الناس بأنفسهم ان الثورة تحقق لهم مطالبهم العاجلة فى الماء والتعليم والعمل .

وحاولوا الوقيعة بين مصر والسودان بعد لقاء الثورات الثلاث ٢٣ يوليو ، ٢٥ مايو ، أول سبتمبر ... ولكن مبادرة مجلس قيـــادة الثورة ووزارتى الداخلية والارشاد القومى والهيئات والتنظيمات الشعبية جعل من نجاح هذه المحاولات سرابا صعب المنال .

ولن تتوقف المحاولات عند ذلك .. ولا أريد هنا أن أمضى فى

هذا الحديث الذى يمكن أن يتجدد كل يوم بلهجة وأسلوب آخر .

ثانيا ـ مشكلة الجنوب

أصدرت ثورة مايو بيانا فى ٩ يونيو خاصا بالجنوب ، حدد فيه الحكم الذاتى الاقليمى فى اطار السودان الواحد .

وأيد الجنوبيون ذلك وساروا فى مظاهرة كبيرة يوم ١٥ يونيو تعبر عن تأييدهم .. وكانت زيارة الرئيس جعفر نميرى للجنوب أيضا مظهرا من مظاهر نجاح سياسة ثورة مايو .. وتقرر أن تكون هناك زيارات دورية مستمرة للوزراء والمسئولين .

وأرسلت الحكومة وفدا الى الدول المجاورة لشرح السياسة السودانية الجديدة .. وسافر وفد خاص الى البابا أيضا ...

ونقلت الحكومة بعض ضباط البوليس من الجنوبيين الى هناك ، ومنهم أول جنوبى يشغل وظيفة قومندان بوليس فى مديرية .

واستقبلت الكلية الحربية وكلية الشرطة عددا كبيرا من الجنوبيين.

ومع ذلك فان الجنوب ما زال أبرز مشكلة تواجه الثورة ... وبيان ٩ يونيو لم يحدد شكل الحكم الذاتى ولا الفترة الزمنية المطلوبة لتحقيقه ..

ولكن بيان نميرى الذى أذاعه يوم ٩ يونيو يقول :

« اننا نرى انه من الأهمية بمكان عظيم نمو حركة اشتراكية ديموقراطية فى الجنوب تضع يدها على يد الحركة الثورية على قدم المساواة والأخاء فى سبيل تحقيق أهدافنا التقدمية المشتركة ، ولتتقلد تلك الحركة التقدمية فى الجنوب زمام السلطة فى هذه الرقعة

العزيزة من بلادنا لوقف النشاط الاستعمارى كشرط أسـاسى فى تطبيق المعنى السليم لمبدأ الحكم الذاتى الاقليمى .

« ان النجاح الفعلى فى حل مشكلة الجنوب لا يقتصر آثاره على بناء الوحدة الوطنية السودانية بل تمتد الى النطـاق العـربى . فالسودان الموحد هو تعبير عن التحالف الوثيق بين حركة التحرير الوطنى العربية وشقيقتها الأفريقية » .

ثالثا ــ التنظيم السياسى

يعتبر موضوع التنظيم السياسى أكثر المواضيع التى تجابه ثورة مايو أهمية وحساسية أيضا .. فانه لا يمكن التقليل لحظة من أهمية وجود تنظيم سياسى يوسع قاعدة السلطة التى يتحمل عبئها كله مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء .

والديموقراطية الاشتراكية ترتبط أساسا بوجود تنظيم سياسى صلب تتوفر فيه ديموقراطية وحرية أصيلة .

ولا يخفى أن هناك وجهات نظر مختلفة تتبناها القوى الاشتراكية لا نود أن نتعرض لها هنا بالتفصيل .

نستطيع القول بأن الخلافات التى طرحت للمناقشة فى الصحافة وفى الاجتماعات الشعبية تتلخص فى وجهتى نظر رئيسيتين أولاهما : أن يقوم تنظيم سياسى واحد تندمج فيه كل التنظيمات التى أسهمت فى العمل الثورى قبل الخامس والعشرين من مايو . وثانيهما أن تجمع كل القوى الثورية فى جبهة ديموقراطية تتمثل فيها وجهات النظر المختلفة فى اطار ميثاق كامل لمرحلة الثورة الديموقراطية فى البلاد .

ويميل أصحاب الرأى الأخير الى ضرورة طرح ميثاق الثورة الديموقراطية لجماهير الشعب أولا واجراء مناقشة عامة على النطاق الوطنى حوله ثم تأتى الخطوات التنظيمية لاحقة لهذا العمل الفكرى .

ان الوصول الى حل جماعى مشترك لقضية التنظيم السياسى يرسى أساسا متينا لانطلاق طاقات القوى الثورية ، ويخلق فى الدول النامية المتحررة نموذجا جديدا للعمل السياسى التقدمى .

رابعا ــ مقاومة الانحراف

أشد الطعنات التى وجهت لنظم الحكم السودانى المنهارة سواء حكم الديكتاتورية العسكرية أو الأحزاب التقليدية كانت الفساد والرشوة واستغلال النفوذ .

والشعب السودانى الذى يتميز بالبساطة الشديدة ، يرفض فى غضب محاولات الاستيلاء على جهده وعرقه بالسرقة والرشوة ... وفى السودان كما ذكرت لا تعيش الأسرار فى الظلام .

الأحزاب أفسدت الجهاز الحكومى وحولته الى آلة طيعة لخدمة الوزراء وكبار المسئولين .. كما أفسدت جهاز الخدمة المدنية وحولته الى أداة لقهر الشعب .

وثورة مايو تعمل على بناء جهاز دولة حديث .

ولكن ما زالت هناك عناصر خطرة ومشبوهة فى مستويات عليا ودنيا ، يجب أن تصل اليها يد التطهير حتى توضع الكوادر الثورية ذات المقدرة والكفاءة فى مراكز السلطة والمسئولية .

وفى تقرير أعدته لجنة منبثقة من مجلس قيادة الثورة والوزراء

طالعت هذه الكلمات القيمة :

« نحن فى مرحلة التحول والدعوة لبناء الاشتراكية يجب علينا أن ندعو لقيم المجتمع وتمكنها من الرسوخ والاستقرار .

١ ــ احترام العمل وتقديسه فى كافة المستويات .

٢ ــ المحافظة على أموال الدولة والأموال العامة وحمايتها بشتى الطرق والوسائل وان تضرب العناصر القيادية مثلا فى ذلك .

٣ ــ التحرر من الذاتية والأنانية والأغراض الاجتماعية التى تدور فى فلكها والتفكير والتصرف فى جو من الشعور بالرابطة الاجتماعية.

وكل هذا لايتم ولايمكن للقيم الاشتراكية أن تنمو وترسخ الا :

١ ــ بالقدوة التى تتمثل فى سلوك القــادة والمتصدين لدعوة الجماهير وتعميق مفهوم النقد والنقد الذاتى وان مقياس الاخلاص الثورى هو الأداء المسئول للواجب وليس التظاهر بالسلطة .

٢ ــ ممارسة الديموقراطية أســلوبا لا بديل له وفى جميــع المستويات لنشر القيم الاشتراكية ولاقتلاع القيم الفاســدة وعن طريق الديموقراطية يمكننا كشف كل ماهو بال ومعوق وفتح آفاق جديدة .

٣ ــ أن تقوم أجهزة الارشاد والتربية بدورها فى تعميق المفاهيم والقيم الاشتراكية فان مصيرها يتوقف على ايمان الانسان الفرد بها ، وممارسته لها فى حياته العامة والخاصة . وهذا يحتم على جميع الثوريين والاشتراكيين القيام بهذا الدور فالعمل الثورى لا يقوم به الا ثوريون مؤمنون والاشتراكية لا يعمل لها ويبنيها ويحافظ عليها الا اشتراكيون ..

خامسا ــ الموقف الاقتصادى

تركت الأحزاب التقليدية السودان والاقتصاد يهبط الى الحضيض والمجتمع يشرف على الافلاس والفرد يعانى من الضيق والبطالة معاناة شديدة .

ولا يجوز أن يجرفنا الأمل الى تصور أن حل مشاكل السودان الاقتصادية أمر يسير .. فان الاستعمار قد ترك السودان بلا صناعة ولا طرق للمواصلات ولا مشروعات للرى ولا زراعة متطورة .

كان الاستعمار الجديد يحبس كل أمل فى قفص من القروض ذات الفوائد العالية التى يصرف معظمها فى مشروعات لا تفيد ، ويستهلك جزء كبير منها فى الميزانية الجارية للدولة وفى الصرف الاستهلاكى .

وقد بادرت ثورة مايو باتخاذ عدة خطوات أهمها توسيع وتوطيد العلاقات التجارية والاقتصادية مع الدول العربية والاشتراكية ، ووسعت قاعدة القطاع العام وخاصة فى المجال الصناعى ، وشجعت رأس المال الوطنى ، وغيرت سياستها نحو القروض الأجنبية فاشترطت أن تكون لعمل مدرج فى الخطة وبفوائد محدودة ، ووضع سياسة استيراد لا تنفق فيها العملات الصعبة على السلع الاستهلاكية الترفيهية غير الضرورية .

ولكن طريق الاصلاح الاقتصادى مازال طويلا يحتاج الى بذل جهود ايجابية مضنية . اذ أن القضية الجوهرية ، هى وقف عملية التنمية الرأسمالية البطيئة ودفع البلاد خطوة وراء خطوة فى سبيل التنمية المدنية غير الرأسمالية .

سادسا ــ الخدمات الاجتماعية

وتجابه ثورة مايو أيضا مسئوليات كبيرة من حيث تقديم التعليم، الخدمات الصحية ، والارشادات الزراعية ، والتنمية الدينية لجماهير الشعب الذى مازال يعانى من العطش والجهـل ــ الأميـة ٨٣٪ والمقيدون فى المدارس فوق ١٠ سنوات ٣٨٪ ــ والمرض حيث تكاد تنعدم الخدمات الصحية الضرورية فى أقاليم السودان البعيد .

تلال من المشاكل تعترض طريق ثورة مايو لايجوز لنا مطلقا أن نهون منها أو نعتبر أنها سوف تذوب بحرارة الحماس والاخلاص وحدهما ..

ثورة مايو تحتاج دائما الى دراسات علمية وثورية وكادر ملتزم يقوم على تنفيذ هذه القرارات .

جعفر نميرى ... يتحدث

قابلت الرئيس اللواء جعفر نميرى بالقاهرة أثناء حضوره مؤتمر دول المواجهة واجتماع القمة الثلاثى ــ مصر والسودان وليبيا ــ طرحت كل مايحمله صدرى من أسئلة ، وما يؤرق نفسى من هموم

قابلنى جعفر نميرى فى فترة كان مفروضا الا يلتقى فيها بزائر .. فترة نصحه زملاؤه بأن ينتهزها ليستريح قليلا من عبء العمل . وكنت مع الصديق محمد سليمان سفير السودان فى القاهرة ..

وليست هذه هى المرة الأولى التى يقابلنى فيها جعفر نميرى .. كانت المرة الأولى فى الخرطوم عقب ثورة مايو فى مكتبه بالقيادة العامة مع زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة .

واليوم وبعد حوالى تسعة شهور من الثورة ، واستقرار الأمور فى السودان ، وجدت أن السلطة لم تغير فى الرجل شيئا .. الزوار الذين أقبلوا عليه فتحت لهم الأبواب فى يسر ، وهو فى ثوبه السودانى يحمل نفس الصفات التى تميز بها ، والتى تؤكد معانى الديموقراطية فى البلد الشقيق .

وبعد الاطمئنان على صحته التى كان يتحدث عنها فى بساطة شديدة .. قلت للرئيس جعفر نميرى :

• كانت ثورة ٢٥ مايو أول انطلاقة تحرر فى الوطن العربى بعد النكسة ، تعبيرا عن منطق رفض الهزيمة عند

جماهير الأمة العربية . ما هى النتائج الايجـابية لهذه الثورة بالنسبة لموازين القوى فى الشرق الأوسط ؟

وقال جعفر نميرى :

ــ اذا رجعنا الى مؤتمر القمة العربى الذى عقـد فى أغسطس ١٩٦٧ بالخرطوم وجدنا أن الشعب السودانى قد عبر عن رأيه تعبيرا صادقا أظهر أصالته ، عند مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر .. ان الحكومات السابقة لم تكن تشكل قيادة سياسية للجماهير ، ولهذا فهى لم تقيم مشاعر الشعب تقييما صحيحا حتى تكيف سياستها تبعا لارادته

وظل الشعب صابرا حتى تفجرت ثورة ٢٥ مايو .. التى قامت لتفرج عن مشاعر الشعب المكبوتة ، وتعبر عن ارادته فى مختلف القضايا العربية والافريقية والداخلية ، وأصبحت همسات النـاس هى شعارات الثورة ..

والأثر الأول أو النتيجة الايجابية الأولى لثورة مايو ، هى ظهور قوة تقدمية عربية تلتقى مع ثورة مصر التى كانت تمثـل الدولة التقدمية المحاصرة بالأعداد والقوى الرجعية .

ظلت مصر صامدة بالرغم من جمود الأوضاع فى الدول الافريقية المحيطة . وأنا أعلم أن تهديدات وصلت الى الثورة المصرية من بعض ممثلى الامبريالية العالمية تقول « البحر أمامكم والعدو وراءكم ، ولا سبيل الا الخضوع » .

ولذا كان انفجار ثورة مايو بعثا للأمل فى استمرار مسيرة الثورة المصرية الرائدة .. وقد تبينا ذلك من سرعة تجاوب مصر مع ثورة ٢٥ مايو ..

بعد ساعات من الثورة كنا نسمع تأييدا غير مشروط .. واهتزت قلوبنا ونحن نسمع استعداد جمال عبد الناصر لاعطاء أسبقية لمساندة ثورة مايو قبل أى تحركات فى منطقة القناة .

وهنا أحب أن أؤكد أن مصر لم تكن تعرف شيئا عن القائمين بهذه الثورة أو أهدافها .. ولكن الحس الثورى الصادق لجمال عبد الناصر هو الذى استطاع أن يكشف له من بياناتها الأولى اتجاهها التقدمى الأصيل .

ولا أجد بأسا من ترديد ماقاله لى الرئيس جمال عبد الناصر (ثورة السودان أعطتنى قوة وعزيمة ، ومنحتنى أملا وثقة)

السودان كان ورقة فى أيدى الأعداء .. وبعد ثورة مايو أصبح صديقا وسندا لثورة مصر ، ومزق من حولها الحصار .

وهذه هى النتيجة الايجابية الهامة فى تغيير موازين القوى .. الى جانب أن ثورة السودان قد فرضت على الاستعمار أن يغير سياسته فى افريقيا وخاصة بعد أن انتصرت الثورة التقدمية فى ليبيا والصومال

• وسألت جعفر نميرى عن رأيه فى الأسباب التى أدت الى هذا التجمع السريع بين الثورات الثلاث فى السودان وليبيا ومصر .. وما هى عوامل الجاذبية الحقيقية فى هذا اللقاء المشترك ؟

وقال نميرى ملخصا الركائز التى تقوم عليها أية ثورة بأنها ارادة شعب وقوات مسلحة مؤمنة ومعبرة عن هذه الارادة ، وقيادة مخلصة أمينة ..

والثورات التى تتوفر لها هذه المقومات لابد وأن تتجاذب ..

أما الثورات التى تفتقد بعض هذه العناصر ، فانها تعكس خلافات تمزق الجماهير .

ونحن فى السودان نؤمن بأن قواتنا المسلحة فى خدمة الجماهير وقوى الشعب العاملة ، تماما مثل ثورة مصر الرائدة ، وثورة ليبيا الناهضة .. ومن هنا كان ذلك اللقاء السريع .

أما اذا ابتعدنا عن النظريات . فاننا نجد أشياء تاريخية عريقة تربطنا بمصر .. ان منير وحسين وفاروق وأنا ــ والثلاثة الأوائل هم مديرو مكتبه وسكرتاريته من زملائه الضباط الذين كانوا معه فى المستشفى ــ جميعا لنا أقارب فى مصر .

بل ان حسين كان له أخ فى مصر لم يره الا فى هذه الزيارة .

واذا أضفنا هذه العلاقات الانسانية التاريخية الى المصالح الاقتصادية المشتركة ، والثقافة والعادات المتحدة ، والتكوين الجغرافى المتكامل . وجدنا أنفسنا أمام أمر واقع يفرض علينا ضرورة اللقاء ، مادمنا نؤمن ونعمل من أجل مصلحة الجماهير .

• وقلت لجعفر نميرى : تميزت ثورة مايو منذ اللحظة الأولى بوضوح تفكيرها الاشتراكى العلمى ، وحرصها على عزل القوى الرجعية عن ساحة العمل السياسى . هل يمكن توضيح القوى السياسية التى تعتمد عليها الثورة فى قيادتها للجماهير ؟

وقال جعفر نميرى :

ــ عندما انتصرت ثورة مايو وجدت الوضع القديم قائما على أشباح لا تظهر الا فى الانتخابات فقط ، تعتمدعلىالطائفيةوالعشائرية

والقبلية ، دون أن تكون لها قاعدة سياسية قوية .

كان رجال الأحزاب المنحلة يعتمدون على تكتلات قديمة يسيطرون عليها بالوعود البراقة مستغلين مايعانونه من جهل وعطش وجوع .

كانوا يحفرون لهم مثلا آبارا بلا طلمبات ، ويماطلونهم بالوعود كالسراب ، وأحيانا يوزعون آلات بئر واحدة على عدة آبار حتى لا تعمل واحدة منها ، ويظل الناس مخدرين بالحلم والأمل !

أذكر أنى قابلت واحدا من زعماء منطقة كردفان (قبيلة المسيرية الزرق) يسمى أحمد سيفين من أنصار المهدى أثنـــاء زيارتى لهم وفوجئت به يقول لى :

« لما جاءت ثورتكم كنا منكرين بيك لأن جونا ناس جالوا انتو ملحدين .. وانت لو كنت ملحد ما كنت تجيب لنا مياه .. روح احنا معاك لحد الجبر » .

هكذا كانت تعيش الجماهير فى السودان أسيرة الضغط والاهمال .. وأما ثورة مايو التى أشرت الى وضوح نظرتها الاشتراكية العلمية فانها تعتمد على القوى السياسية صاحبة المصلحة فى بناء المجتمـــع الاشتراكى ، وهى المنظمات والهيئات التىتضم العمال والمزارعين والمثقفين الثوريين والرأسمالية الوطنية التى تنتشر وتعمل بنشـــاط واخلاص فى أرجاء البلاد .

وقد اقتربنا بذلك من قضية التطبيق الاشتراكى فى الدول النامية المتحررة ، حيث تنهج نهجا جديدا .

• سألت جعفر نميرى : هل توجد أى حساسيات ــ من ناحية الفكر ــ بين منطلق التفــكير الاشتراكى فى

السودان ، ومنطلق التفكير الماركسى ؟

وقال جعفر نميرى :

ـ اننا نرتفع بمفهومنا للعمل السياسى فوق كل الحساسيات ، واثقين أن ما نعمله من أجل الشعب السودانى لا يمكن أن يكون منعزلا أو منبتا عن تراثنا وتقاليدنا وعاداتنا .. مؤمنين أيضا بأن الاشتراكية العلمية واحدة ، ولكن تطبيقاتها هى التى تختلف تبعا لظروف كل بلد .

وفى هذا المضمار لا يجوز أن تتغاضى عما صرفه الاستعمار من أموال وما قام به من دعاية مركزة ضد الفكر التقدمى .. موجها الاتهام بالشيوعية لكل وطنى يطالب بالتحرر الوطنى والتقدم والعدالة الاجتماعية ..

وقال جعفر نميرى وهو يبتسم ويشير الى السفير محمد سليمان :

ـ ان هذا الرجل عندما كان عضوا فى الجمعية التأسيسية كتب عدة مقالات مستندا فيها الى آيات الدين والحديث والتاريخ الاسلامى .. ومع ذلك فقد اتهم بالشيوعية لأنه كان يطالب بالتغيير .

وأنا شخصيا وجدت بعد الثورة أن لى ستة كروت فى الادارات المختلفة تتهمنى بذلك أيضا !

هذا ما يدفعنى الى القول بأن ايماننا العميق بالدين الحنيف ورسالته يجب ألا يجعلنا نساق وراء الدعايات الاستعمارية التى تبذر الحساسيات وتخلق التناقضات بين القوى الوطنية التقدمية وأفكار الاشتراكية العلمية .

• وسألت جعفر نميرى : هل ترفعون فى السودان

شعار « الوحدة الوطنية » أم شعار « وحدة القوى الثورية » فى هذه الظروف التى نجابه فيها جميعا ضراوة الامبريالية الأمريكية والصهيونية التوسعية ؟

وقال نميرى :

ــ اذا قلنا « الوحدة الوطنية » فاننا نقصد وحدة القوى الثورية ، ولا يمكن أن نسمح للرجعية بمكان فى صفوفها .. وهذا موقف مبدئى ..

وفى وضوح نحن نقول « وحدة القوى الاشتراكية » .. ونحن نعرفها ونحددها من تجاربنا السياسية ووعى جماهيرنا .. والقوى الرجعية المتخلفة لا تحمل طاقة ثورية تتيح لها النضال ضد الامبريالية ... وانما هى تلعب دور المهادنة والعمالة ولذا فانه ليس لها مكان فى صفوفنا . .

• وقلت للواء جعفر نميرى : اننا على بعد أيام من فصل الربيع وهــذا يقترن فى ذهنى دائمــا بنــدوة الربيع للاشتراكيين العرب التى دعا اليهــا هوارى بومدين فى الجزائر فى أواخر مايو ١٩٦٧ .

كانت هذه الندوة بادرة طيبة ، اجتمعت فيها لأول مرة المدارس الاشتراكية المختلفة .. ودارت فيها مناقشات جادة وألقيت أبحاث هامة ، ولكنها تبددت مع العدوان الذى غير كثيرا من الأفكار .. وأجبر عددا من التنظيمات على مراجعة أيديولوجيتها . ما رأيكم فى موقف الاشتراكيين العرب فى مختلف المدارس ، وأنتم فى مركز القيــادة

والتوجيه فى بلد تقدمى يبنى المجتمع الاشتراكى ؟

وقال جعفر نميرى :

ـ اننى أعتقد أن جانبا من الاشتراكيين فى الدول العربية قد بددوا طاقاتهم فى خلافات جانبية صرفتهم عن قضيتهم الرئيسية ..

كنت أتوقع من الاشتراكيين على اختلاف مدارسهم أن يبذلوا مزيدا من الجهد فى توعية الجماهير للالتفاف حول الاشتراكية ، وتوضيح أخطار الامبريالية والاستعمار الحديث .

ولكنى ألاحظ تهافت بعض الاشتراكيين على السلطة باعتبارها أقرب طريق لنشر الاشتراكية ، وقد نجح هذا فى بعض الدول .

ولكنهم وصلوا ـ مع الأسف ـ الى السلطة وهم غير موحدين فى الأسلوب الذى يسيرون به ، مما انعكس على الجماهير التى تمزقها الخلافات .. وأدى أيضا الى أن تصبح الاشتراكية فى بعض الدول مبدأ مفترى عليه !

وأعتقد أنه يمكن علاج هذه الحالة عن طريق تكرار عقد هذه الندوة التى جمعت صفوة الاشتراكيين فى الجزائر بصفة دورية .. وصولا الى وحدة القوى الثورية والتقدمية .

ومن المفيد أيضا تبادل الزيارات بين أعضاء نقابات العمال والمزارعين فى المستويات القاعدية وليس القيادية وحدها .. اننا نريد إلتحام القوى صاحبة المصلحة الحقيقية فى الاشتراكية على اتساع الوطن العربى ..

وأحب أن أطمئنك الى أن ندوة الجزائر لن تكون « بيضة ديك » ولكن ندوة ثانية ستعقد هذا الربيع أيضا خلال شهر مارس فى

وقال الرئيس نميرى :

ــ نحن نصر وتتمسك بأن يكون لنا دور فعال فى المنطقة الافريقية باعتباره تقديرا للعرب ونصرا لهم .. خاصة بعد ماقام به الاستعمار من حصار للثقافة العربية حال دون انتشارها فى افريقيا .

وقد بدأت تعود ثقة الدول الافريقية بالسودان مرة أخرى ، وخاصة بعد عدة مواقف ايجابية اتخذناها منها .

أولا : وضعنا فى ميزانية الدولة جانبا خاصا لتحرير الدول الافريقية .

ثانيا : دفعنا متأخرات السودان التى لم تدفعها الحكومات السابقة فى منظمة الوحدة الافريقية .

ثالثا : قررنا زيادة معاملاتنا التجارية مع الدول الافريقية ، حتى ولو لم تحقق لنا كسبا ماديا .

اننا نهدف الى مقاومة التسلل الاسرائيلى ــ الامريكى فى افريقيا .

يكفى أن تعرف أن ١٣ دولة افريقية شاركت فى هذا المؤتمر ، وكان طلبها المشترك هو فتح مكاتب لتعليم اللغة العربية فيها باعتبارها من لغات افريقيا الحية .

وقد تأكد حكام افريقيا بأن كل حديث عن اضطهاد فى الجنوب خاطىء ، لأن المظاهرات التى استقبلتهم فى الخرطوم كان جانب كبير منها من أبناء الجنوب .. وقد ساعد هذا الوضوح فى ازالة بعض الأوهام التى أحاط الاستعمار بها جنوب السودان .

وتبين لنا أيضا أنه لا توجد مساعدات من هذه الدول للمتمردين ولكنها تأتى من الخارج عن طريق التبشير ومساعدة المتمردين من

شعبى وادى النيل أن يحقق بعض الانجازات فى هـذا السبيل ؟

وغلبت الحماسة على صوت نميرى وهو يؤكد :

ـ مصر لم تبخل علينا بشىء .. وشركة « ريجوا » مثلا حفرت أكثر من ١٠٠ بئر قبل أن ندفع لها مليما من الحساب .. واقترحت انشاء شركة سودانية مصرية لتوسيع العمل .. وسيصل السودان ٤٧ خبيرا زراعيا مصريا .. ويحضر للقاهرة ٢٠٠ خبير سودانى لدعم التعاون الزراعى بين البلدين

وسحبنا الحديث عن التعاون بين البلدين الى الحديث عن المشروعات الكبرى المنتظرة ، وتبينت أن الاتحاد السوفييتى يقوم بتنفيذ مشروع « الرهد » لاصلاح ٣ ملايين فدان ، وانه يقدم المساعدات والخبراء ، وقد أصر على أن يتم المشروع بأيد سودانية .

وقد قال اللواء نميرى ان تكاليف المتر المكعب فى بعض المشروعات كان قد حدد بمعرفة البنك الدولى بمبلغ ٣٥ قرشا ، وبعد الدراسات السوفيتية تبين أن تكاليفه لن تتجاوز ستة قروش !

• وقلت للرئيس نميرى : يبدو أن التاريخ قد طوى نهائيا وصف سيكوتورى للسودان فى فترة حكم عبود بأنه « رجل افريقيا المريض » ، بعد اندلاع ثورة أكتوبر ١٩٦٤ ، وتثبيت أهدافها وانطلاقها الى رحلة جديدة بثورة مايو ١٩٦٩ .. وقد اجتمع خلال شهر يناير فى الخرطوم مؤتمر قمة لدول شرق ووسط افريقيا . ما هى فى رأيكم أهم النتائج التى حققها هذا المؤتمر ؟

الخرطوم ... وقد كلف مجلس قيادة الثورة وزارة الشباب باتمام اجراءاتها التنظيمية والادارية .

• ولما كنت أحد المتابعين فى اهتمام شديد لرحلات الرئيس نميرى فى الريف والمناطق النائية فى السودان . أقرأ خطبه وكلماته الثورية ، فقد سألته عن الهدف من هذه الزيارات التى يبذل فيها جهدا يحسده عليه الشباب.

وابتسم جعفر نميرى وبدا فى عينيه أنه يستعرض شريط هذه الرحلات ثم قال :

ـ بعض المثقفين فى السودان غرقوا فى الآحاديث النظرية ، وابتعدوا عن الواقع العلمى ، لأنهم لا يذهبون الى أماكن التطبيق . وهذا مايجعلنى أخرج للريف لسببين :

أولا : حتى يرى المثقفون المرافقون لى بأنفسهم حقيقة واقعنا ويقدروا على الطبيعة صعوبات التنفيذ ويعيشوا واقع الناس الذى يثرى أفكارهم .

ثانيا : حتى يشعر أهل الريف بأنه توجد سلطة تسأل عنهم وترعاهم ولا تضللهم كما كانت تفعل الحكومات السابقة .

وفى هذه الزيارات تحل بعض المشاكل العاجلة فورا ، وبعد العودة للخرطوم تتحول الدراسات النظرية الى تطبيقية .

كذلك فاننا نعطى للسلطات المحلية صلاحيات لا مركزية ، ونمنح بعض الذين يقومون بأعمال خارقة للعادة مكافآت مجزية .. مثل المدرسين الذين رأيتهم يعقدون دروس محو أمية بلا مقابل .

• وسألت نميرى : وهل يمكن التعاون الأخوى بين

خلف ظهر الحكومات .. وفى بعض الدول المجاورة توجد منـــاطق خاصة للكنائس الكاثوليكية يمكن أن تهبط فيها الطائرات !

• وقلت للرئيس نميرى : ان ثورة مايو قد امتلكت من الشجاعة ما جعلها تعلن الحكم الذاتى لجنوب السودان منذ اللحظة الأولى .. فهل تعتبرون الموقف فى الجنوب اليوم أفضل وأكثر استقرارا منه بالأمس ؟

وقال نميرى صراحة :

ــ حدث تغيير ولكنه بطىء .. والآن يوجد اطمئنان ولا تقع حوادث تقريبا ، ونحن نسعى لوضع سياسة تنمية ، وقد أقمنا بعض صناعات للنسيج والأخشاب وتعليب الفواكه ومشروعات زراعة الأرز

ان ما نطلبه هو خلق مجتمع اشتراكى فى الجنوب يحمل مسئولية الحكم الذاتى الاقليمى .

وكان طبيعيا أن ينتقل بنا الحديث الى مؤتمر دول المواجهة الذى حضرته السودان رغم عدم وجود حدود مشتركة بينها وبين اسرائيل .. وموقف السودان من قضية العدوان وحقوق شعب فلسطين واضح تماما .. وجنوده منذ النكسة يسهمون بدورهم فى خط المواجهة على القناة .. ولكنى أردت أن أسأل الرئيس نميرى عن موقف الثـــورة السودانية فى السودان من القضية فى شمولها .

وقال الرئيس نميرى ــ معبرا عن رأيه الشخصى على حد قوله :

يجب ألا نهرب من الواقع القائم ، وهو وجود أكثر من مليـــونى يهودى فى المنطقة .. ونحن لا نطلب قتلهم أو القاءهم فى البحر .. كما أننا لا نطلب منهم أن يتحولوا الى لاجئين مشردين .. لأننـــا

نعرف عمق مأساة اللاجئين .

ولكننا نطلب أن تقوم فى فلسطين دولة ديموقراطية عصرية تكون لها حكومة تقدمية واحدة .. واختلاف القوميات لا يقف سدا أمام تكوين دولة فى هذا العصر .

اننا نرفض الصهيونية باعتبارها ايديولوجية رجعية وتنظيما متعاونا مع الامبريالية الأمريكية له أهداف توسعية .. ولكننا لانرفض اليهود الموجودين فى فلسطين .

اننا نعتبر الصهيونية الممثلة فى حكومة اسرائيل تعمل على خلق التوتر والقلق فى المنطقة ، واشعال الحروب والقضاء على السلام ، ومحاولة اسقاط النظم الوطنية التقدمية لاعادة سيطرة الامبريالية والاستعمار الحديث . بل اننا على ثقة من أنها تعمل ضد مصلحة جماهير السكان فى اسرائيل أنفسهم .

ولذا فان على اسرائيل أن تنسحب قبل أن تتعرض المنطقة لخطر انفجار حرب كبيرة قد تهدد السلام العالمى .. لأننا نحن العرب لن نذعن للعدوان ولو بذلنا آخر قطرة من الدماء .

آخر صورة من السودان

وبعد أيام من هذا الحديث ، ذهبت الى الخرطوم استكمل الصورة قبل أن يصدر هذا الكتاب ..

ويبدو أن العمل السياسى لا يركن الى الهدوء فى السودان .. تصورت أنى فى هذه الزيارة لن أشاهد فىالخرطوم ما شاهدته أثناء ثورة أكتوبر ١٩٦٤ . أو خلال انعقاد مؤتمر القمة . أو فى اللحظات الحاسمة والأيام الأولى لثورة مايو .

ولكنى منذ اللحظة الأولى فى المطار . تبينت أنى كنت واهما . وان حيوية العمل السياسى فى قمتها تتدفق فى أرجاء المجتمع الكبير .. وتجـذب اليها جماهير الشعب السودانى الذى يتناول السياسة فى أحاديثه وسهراته ، كما يتناول الخبز اليومى .

ما أن استقرت عجلات الطائرة على أرض المطار . حتى انفجرت عاصفة من التصفيق والهتاف . وتلفت حولى أبحث عن القـادمين الذين وقفت هذه الصفوف فى انتظارهم ترحب بهم .. ورأيت عند سلم الطائرة الشفيع أحمد الشيخ ومعه مندوبو اتحاد نقابات العمال السودانى . يستقبلون وفد عمال فيتنام .. ويتحرك الجميع الى قاعة كبار الضيوف .

وقال لى الشفيع سـكرتير اتحاد نقـابات عمال السودان انهم يستعدون لانعقاد المكتب التنفيذى لاتحـاد نقابات العمال العالمى

ورأيت وفودا من مختلف أنحاء العالم تجتمع فى فندق « الجراند أوتيل » .

والاتحاد العام لنقابات العمال فى السودان هو أحد هذه التنظيمات المناضلة التى تعبىء قوة اجتماعية هائلة ، تساند اليوم ثورة مايو مساندة أصيلة .

وخلال الأيام التى أمضيتها فى الخرطوم كان الاتحاد يعيش أياما زاهرة .. المكتب التنفيذى لاتحاد النقابات العالمى يعقد اجتماعه هناك لأول مرة فى تاريخه خارج أوروبا .. وكان هذا انتصارا كبيرا لثورة السودان ... حيث احتشد ممثلو عشرات الملايين من العمـال فى الغرب والشرق . ليشهدوا بأنفسهم الدعم الشعبى الكبير لثورة اشتراكية جديدة فى دولة هى قلب افريقيا .

وفى جلسة الافتتاح دخل الرئيس جعفر نميرى بخطوات نشطة يقفز سلم المنصة الرئيسـية ليحيى القـاعة التى التهبت بالتصفيق ويجلس بين رئيس الاتحاد العالمى من أمريكا اللاتينية وسكرتيره العام الفرنسى .. ومعهم الشفيع أحمد الشيخ ..

وفى القاعة كان يجلس أعضاء مجلس الثورة والوزراء يستمعون مع الجميع الى خطبة رائعة للرئيس نميرى تؤكد ثوريته ووضـوح فكره التقدمى واصالة اقتناعه بالدور الرائد للقوى العاملة .

وارتجت القاعة بتصفيق متواصل لمدة دقائق والجميع وقوف .وهم يسمعون رئيس جمهورية السودان يهتف بحياة اتحاد نقابات العمال العالمى . واتحاد نقابات عمال السودان .

والاتحاد العالمى يضم ثمانية اتحادات عربية . ليس من بينها اتحاد

الجمهورية العربية المتحدة .. وأعتقد مخلصا أن غيابه عن هذه الأيام الحافلة لم يكن فى مصلحة الطبقة العاملة المصرية . كما أنه كان محل تساؤل كبير من الذين يؤمنون بفكر الثورة المصرية التقدمى .

وما أظن أننا نجنى ثمرة واحدة من الوقوف خارج هذا الاتحاد العالمى الذى يساند قضية الحق العربى مساندة واضحة أكيدة .. ولا أعتقد أن هناك سببا واحدا مقنعا يفرض الحذر على حركتنا الى هذه الساحة العالمية التى تموج بالنشاط والحيوية .

قال لى مندوب اتحاد العمال الايطالى ونحن نترقب مظـاهرة العمال فى شرفة الجراند أوتيل أنه لم يتوقع كل هذه الحفاوة من الشعب السودانى . وان خطاب الرئيس نميرى كان تتويجا لنضال الطبقة العاملة .. وقطع علينا الحديث صوت الهتافات وهى تقترب .. عمال فى ملابسهم الوطنية أو الزرقاء يرفعون فوق رءوسهم غابة من الأعلام . ويرددون شعارات ثورية .. والموكب طويل طويل .. يمتد الى مدى البصر .

وتذكرت مظاهرات اكتوبر .. ومظاهرات العمال يوم ٢ يونيـو بعد أسبوع من الثورة .. وزادت ثقتى بأن الطبقة العاملة السودانية هى الرصيد الأكبر لثورة مايو ، والضمان الأعظم لاستمرار انتصاراتها .

وزاد اقتناعى أيضا بأن العمل السياسى فى السودان لايمكن أن يركن الى الهدوء .. مادامت تحتضنه الجماهير .. ومادامت طاقاته تنطلق فى رحاب الشعب .

وكلمات جعفر نميرى فى قاعة الشعب أمام ممثلى عمال العـالم تظهر رأيه واضحا فى قضية قوى الشعب العاملة اذ يقول :

ـ ان العاملين فى بلادنا لا تشغلهم مطالب طبقتهم فحسب ، بل يتصدون لكل قضايا البلاد جاعلين من أنفسهم فرقة طليعية من فرق الثورة السودانية وقد وجدت ثورة مايو منذ يومها الأول فى الحركة النقابية سندا قويا ومناضلا يقف صفا واحدا خلفها يشد من أزرها ويقفل الطريق أمام أعدائها .

وليست حفاوة الثورة السودانية باتحاد النقابات العالمى هى المظهر الوحيد لانفتاحها على الهيئات والتنظيمات الدولية والديموقراطية منذ أسابيع انعقد هناك مجلس السلام العالمى لأول مرة فى تاريخه خارج أوربا .. وأنشأ مكتبا دائما له فى الخرطوم .. وهو المكتب الثانى له فى العالم بعد مكتب هلسنكى .

وقدم مجلس السلام العالمى ميدالية « جوليو كورى » أعلى أوسمته الى الرئيس نميرى كما قدمت ثورة مايو وساما رفيعا الى المجلس تسلمه بطل السلام الهندى « روميش شاندرا » السكرتير العام للمجلس .

وعادت بى الذاكرة الى أيام الحكم قبل أكتوبر . عندما كان نشاط السلام محرما . واتحاد نقابات عمال السودان محظورا .. وآمنت أن تغييرا جذريا قد حدث فى المجتمع السودانى .

والنشاط الحاضر ليس مقطوع الصلة بالماضى ولكنه استمرار لنضال طويل وتضحيات كبيرة حمل مسئوليتها رجال فى الجيش ورجال خارج الجيش .

وأعتقد أن صفحات الكتاب قد أوضحت الدور الذى لعبه الضباط الأحرار فى سنوات ماقبل الثورة ضد الرجعية التقليدية

التى أجهضت ثورة اكتوبر . واستولت على الحكم عن طـريق ديمقراطية ليبرالية مزيفة .

ولكنى أقف عند لحظة وفاء .. عندما توجه اللواء نميرى ومعه بعض أعضاء مجلس الثورة الى منزل الشهيد الطيار صادق محمد الحسن فى واد مدنى حيث زار أرملة الفقيد وأسرته .

وجعفر نميرى لم يزر فقط منزل زميله الضابط الشهيد ولـكنه وقف فى خشوع أيضا أمام قبر صغير فى احدى قرى الجزيرة يضم رفات أحد شهداء ثورة أكتوبر .

ومن أهم مايلفت النظر فى سودان اليوم ، الصلة الانسانية العميقة التى تربط جعفر نميرى ورفاقه بجماهير الشعب البسيطة التى طالت معاناتها واستبدت بها المأساة .

زاد اقتناعى فى السودان بأن « الانسانية والاشتراكية » خيطان فى نسيج واحد .. وما أظن أحدا يختلف حول « انسانية » الاشتراكية كنظرية وعلم للثورة والتغيير الاجتماعى . ولكننا أحيانا نحتاج الى الاطمئنان لذلك خلال مرحلة التطبيق والبناء .

والتطور الاجتماعى لابد وأن يحمل معه سعادة واستقرارا لأغلبية الشعب التى طال اضطهادها والكسب من عرقها خلال أجيال طويلة .

واذا كانت قوى الامبريالية والاستعمار لاتترك فرصة للاساءة الى التطبيق الاشتراكى فى أية دولة الا واتتهزتها خلال دعاية مسمومة تصرف عليها الملايين .. فان الارتفاع العام التدريجى لمستوى معيشة الجماهير فى هذه الدول يحمل أبلغ جواب .. ولا تجد هذه الدعاية عقولا تخاطبها الا الذين قلمت الاشتراكية أظافرهم ونزعت أنيابهم .

وثورة مايو أعلنت الاشتراكية منذ لحظتها الأولى وربطت مصيرها بنجاح التطبيق .. ولم تجعل كلمة « الاشتراكية » سلعة تجارية تحاول أن تربح بها جانبا من الرأى العام ، كما فعلت الأحـزاب التقليدية التى أجهضت ثورة أكتوبر .

لم تعد « الاشتراكية » ستارا للتمويه والاختفاء .. ولكنها أصبحت نظرية ثوار مايو ، والعلم الذى يستندون اليه فى عملية تغيير المجتمع والنهوض به .

والمجتمع السودانى ذو طبيعة فريدة .. الصراع الطبقى فيه واضح وحاد .. ولكن العلاقات بين الناس لاتتحدد بالرأى والفكر .. وكثيرا مايجتمع فى سهرة واحدة اصحاب النظريات والاراء المتعارضـة يسهرون معا .. ثم يشرعون أقلامهم لتبادل الاتهامات مع نور الصباح

ويتميز المجتمع السودانى أيضا بالبسـاطة والديموقراطيـة .. المناصب لا تقيد أصحابها بمظـاهر خادعـة .. والأبواب ليست موصدة .. والناس لا تنتظر شهورا من أجل موعد . أو تعجز عن مقابلة مسئول .

وينفرد الشعب السودانى برغبة شديدة فى مناقشة السـياسة ومتابعتها .. الأمر الذى رفع مستوى الثقافة السياسية بين أبنائه بصفة عامة .

وفى هذا المجتمع الذى لايملك الانسان نفسه من الاعجاب به تشق ثورة مايو طريقها .

وحكم الأحزاب التقليدية المرتبطة بالرجعية الطائفية ترك الخزائن خاوية .. لم تكن هناك مبالغ كافية لصرف مرتبات الموظفين .. وكثيرا

ما تأخر الصرف أياما بعد أول كل شهر ؟

واجه ثوار مايو هذا الموقف بنشاط شديد ، يلحظه المراقب فى كثرة تحركات أعضاء مجلس الثورة والوزراء الى مختلف الدول لعقد الاتفاقيات واستيراد الخبرات .

ويلتقى مع هذه الحركة النشطة الى الخارج .. حركة أشد نشاطا الى الداخل .

وكلما وجد الرئيس جعفر نميرى وقته ــ فى الخرطوم ــ خاليا من الارتباطات والمقابلات الرسمية تحرك مع قافلة من المسئولين الى مناطق السودان المختلفة والنائية .

بعض هذه المناطق لم يشهد فى تاريخه وزيرا أو مسئولا .. ومن هنا تصبح زيارة رئيس الجمهورية ومعه عدد من أعضـــاء مجلسى الثورة والوزراء حدثا تاريخيا .

زار نميرى خلال شهور مابعد الثورة كل مناطق السودان .. وهو يتحرك اليها ــ فى رأيى ــ بدافع انسانى .

أثناء خدمته فى الجيش ، عاش فى هذه الأقاليم مبعدا عن العاصمة .. ولأنه نشأ فى أسرة شعبية تولد فى نفسه الحرص الشديد على رفع قبضة الاستغلال عن هؤلاء الذين تشكل حياتهم مأساة هذا العصر .. ولأنه يفكر علميا فهو لا يريد أن يفصل النظرية عن التطبيق ، ولايريد أن يكون التخطيط أحلاما بعيدة عن الواقع .

وجعفر نميرى لا يسمح لحياة الخرطوم أن تسحبه ورفاقه بعيدا عن حياة شعبه .. وما أن سافر تيتو حتى كان جعفر نميرى يستعد لرحلة يزور فيها كردفان للمرة الثانية .

وفى السابعة صباحا وصل جعفر نميرى ، وانتقل من عربته الى عربة « لاندروفر » .. وتحركت قافلة تضم هاشم العطا وأبو القاسم ابراهيم وأبو القاسم هاشم وزين العابدين ابراهيم من مجلس قيادة الثورة والوزراء فاروق أبو عيسى ومرتضى أحمد ابراهيم ومبارك سنادة وابيل البروعلى التوم، وعدد من كبار المسئولين فى الوزارات المختلفة

الطريق من الخرطوم الى واد مدنى هو الطريق ـ الوحيد ـ المرصوف الذى يربط بين المدن الكبيرة فى مختلف أنحاء السودان .. خرج الاستعمار مخلفا وراءه طرقا من تراب ، تجعل تجمع الشعب والتقاءه أمرا عسيرا ، وتترك الجماهير أسيرة للتقاليد القبلية والطائفية.

والمسافة بين الخرطوم وواد مدنى حوالى ١٨٠ كيلومترا تقطعها العربة فى ساعتين تقريبا .

ونظرت الى ساعتى .. توقعت أن نكون فى حوالى العاشرة تقريبا ، واضعا فى ذهنى أن سرعة عربات « اللاندروفر » أقل من سرعة العربات الخاصة .

وقلت لفاروق أبو عيسى ومبارك سنادة وصلاح مازن وكيل وزارة الاسكان الذين زاملتهم فى العربة عن الموعد المحتمل لوصولنا

وابتسم الجميع .. وقال فاروق :

ـ انتظر .. ان رحلات الرئيس ذات طابع خاص .

ولم تكد تمضى دقائق حتى هدأت العربات من سيرها ثم توقفت تماما .. ووقف جعفر نميرى يحيى جماهير احدى القرى الذين احتشدوا على جانبى الطريق .

وفجأة ذبح أحد المزارعين خروفا .. وهذا من تقاليد السودانيين

عند الترحيب بالضيوف .

وامتدت الأيدى تطلب مصافحة قائد الثورة ورفاقه ولم يتردد نميرى لحظة فى مصافحة الأيدى التى لم تلمس من قبل يد مسئول !

والطريق الى واد مدنى يمتد عبر الجزيرة ..أغنى مناطق السودان ، حيث يزرع القطن والقمــح والخضروات .. وتزرع الأرض عاما وتستريح عامين .. الأرض كثيرة والمساحات الزراعية شاسعة ، ولكن المشروعات التى تتيح زرع الأرض بصفة دائمة مازالت محدودة بل معدومة .

ومشروعات استصلاح الأرض فى السودان لا تتكلف كثيرا ،ولكن الاستعمار لم يفكر فى تنفيذها وآثر تعطيلها حتى يظــل المزارع السودانى فى فقره وتخلفه .

الجماهير تهتف : « للزراع .. مايو » « للعمــال .. مايو » . « للتعليم . مايو » .. مسئوليات كبيرة تتحملها ثورة مايو ، ولكن النبت المخلص فى أرض السودان ، سرعان ماينضج ويثمر

وتكررت هذه الوقفة القصيرة عشرات المرات . احترم رجــال الثورة شعور المواطنين الذين غادروا دورهم ووقفوا على جانبى الطريق ، مهما كان عددهم محدودا .. لم تنطلق العربات فى سرعتها ، وانما كانت تهدىء من سيرها أو تتوقف .. وجعفر نميرى ورفاقه لا يستقرون على مقاعدهم ، وانما يقفون على حافة العربة ، أو يقفزون الى سطحها

كان واضحا أن جميع سكان قرى الجزيرة المجاورة للطريق قد خرجوا لاستقبال موكب الثورة .. لم أشهد أحدا بعيدا عن المستقبلين

الدور أفرغت جميع سكانها وأصبحت خالية .

ولم أشهد شرطيا واحدا بين المزارعين السودانيين .. كانت هناك عربة شرطة تلهث خلف الموكب ، وينزل منها الجنود ليجدوا أن رجال الثورة والوزراء وسط الناس تماما .

ظاهرة أخرى أحب أن أقف عندها طويلا

الناس لم تتحرك حركة عفوية تلقائية .. كان دور الاتحادات الجماهيرية واضحا فى نظام الاستقبال .. فى الشعارات .. فى خطب ممثلى المزارعين . فى هذه القدرة الهائلة على تجميع الناس .

والاتحادات الرئيسية للمزارعين والشباب والعمال والنساء كانت واضحة الأثر فى كل قرية .

ونحن نعتبر الجزيرة أغنى مناطق السودان .. ويظهر ذلك جليا فى ملابس المزارعين البيضاء النظيفة .. وملابس النساء الملونة .. وملابس أطفال المدارس ذات الزى الموحد .. ولن تجد رجلا حافى القدمين أو امرأة بلا حذاء .

المستوى الاجتماعى مرتفع فى هذه المنطقة عن بقية مناطق السودان

وفى البلاد التى توقف فيها الركب وأقيم سرادق صغير ليحمى الضيوف من حرارة الشمس ، كان جعفر نميرى يقدم زملاءه أعضاء مجلس الثورة والوزراء ليتحدثوا الى الجماهير كل بدوره .. واحد فى كل وقفة .

هاشم العطا يصارحهم بقوله انهم فى بداية رحلة الى كردفان وسيعودون الى الجزيرة مرة ثانية فى زيارة طويلة ، ليصارحوا أهلها بمأساة الناس فى الأقاليم الأخرى ، ويتدارسوا جميعا مشاكل الشعب

فى كل مكان لتحديد أسبقيات التنمية .

لاحظت أن أسلوب الخديعة بالوعود قد انتهى ، وبدأ عهد التخطيط العلمى ، والمصارحة بالحقيقة ، واشراك الناس فى المسئولية

عندما كان جعفر نميرى يتجه الى اللنش ، ليعبر به النيل الأزرق عائدا من مدرسته « حنتوب » الى واد مدنى ، سمع البعض يهتف :
« عاوزين كوبرى »

والكوبرى يبدو أنه ضرورة فعلا لربط منطقة المدرسة بالمدينة .. ولكن نميرى لم يبذل وعدا فى الهواء .. ولكنه قال بصوت واضح :

ـ كل شىء يخضع للتخطيط .. وهناك أسبقية فى مشاريع الانتاج

احساس الثورة العميق بأن مأساة أشد قسوة تستقر فى أقاليم السودان البعيدة ، حيث العرى فى الجنوب ، والعطش فى الغرب ، جعل رجالها لا يتورطون فى وعود تعذب الناس من الانتظار ، كما اعتاد رجال الأحزاب التقليدية أن يتلاعبوا بعواطفهم وآمالهم ، للحصول على أصواتهم فى الانتخابات

الرحلة مازالت مستمرة .. الساعة تجاوزت الثانية عشرة .. وجوه الناس مشرقة بابتسامة ترحيب .. العجائز من الرجال والنساء يهتفون وقبضاتهم فى الهواء ، والأطفال أيضا بأصوات رقيقة كالعصافير

البعض يضرب الطبول .. ورجال يرقصون فى مرح ونشاط . النغمة راقصة تختلف عن نغمة طبول ليلة ٩ نوفمبر ١٩٦٤ عندما خرج شعب الخرطوم فى الشوارع يحمى ثورته بعدما سمع فى الاذاعة أن ثورته فى خطر .

مازالت الطبول تؤدى دورها فى السودان ... عند الخطر ،

ساعة كاملة من مشارف المدينة الى الميدان الذى عقدت فيه الليلة السياسية .

وبعد احدى عشرة ساعة فى عربة من الصفيح الساخن نزلنا الى هذا السرادق ، وجلسنا فوق المنصة لتبدأ صفحة جديدة من صفحات الرحلة .

والتفت لى الرئيس جعفر نميرى يسألنى :

ــ كيف الصحة ؟

وقلت صادقا :

ــ أشعر كأنى عدت شابا يتفجر حيوية .

والليالى السياسية مظهر من مظاهر الحيوية فى المجتمع السودانى .. يطرب الجمهور لها ويحتشد ، وما يدور فيها يصبح حديث الناس فى كل مكان .

وفى رحلتنا ، وصلنا الى الميدان الذى احتشدت فيه الجماهير بعد رحلة احدى عشرة ساعة متصلة .. بعد حمام شامل من التراب .

كان حلم الجميع أن يضعوا رءوسهم تحت صنبور ماء بارد ، يزيل التراب وينعش الجسم وكان مفروضا أن تتجه القافلة الى احدى الاستراحات لتمضية بعض الوقت قبل ملاقاة الجماهير .. ولكن الرئيس نميرى أصر على الذهاب فورا لأنه لا يريد أن يترك الشعب فى انتظار طويل .

وما أكثر القضايا التى أثيرت فى هذه الليلة السياسية وما أشد تنوعها ..

والصراحة المطلقة علامة بارزة من علامات المجتمع السودانى أيضا

رجال الأمن أن يلحقوا به .

ولمح فاروق أبو عيسى نظرة تساؤل فى عينى ، فقال وهو يمضى هو الآخر بين الجموع ليلحق بالرئيس :

ــ الشعب هو الدرع الحقيقى للثورة ، والجماهير تقدر مسئولية الأمن كما تقدرها الشرطة .

وفى احدى المدارس قدموا طعام الغذاء ، مائدة الرئيس يجلس عليها بعض الأهالى من غير بروتوكول أو تقييم .. ووزراء لا يجدون مكانا ، فيتجهون الى قاعة جانبية يأكلون مع السائقين .. فى بساطة شديدة غير مفتعلة .

هذه « الظاهرة السودانية » تستقر فى قلب الانسان كمظهر رائع من مظاهر ديموقراطية الثورة الاشتراكية .. وتبعث فى النفس اليقين بأن الثوار الأحرار هم الذين يشاركون الشعب حياته الطبيعية بلا تكلف .

الشمس تميل نحو الغروب ، ورجال الحرس يحرصون على الوصول الى واد مدنى قبل الظلام ، ولكن جعفر نميرى لا يريد أن يترك قوما بلا تحية .

والقافلة أصبحت تمضى فى بحر من تراب .. شعر الجميع أصبح رماديا ، وأهداب العيون أيضا .. ولكن أحدا لايبدو عليه التعب ..

وبعد عشر ساعات كاملة وصلت القافلة الى مشارف واد مدنى .. وكان شيئا مذهلا أن تجد المدينة وكأنها نفضت سكانها الى الشوارع ، حتى أصبح متعذرا على العربات أن تسير الا بسرعة المشى ..

وعند المرح .

الجو يفيض بالأخوة والصداقة والالفة .. أعضاء مجلس الثورة يأخذهم الزحام بعيدا عن العربات ، وبعض الوزراء يلتقون مع أصدقاء قدامى يضحكون ويمرحون .

وجعفر نميرى لا يسير فى خطوات رجل يشرف على الأربعين .. ولكنه يتحرك فى نشاط شديد ، يصبح فوق العربة فى قفزة واحدة .. يده لا تستقر فى جنبه ، يلوح بها للناس الذين خرجوا يهتفون له

والناس فى شوق لملاقاة قافلة رئيس الجمهورية . وكل قرية أو مركز أعدت دراسة عن مطالبها . وصدور رجال الثورة والوزراء مفتوحة لاستقبال هذه المطالب .. البعض منها يصدر الأمر بتنفيذه .. والبعض منها يؤخذ لدراسات الخطة ..

ولا تمضى القافلة فى الطريق المعبد وحده .. تتجه الى طرف من تراب .. وتتأرجح مع المطبات الشديدة .. ويقول لى صحفى من ألمانيا الديموقراطية كان واضح النشاط هو وزميلة أخرى فى تصوير الرحلة لتليفزيون برلين :

ـ ان حركة رجال الثورة السودانية تبهرنى .. يبدو لى أن مايلاقونه من جهد ، يشحن قلوبهم بالعزيمة للارتفاع بالجماهير الى حياة العصر .. هذه أعظم فرصة أتيحت لى على الطبيعة لتصوير هذا الحشد الهائل من البشر .

وكنا نقترب من « الحصاحيصا » وأصبح سير العربات متعذرا بل مستحيلا ، سد هائل من البشر وأصوات تملأ السماء .. وفجأة قفز نميرى من عربته فى بساطة ليمضى بين الجموع . وتعذر على

.. الآراء واضحة ومحددة . والكلمات لا تضيع عادة بألوان التمويه ، والرجل البسيط يعلن رأيه فى مواجهة المسئول الكبير دون خشية .

وأثناء الطريق لاحظت أن رجلا قد اقترب من عربتنا وهمس للوزراء قائلا إن العمال والمزارعين والنساء قد احتشدوا بعيدا عن مدخل المدينة لأن محافظها لم يشرك فى لجنة الاستقبال ممثلى الاتحادات ، واكتفى بالأعيان والتجار !

وأراد هؤلاء أن يعبروا عن موقفهم .. فكان استقبالهم للرئيس ورفاقه أكثر حماسة وحرارة .

وتصورت أن هذا النوع من الاحتجاج السلمى قد وضع نهاية للخلاف .. ولكن ممثل العمال أبى الا أن يثير هذه القضية فى خطبته ، مؤكدا أن القوى العاملة فى السودان هى رصيد الثورة ، وأن أفرادا من الأحزاب السياسية التقليدية الذابلة لن ينجحوا مطلقا فى عزل الجماهير عن قيادتهم الثائرة .

والقوى الرجعية فى السودان مثلها فى أى بلد آخر ، تلبس من الثياب مايجعلها تخفى حقيقتها . وهى لا تستطيع أن تظهر بصورتها القديمة التى تنصب عليها اللعنات ، ولا تجسر على الظهور فى منبرها القديم .

قال لى أحد أعضاء مجلس الثورة ويده ترتفع لتحية الآلاف فى الطريق ، ان الجزيرة كانت خاضعة لنفوذ بعض أعضاء الأحزاب ، ولكن مايو حرر الناس من الضغط والارهاب ومن الخداع أيضا .

ولم يجد بعض أعضاء قيادات هذه الأحزاب سبيلا الا أن يلبسوا ثيابا أخرى .. ولكن الفطنة والحذر عند الجماهير وعند قيادة الثورة ،

لم تترك لهم الفرصة سانحة .

وتطبيقا لمبدأ « الصراحة » الذى يتميز به المجتمع فى السودان ، وقف جعفر نميرى يقول :

« لا مكان فى مركب الثورة للقيادات الطائفية والقبلية التى عملت لتكرس التخلف فى السودان ، ولا مكان فى الثورة للقيادات السياسية التى مكنت للقوى التقليدية أن تتسلط على رقاب الشعب وتعبث بمقدراته ، واليوم تظهر نفس تلك القوى السوداء بأقنعة جديدة ظانة أنها ستخدع قوى الثورة وتندس بين صفوفها وتهدد كيانها من الداخل ، ولقد علمنا عن أشخاص يطوفون قرى الجزيرة لتجميع قيادات الأحزاب الرجعية وبعث نشاطها المعادى للثورة تحت قناع مايسمى بالقوميين العرب . ولكن أيها الاخوان هذا النبت الشيطانى لن يفلح اليوم فى تضليل الشعب باسم القوميين والثورة العربية ، كما لم يفلحوا بالأمس فى تضليله باسم الدين الحنيف فالذود عن الوجود القومى يعنى فى المقام الأول النضال ضد الاستعمار ، وضد عناصر الفرقة والتجزئة بين الشعوب العربية ، وضد المصالح والمطامع التوسعية للاستعمار والصهيونية .. نضال لأجل التحرر والاشتراكية .. وما كان قادة الأحزاب البائدة وعملاؤهم يوما من الأيام أهلا للتصدى لمثل هذه المهام القومية النبيلة »

هكذا حسم جعفر نميرى القضية فى كلمات صريحة واضحة ، وكشف الستار الذى حاولت بعض العناصر الرجعية أن تختفى فيه أو تحتمى به .

وثورة مايو تضع خطا فاصلا وواضحا بين الجماهير التى ارتبطت

بالأحزاب التقليدية وبين قيادات هذه الأحزاب .. وهى تحاول جاهدة أن تكسب الجماهير الى صفوفها بما تقدمه لها من خدمات اجتماعية ووعى سياسى ، فى الوقت الذى تحاول فيه أيضا عزل بقايا القيادات التى أساءت الى الشعب والشرف والضمير الوطنى .

وفى هذا المعنى تحدث رئيس اتحاد المزارعين الشيخ الأمين محمد الأمين الذى وجه المزارعين فى أكتوبر الى الخرطوم وتابع موكب نميرى منذ دخل الجزيرة .

والشيخ الأمين تبرع باسم اتحاد المزارعين بمبلغ ١٠٢ ألف جنيه لمشروع مقاومة العطش الذى تتبناه الثورة فى مقدمة الأعمال الانسانية التى تهدف الى تحقيقها .

الليلة السياسية مازالت تجمع أهل مدنى ورئيسة الاتحاد النسائى فى المدينة نفيسة الأمين — وهى ليست قريبة الشيخ الأمين محمد الأمين — تعلن تأييد النساء لثورة مايو .

ومن أبرز الظواهر التى لاحظتها خلال الرحلة تجمعات النساء من مختلف الأعمار ، ونشاط المدرسات أمام صفوف التلاميذ والتلميذات .

والمرأة السودانية من أكثر نساء العرب اهتماما بالعمل السياسى ، وقد حقق الاتحاد نجاحا كبيرا فى اجتذاب معظم النساء المتعلمات الى صفوفه .. وتلعب رئيسته فاطمة أحمد ابراهيم دورا بارزا فى توجيه نشاطه .. ويقال إن ٦٥ ٪ من أصوات النساء قد أعطيت للمرشحين الاشتراكيين فى عهد الأحزاب التقليدية المنهارة .

وأثارت طالبة جنوبية تتحدث العربية بلكنة خاصة ، حماس

الجماهير عندما أعلنت أن الشمال والجنوب صف واحد ضد الاستعمار ..

والخطباء كانوا من أعضاء مجلس المديرية المنتخبين وهو نظام أقرته ثورة مايو لتضمن مشاركة الجماهير فى العمل الادارى ..

وانتهت الليلة السياسية والساعة تقترب من الحادية عشرة مساء ..

توجه نميرى فى الصباح الى حقول الجزيرة .. ونزل يجمع القطن ، ويدعو مرافقيه الى النزول مع تنبيهه لهم بأن يحرصوا على سلامة الشجر وان يجمعوا كل ماتفتح من القطن ..

وفى مدرسته الثانوية حنتوب دخل فصله وعنبره وقدم زملاءه فى الدراسة ليتحدثوا عن ذكرياتهم وتحدث فاروق أبو عيسى وأحمد عبد الحليم ..

وعرفت من خطبة نميرى التقاء طلبة السودان مع طلبة مصر فى مظاهرات ١٩٤٦ .. فقد أغلقت مدرسة حنتوب من ابريل الى أكتوبر ١٩٤٦ بعد ثورتها الجامحة ..

وبعد الغداء كانت المفاجأة الكبرى عندما ذهبنا الى مهرجان رياضى فى نادى الاتحاد .. الذى كان جعفر نميرى رئيسا لفريق الكرة به منذ أكثر من خمسة عشر عاما .. واشتمل المهرجان على مباراة ودية مدتها نصف ساعة بين فريق النادى القديم ، وفريق الأندية الأخرى بالمدينة .

وخلع جعفر نميرى بدلته العسكرية ، ولبس ملابس الكرة ، ونزل على الملعب ليؤدى مباراة جيدة ، ويصيب الهدف بلعبة ماهرة واشترك فى المباراة الوزير مرتضى أحمد ابراهيم ..

هل يتكرر هذا المشهد فى أية دولة من دول العالم ؟

هل يشارك رئيس جمهورية ما فى رياضة شعبية مفتوحة ؟ ..

الروح السمحة البسيطة التى يتميز بها شعب السودان هى التى أوحت للرئيس أن يشترك فى المباراة بلا كلفة .. وهى التى تزيد ارتباطه بالشعب كلما أوغل فى معايشة مشاكل الناس .

حاولت أن أرسم صورة ليومين أمضيتهما فى رفقة موكب الثورة ... لعلى نجحت فى توضيح الجهد الذى يبذله القادة للتعرف على مشاكل الجماهير فى مواقعها . وأظهرت الانسانية البسيطة التى تثرى حياة شعب السودان ..

ولكن رحلة رجال الثورة والوزراء لم تنته فى واد مدنى ، ولكنها ابتدأت من هناك ..

اتجه الثوار الى كردفان للمرة الثانية خلال عشرة شهور هناك حيث العطش يقهر الانسان ليمضوا عشرة أيام بعيدا عن العاصمة ..

وما أظن أحدا يستطيع التقليل من أهمية هذه الظاهرة الثورية ، التى تجعل المسئولين يعايشون الناس بعيدا عن أضواء العاصمة المثلثة

وما أظن أيضا أن هذه الزيارات تمضى مثل غيرها . اجتماعات ومظاهرات وهتافات ثم تنفض لتعود الحياة الى سكينتها الأولى ..

الأمر يختلف قليلا فى السودان حيث توجد تنظيمات سياسية وجماهيرية تبذل كل وقتها وطاقتها فى خدمة الثورة .. وتجعل من استمرار الثورة وانتصارها نقطة أولى فى جدول أعمالها ..

وما أظن أن سودانيا مخلصا لا يدرك ادراكا عميقا حيوية الدور الذى يمكن أن يؤديه السودان فى منطقة التحرر الوطنى عامة وفى

افريقيا والوطن العربى خاصة .

والانتقال الذى حدث فى المجتمع السودانى لا يمكن أن نجنح به الى التبسيط ، فانه أعظم عملية ثورية واعية تتم فى قلب أفريقيا ، تهز قواعد الامبريالية فى كل مكان ..

وثورة مايو عندما ترتبط بثورة القاهرة وثورة ليبيا انما تدعم الاتجاه التحررى فى المنطقة ، وتقوى من حافز التغيير الاجتماعى فى الوطن العربى .

واذا كانت بعض عناصر الثورة المضادة تحاول أن تركب موجة الحساسية لاثارة بعض المشاعر على أسس غير موضوعية ، فان وعى الشعب السودانى بضرورة الاحتشاد خلف ثورته ، وتأييد سياستها التى تلتقى فيها مع قوى التحرر بالوطن العربى ، هو الضمان الرئيسى لانتصار الثورة واستمرارها .

عبر عن ذلك جعفر نميرى بقوله :

« ان من النتائج المباشرة لهذا التعاون الثورى الجديد ــ السودان وليبيا ومصر ــ قرارات ثورية وتاريخية حاسمة لتصفية مواقع الاستعمار فى هذه البلدان عقابا له على موقفه المجرم ضد الشعوب العربية ومساندته لاسرائيل ، هذه هى المهمة الثورية المقدمة على نطاق الوطن العربى منذ أمد بعيد ، ان الشعب المصرى الذى يموت أبناؤه بالآلاف فى الجبهة وتتعرض مدنه ومصانعه ومنشآته للقصف الاسرائيلى المجرم ، هذا الشعب يناضل لا لقضيته هو وحده بل للشعوب كلها .

والمساعدات التى نقدمها لمصر واجبة علينا ولمصلحتنا مثل ماهى

لمصلحة مصر .

وأخيرا .. فانى لا أريد أن يسحبنى جو الرحلة للجزيرة وواد مدنى الى بحر من التفاؤل .. ولا أعتقد ان حرارة اللقاء والهتاف لرجال مايو يمكن أن تذيب من قلبى ما أشعر به من قلق..ولاأتصور لحظة ان الصمت يكون مقبولا فى هذه المرحلة الأخيرة والحاسمة معا.

وقلمى لن يصيبه الجهد مهما كتب عن الأثر العظيم الذى أحدثته ثورة مايو فى جو الوطن العربى .. يكفى انها حطمت سياج العزلة الذى حاول الاستعمار أن يفرضه حول القاهرة ، وهو يتربص بها .

ولا يجوز التقليل من شدة الضربة التى وجهت الى الامبريالية العالمية .. عندما انفجرت ثورة شعب السودان .. كما انه لايجوز أن تتصور لحظة أن الامبريالية سوف تقبل الهزيمة بروح رياضية ، وتنسحب من المنطقة راضية .

من قوة تأثير ثورة مايو على الموقف فى افريقيا والوطن العربى يجب أن ينبعث الحذر .. وكلما كان انتصار الاشتراكية واضحا أصبحت اليقظة ضرورة ..

عندما انتصرت ثورة أكتوبر ١٩٦٤ ، وتدفقت الأسلحة والمعاونات الى ثوار الكونغو ، فزع الاستعمار ، وهبطت قوات المظلات الأمريكية فى ستانلى فيل .

ثم تآمرت قوى الاستعمار مع قادة الأحزاب التقليدية الخاضعة للطائفية ، حتى فرغت ثورة أكتوبر من مضمونها التقدمى ، وأجهضتها خلف ستار الديموقراطية الليبرالية .

ولكن .. هل تتعرض ثورة مايو لما تعرضت له ثورة أكتوبر ؟

ما أظن أحدا يتصور أن قوى الامبريالية فى المنطقة .. وأعوانها فى الداخل قد استكانوا للوضع الجديد ، وفقدوا رغبتهم فى الانقضاض على السلطة .

وما أظن ان قيادة الثورة ترسم خطتها على أساس أنها تمضى فوق بساط من حرير .

وثورة مايو اتخذت موقفا ثوريا أصيلا .. عندما صنفت الطائفية والأحزاب التقليدية على أنها من الرجعية التى يرفضها الشعب لكثرة ماعانى من ضغطها واستغلالها .

وجعفر نميرى قال لى فى حديثه منذ أسابيع ان الوحدة الوطنية لا تشمل هؤلاء وانما تضم القوى صاحبة المصلحة فى التغيير الاجتماعى .. أى القوى الاشتراكية .

ولكن القوى الرجعية التقليدية لم تركن الى الهدوء .. ولم تفقد الأمل فى معاودة الظهور .. مازالت تحاول الوثوب من جديد .. لا يغلبها الحياء أو الخجل .

لم تعد تذكر أنها رفعت مديونية القطاع العام من ٣ر٩ مليون جنيه عام ١٩٦٥ الى ٤٦ مليون جنيه عام ١٩٦٩ .

ونسيت أن ميزانية السودان قد تسربت من أيديهم لاستيراد سلع الترف والكماليات حتى بلغ استيرادهم من الأقمشة عشرين مليون جنيه خلال العام السابق للثورة ، رغم توفر منتجات الصناعة الوطنية .

وتناست تدهور الأرصدة الخارجية من العملات القابلة للتحويل الى ٣ر١٦ مليون جنيه فى ١٥ مايو ١٩٦٩ بعد أن كانت ٦١ مليون

جنيه عام ١٩٦١ ـ ١٩٦٢

ولم تعـد تذكر هـذه القـوى انها وصلت بقروضها الى حد الاستدانة محليا من بنك السودان .

ومعروف أن كثيرا من الموظفين كانوا لايقبضون مرتباتهم فى أول الشهر ..

يقول فاروق عثمان حمدالله وزير الداخلية مصورا حالة الجنود البائسة قبل ثورة مايو :

« كان العساكر فى الجنوب لايتمكنون من صرف مرتباتهم لمدة تصل الى ستة أشهر !

« وكان الجنود يفتقـرون الى أبسـط الأشـياء وهى الملابس العسكرية ، وكانت المهمات تصرف للجنود العـاملين فى الجنوب بنفس النسبة التى تصرف بها للوحدات بالشمال مع تجاهل تعرض الجنود فى الجنوب للعمل المستمر ، وهناك تقرير من « قائد حلمية بساى يفيد بأن جنوده يلبسون ملابس المتمردين بعد قتلهم »

شواهد كثيرة تدين رجال النظام المنهار المعتمد على الأحزاب التقليدية .. ولكنهم مع ذلك يتطلعون الى الوثوب من جديد .. ويحاولون تضليل الجماهير ورجال الثورة بتغيير ثيابهم الملوثة .. ومحاولة الظهور بملابس « القوميين العرب »

ولكن وعى الثورة ويقظتها جعلت جعفر نميرى يهاجم فى خطبته بواد مدنى محاولة هؤلاء « المتسربين الى ساحة الثورة »

هنا يبدو الخطر من تحرك قوى الثورة المضادة الحزبية والطائفية محدودا قليل الأثر . وخاصة بعد الجهد العنيف الذى تبذله قيادة

الثورية فى لقاء الجماهير بمواقع العمل ، وتقديم الحلول لبعض الهموم التى ترهق الانسان فى مختلف الأقاليم .

وجعفر نميرى ــ فيما أعتقد ــ لن يتوقف عن الاستمرار فى هذه الرحلات الشعبية الرائعة لأنه يؤمن فى ثورية أصيلة ، بضرورة لقاء المثقفين بالعمال والمزارعين فى أماكن عملهم واقامتهم .

والظاهرة الايجابية التى ظهرت منذ اللحظة الأولى فى ثورة مايو هى « الايمان وعدم الخشية والاعتماد المطلق على الشعب »

وما زالت ثورة مايو ــ وقد مر عام على انتصارها ــ تعتمد فى حركتها السياسية على التنظيمات والاتحادات الجماهيرية .. وقد أتاحت لى الظروف فرصة مشاهدة الدور الذى لعبه اتحاد عمال السودان فى استقبال ممثلى اتحاد نقابات العمال العالمى ، والمظاهرات الرائعة والليالى السياسية الناجحة .. وكذلك الدور الذى لعبه اتحاد المزارعين والنساء والشباب والعمال خلال رحلة الجزيرة .

لم تكن حركة الجماهير لاستقبال موكب الثورة غير منظمة .. كان واضحا أن هناك قيادات بعضها نقابى وبعضها سياسى . ولكنها جميعا تلتقى فى تأييدها الصريح للثورة

وعلى امتداد الطريق الطويل ، كنا نسمع هذا الهتاف « بالدم .. بالروح نفديك يانميرى » .. ولكن جعفر نميرى التقط الميكروفون وهو يرد تحية الناس فى الليلة السياسية بواد مدنى .. وبدأ ينغم الهتاف قائلا : « بالدم .. وبالروح نفديك ياثورتنا » .. وارتفع هدير الجماهير وراء القائد الذى يصر على انكار ذاته

وطوال الطريق كانت تراودنى فكرة تنظيم هذه الجماهير المخلصة

صحيح أن الاتحادات والنقابات تؤدى دورا فعالا وحقيقيا فى توجيه الجماهير .. وان بعض قياداتها قد لعب دورا هاما فى تكوينها والمضى معها فى طريق نضال شاق ضد الاستعمار والرجعية .. وان كثيرا منهم قد عانوا آلام الصمود والتضحية .

ولكن هذه التنظيمات يجب أن تكون حذرة ، كما أنه من واجب العناصر الثورية فى داخلها المحافظة على نقائها ودحر الاتجاهات اليمينية فيها .. فعندما تكون السلطة فى الحكم يتكاثر حولها المنافقون .. واذا عزفت نغمة الاشتراكية رقص عليها الطامعون .

ومسئولية ثورة مايو فى نقل مجتمع السودان الى حياة العصر تحتاج الى كادر ثورى ملتزم ، لا يتحرك بعاطفته وحماسته ، قدر مايتحرك بوعيه وايمانه .. تحتاج الى جهاز سياسى منظم بعيد عن الخضوع لسلطة الدولة .. قادر على بذل جهده وطاقته لمساندة الثورة وبناء الاشتراكية .

ولعل هذه القضية هى أكثر القضايا الحاحا اليوم .. ولعلها أيضا أكثرها حساسية .

وشعب السودان كما سبق أن ذكرت .. يتميز بوعى ناضج ، وديموقراطية طبيعية ، وصراحة لاتعرف التردد ..

ولذا فانه لايقتنع بالآراء السطحية ، ويرفض أنصاف الحلول .

وثورة مايو حددت الموقف واضحا .

جبهة الاشتراكيين العريضة فى جهة .. وقوى الرجعية والتخلف فى جهة أخرى .

وأصبح تنظيم القوى الاشتراكية فى جهاز ثورى ملتزم مسئولية

من أهم مسئوليات ثورة مايو .

ومعروف ان الاشتراكية ليست أمرا طارئا فى السودان .. ولا يدعى أحد أنها شعار جديد تخرجه ثورة مايو من الجراب .. ولكن هناك نضالا طويلا بدأته الحركة السودانية للتحرر الوطنى فى الأربعينات ، أخذ ينمو سرا حتى أعلنته الظروف مع ثورة أكتوبر .

وما أظن أحدا يسعى الى سلب هؤلاء المناضلين من شرف التبشير والتضحية والوجود .. ولا أعتقد أن قائدا من قادة الثورة يمكن أن تتسرب الحساسية الى نفسه من أية فلسفات عصرية أو تجمعات تقدمية .

وفى الجانب المقابل لا أتصور أن التنظيم الذى حمل العبء الرئيسى للنضال من أجل الاشتراكية العلمية وأعنى الحزب الشيوعى السودانى يعتقد أنه الوحيد المسئول عن بناء المجتمع الاشتراكى .

تصريحات قادته وشعاراته خلال مراحل النضال تظهر أنه كان دائما يهدف الى اقامة جبهة مع كافة القوى الاشتراكية ، وهو لايدعى حق احتكار الأفكار الاشتراكية لذاته فقط .

حرص القوى الاشتراكية النامية ، يبدو دائما واضحا فى محاولاتها لحشد الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية فى الاستقلال الوطنى والتغيير الاجتماعى .

ولست أريد التعرض هنا لتفاصيل وأسلوب تكوين التنظيم السياسى لثورة مايو .. فما أظن مجال ذلك صفحات مفتوحة على الرأى العام .

ولكنى أعتقد أن « وحدة الاشتراكيين » التى تحدث عنها جعفر

نميرى ، هى ضرورة حتمية وحاسمة للقضاء على كل محاولات التسلل والتخريب ..

الذين يحاولون أن يصوروا الأمور كما لو أن كل شىء قد بدأ فى مايو يخطئون كثيرا .. لأن الثمار لاتنضج قبل الشجر .

والذين يحاولون أن يقللوا من فضل ثوار مايو .. يرتكبون نفس الخطأ ، لأنه لولا شجاعتهم ومبادرتهم ماكانت الأمور قد تغيرت ولظل المجتمع السودانى صريع الفساد والرشوة والجهالة .

وما أظن أن وعى الذين حملوا عبء النضال سنوات عديدة .. تعرضوا فيها للسجن والاضطهاد والفصل ، يمكن أن يسمح للمخربين والمشبوهين الذين يحاولون ارتداء أقنعة اشتراكية ، بأن يلفتوا الأنظار ، وكأنهم فى ساحة خالية ، تحتشد حولها الجماهير .

جماهير السودان ليست فى موقف المتفرج ولا تقبل أن يؤدى دورا فى تحديد مصيرها الا ثوار مايو ، ومن حولهم كل الذين بشروا وناضلوا من أجل اشتراكية ، تحرر الانسان السودانى من كل قيود التخلف .

وفى فترات التغيير الاجتماعى تكون الخلافات فى وجهات النظر أمرا طبيعيا وصحيا .. ولكن الروح الرفاقية ، والحكمة الثورية .. ولا أقول الخطر المشترك والمصلحة الواحدة .. تصبح هى الأساس الذى يجب أن يتحرك عليه كل مخلص للثورة وللاشتراكية معا

ما أشد معاناة الثورات من بعض الذين يتهافتون عليها تهافت الذباب على الطعام الشهى يقبحه شكلا ، ويفسده موضوعا .

وما أكثر حاجة الاشتراكيين الى وقفة تأمل عميق لكل مايدور

حولهم فى الوطن الواحد .. وفى العالم كله .

وثورة مايو ليست ثورة علوية .. لم تنطلق من فئـة تعيش فى سطح المجتمع ، ولم تنتصر بارادة القوات المسلحة وحدها ، ولم تكن أبدا منبثقة أو منعزلة عن نضال الجماهير وتضحياتها .

وهى فى تفكيرها واتجاهها سودانية الطابع والأصل .. ولا يمكن أن تكون غير ذلك .

وما أظن أن كلمات كاتب يخلص فيها مع ضميره ونفسه متأثرا بما شاهده من علامات انتصار الثورة ، منفعلا بعواطف البسطاء من الناس ، حريصا على مستقبل شعب يحبه ويحترمه ، بقادرة وحدها على أن تفعل شيئا .

ولكنها يمكن أن تكون علامة قلق لم تستطع أن تذيبه فى قلبى حرارة العواطف التى عشتها .

الباب العاشر

كفاح مشترك ومصير مشترك

يتجسد فى مصر والسودان ...

وارتفع شعار « وحدة وادى النيل » واقتنع به فريق من أبناء السودان ، وناضلوا من أجله ، وضحوا بحياتهم وحريتهم فى سبيله ... ونذكر جمعية اللواء الأبيض وعلى عبد اللطيف .

ولكن هذا الكفاح كان يتم باندفاعات سياسية وعاطفية غير مدروسة ... صحيح أن هذه الشعارات كانت تلتقى مع ارادة الجماهير البسيطة ... ولكنها عندما كانت تتردد بوساطة الحكومات كانت تعبر عن شىء آخر

كان شعار « وحدة وادى النيل » شعارا يخفى خلفه رغبة الحكومات الرجعية فى الاستفادة الاقتصادية من الطبيعة السودانية وسوقها الكبير ... ولذا فانهم كانوا يرددون دائما تعبير « سيادة مصر على السودان »

كانت رغبة الحكومات الرجعية ... الوحدة شكلا والسيادة موضوعا ..

وفى مختلف المفاوضات والمجالات الدولية كان يتحدث المفاوض المصرى عن حق مصر فى السودان

قال ذلك سعد زغلول لرامزى ماكدونالد فى مفاوضات ١٩٢٤ التى انتهت بعد ثلاث جلسات فقط

ومعاهدة ١٩٣٦ التى احتشدت لها كل الأحزاب المصرية وفى مقدمتها الوفد ، لم تفعل أكثر من عودة الجنود المصريين الذين انسحبوا بعد مصرع السردار وأثناء نكسة ١٩٢٤

وعاد اسماعيل صدقى من لندن بعد مفاوضاته مع بيفن يقول

طبيعة الحكم فى ذلك « العهد الاقطاعى » كانت تفـرض على الجماهير نوابا ووزراء من الاقطاعيين ... ولكن العلاقات بين بسطاء النـاس فى مصر والسودان كانت قائمـة بلا حواجز ... الأرض مشتركة واللغة والدين والنيل يحطم الحواجز والعلاقات التاريخية لاتتمزق بتناقضات دموية .

هذا هو ماجعل الاستعمار البريطانى يبدأ فى تنفيذ خطته بسحب الجنود المصريين من السودان ، حيث تم ذلك عام ١٨٨٥ بعد انتصار ثورة المهدى ومصرع غوردون فى الخرطوم ... ومحـاولة اقامة « حاجز زمنى » يكون فيه السودان بعيدا عن أية صلة تربطه بمصر ... ثم يهجمون عليه من الجنوب .. من المستعمرات البريطانية فى كينيا وأوغندا ، ليتحول السودان أيضا الى مستعمرة بريطانية ، مقطوعة الصلة عن مصر والدول العربية ، تحاشيا لوجود عمق عربى متجه الى داخل القارة المظلمة التى فرض عليها الاستعمار سياجا من فولاذ .

فشلت الخطة البريطانية لسـبب خارج عن ارادة الاسـتعمار البريطانى وهو وصول بعثة مارشان الفرنسية الى حدود السودان عازمة على استعماره طالما هو « مستقل » .. وأسرع البريطانيون الى دخول السودان بجنود مصريين وقادة بريطانيين لعـدم توفر الوقت لهجوم من الجنوب ، ورفع حجة أمام المستعمرين الفرنسيين ونفذ أول احتلال مشترك فى التاريخ تبعا لاتفاقية ١٨٩٩ التى جعلت الحاكم البريطانى للسودان ، هو مركز القوة الحقيقى هناك ومنذ هذا العام بدأ الكفاح المشترك ضد الاستعمار البريطانى

كفاح مشترك ... ومصير مشترك

طوال فترة بقاء جنود الاحتلال البريطانى فى مصر ـ ٧٤ عاما ـ وطوال فترة بقائها فى السودان ـ ٥٧ عاما ـ لم يتوقف الكفاح الشعبى المشترك ضد الاستعمار البريطانى

ولكنه لايمكن القول بأن طبيعة الكفاح المشترك كانت واحدة بين الحكومات الرجعية والاقطاعية المتهاونة من جهة .. وبين جماهير الشعب المصرى والسودانى من جهة أخرى .

بل ان الكفاح ضد الاستعمار البريطانى كان يختلف من وزارة الى أخرى ، تبعا للحزب الذى تمثله ، وتبعا للظروف الدولية والسياسية فى الفترة التى تتولى فيها الحكم .

أبعد من ذلك .. كانت نظرة الحكومات المصرية الرجعية لموضوع السودان ، تعبر عن تناقض فى المصالح الاقتصادية لأبناء الطبقة البرجوازية المصرية وبين الاستعمار ... أكثر مما تعبر عن رغبة أصيلة فى تحرير الشعبين المصرى والسودانى من قيود الاستعمار والتخلف الاجتماعى

قبل الاستعمار البريطانى لم يكن هناك فاصل بين مصر والسودان ... واللائحة الأساسية التى تقدمت بها وزارة شريف باشا الى مجلس شورى القوانين كانت تنص على أن أعضاء مجلس النواب ١٢٠ نائبا منهم ٢٦ نائبا من السودان وكل نائب يعتبر « وكيلا عن عموم الأمة المصرية وليس فقط عن الجهة التى انتخبته »

والحزب الشيوعى الذى قضى عليه الاستعمار وحكومة سعد زغلول عام ١٩٢٤ كان يضع الى جانب هدفه المبكر « جعل قناة السويس ملكا للأمة » هدفا آخر هو « جلاء الجنود الانجليزية عن مصر والسودان وعدم الاعتراف للغاصب بأى مركز ممتاز » .

ولكن سرعان ماقضى الاستعمار البريطانى فى عنف على هذه الأفكار ، وفرض نكسة ١٩٢٤ حسب خطة كان يقصد بها من جديد فرض العزلة على السودان ليحقق كافة أطماعه الاستعمارية بلا حساب أو رقيب .

وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى كانت بعض الأفكار التقدمية قد وجدت سبيلها الى مصر والسودان .

عادت القوات السودانية التى حاربت قوات الفاشية والنازية فى صفوف الحلفاء ، وقد أضاءت فى عقولها حقائق جديدة عن الموقف الانسانى والعالمى .

وبدأت فى مصر حركة نضال واضح ضد الاستعمار البريطانى ... ونشأت فى أحضان هذه الحركة المصرية للتحرر الوطنى شعارات جديدة تنادى بالكفاح المشترك للشعبين المصرى والسودانى ضد الاستعمار البريطانى ... وتجمع الناس حول « كفاح واحد ضد عدو واحد » .

ولم ينفصل الكفاح الوطنى السودانى منذ ذلك الوقت لحظة واحدة عن الكفاح المصرى .

ارتبط مؤتمر الخريجين بحزب الوفد أساسا ... لما كان يمثله التنظيمان من قوى اجتماعية مشتركة هى البرجوازية المصرية

عدت والسودان فى جيبى !

وتحدث النقراشى عام ١٩٤٧ وهو يعرض قضية مصر على هيئه الأمم المتحدة عن حق مصر فى السودان

وكان الاستعمار البريطانى يستغل هذا الاتجاه المصرى فى ذكاء شديد ... كان ينمى حقد الطبقة الاقطاعية السودانية ضد منافستها الاقطاعية والبرجوازية المصرية ، حتى خلق من طائفة المهدى والأنصار أعداء تقليديين لمصر وللمصريين .

وكان يستغل أيضا بعض المثقفين السودانيين وينمى عندهم رفض كل ماهو مصرى ، وقبول كل ماهو بريطانى .

ولكن هذه السياسات العلوية ، وهذه التناقضات السطحية ، لم تصل أبدا الى أعماق الشعبين المصرى والسوادنى المتفجرة بالحيوية ..

كانت جماهير الشعبين من القوى العاملة والمناضلة ضد الاستعمار تدرك أنه لاتوجد بينها تناقضات ولا منافسات اقتصادية ... وتدرك أيضا بحسها الثورى الصادق ان ماتثيره الرجعية المصرية والسودانية انما يعد وينضج فى مطابخ الاستعمار البريطانى .

وكانت فترة مابعد الحرب العالمية الثانية هى الفترة التى بدأت تظهر فيها أفكار تقدمية جديدة .

ولا نود أن نسلب بعض الشخصيات والتنظيمات حقها فى الوعى السليم بأبعاد قضية السودان .

محمد فريد مثلا كان ينادى بالأخوة بين الشعبين ، ويدعو لتكوين جمعية سلام واحدة فى وادى النيل .

والسودانية الناشئة .. مع وجود عناصر يسارية تقدمية فى غير موقع السلطة الرئيسى .

وارتبطت الحركة السودانية للتحرر الوطنى مع الحركة الديموقراطية المصرية للتحـرر الوطنى .. يتبادل الاثنان الرأى والعضـوية .. ويجسدان شعار الكفاح المشترك كل بأسلوبه ووسيلته .

وكان الكفاح ضد الاستعمار البريطانى فى مصر أكثر ايجابية وأسرع نضجا ، حتى تحول بعد حرب فلسطين الى كفاح مسلح ماكادت تندفع عجلته ويصلب عوده ، حتى دهمته مؤامرة الاستعمار ، وتحول مع حريق القاهرة فى ٢٦ يناير الى جذوة تعيش فى القلوب تحاول حكومات الرجعية المصرية أن تطفئها دون جدوى .

حتى عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو لتبدد اليأس والظلام وتواجه الاستعمار ، لم تتأخر لحظة واحدة فى مواصلة الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية بالقتال .

وفى هذه الفترة الطويلة التى امتدت سنوات لم يصـل شعب السودان الى مرحلة الكفاح المسلح ، لعدم نضج الظروف الموضوعية المهيئة لطرح الشعار .. ولعدم وصول القيادات الشعبية الى مستوى القدرة على تحريك الجماهير ... ولأنه لم تتوفر حكومة تخلق جوا ديموقراطيا مساعدا للجماهير مثل حكومة مصطفى النحاس ... هذا الى جانب قلة عدد القوات البريطانية المعسكرة فى السودان .

وهناك سبب آخر أجل من وصـول شعب السودان الى مرحلة الكفاح المسلح ضد الاستعمار ... وهو وصول الثورة المصرية الى اتفاقية فبراير ١٩٥٣ التى أعطت للشعب السودانى حقه فى تقرير

مصيره ..

أصبح موقف الشعب السوداني واضحا من قضية استقلاله وتقرير مصيره ... وتحول نضاله في الداخل الى دعم مكاسب ديموقراطية وسياسية .

وفى هذه الفترة الحاسمة منذ توقيع الاتفاقية فى فبراير ١٩٥٣ الى اعلان الجمهورية السودانية فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ ، واعلان الاستقلال رسميا فى أول يناير ١٩٥٦ ... وضح أن الأحزاب الاتحادية لم تكن جادة فيما ترفعه من شعارات ... وانما كانت تجتلب بذلك أصواتا تساعدها فى الانتخابات .

لم يكن ذلك ـ فى رأيى ـ مفاجئا ولا غريبا ... بعد أن أصبحت فى مصر حكومة ثورية تختلف فى طبيعتها الاجتماعية ونظرتها للمستقبل عن حكومة السودان التى نبتت من أحزاب تشابه الأحزاب التى انتهت قصتها فى مصر ... وتكونت من عناصر بورجوازية لاتطمع فى أكثر من كراسى الحكم .

كانت حكومة الثورة فى مصر ترفض رفضا صريحا :

- مشروع ايزنهاور
- حلف بغداد

واستطاعت أن تحقق خلال السنوات التى سبقت استقلال السودان :

- انهاء النظام الملكى وتوجيه ضربة حاسمة للاقطاع
- فرض اتفاقية فبراير ٥٣ على الاستعمار البريطانى وهى التى وفرت على الشعب السودانى بعض الجهد فى نضال طويل ، وأعطته

فى ديموقراطية كاملة حق تقرير المصير .

• شـاركت فى مؤتمـر باندونج ووقفت الى جانب القـوى التقدمية ، وأخذ موقف الثورة المصرية يتضح جليا بين دول العالم الثالث ..

• عقدت صفقة أسلحة مع تشيكوسلوفاكيا فحطمت الاحتكار الاستعمارى للسـلاح .

• قضت على ارهاب وتنظيمات حركة الاخوان المسلمين الرجعية

• ألغت الأحزاب التقليدية المصرية التى تهادنت مع الاستعمار والتى كانت ترتبط بها الأحزاب السودانية .

وفى خلال هذه السنوات اتخذ اسـماعيل الأزهرى الاجراءات الآتية التى سبق أن ذكرتها وهى :

١ ــ أوقف الصحف الاتحادية وسحب رخص بعضها .

٢ ــ وقف فى مؤتمر باندونج مع دول حلف بغداد .

٣ ــ سافر الى كمبالا لمقابلة الملكة اليزابيث رغم معارضة الشعب السودانى ونصيحة الثورة المصرية له بعدم الذهاب ... وهناك قبل يد الملكة وعاد بتصريحات سيئة .

٤ ــ رفض هدية من الأسلحة عرضتها مصر فى أوائل عام ١٩٥٤

٥ ــ رفض ارسال ضباط سودانيين للتدريب فى مصر على نفقتها وأصر على تدريبهم فى بريطانيا .

٦ ــ لم يوافق على رصد مبلغ ثلاثة أرباع مليون جنيه لتنفيذ مشروعات ثقافية وصحية واجتماعية فى أرجاء السودان .

٧ ــ أخيرا قرر الحزب الوطنى الاتحادى التخلى عن مسألة الاتحاد

انقلابه فى مايو ١٩٥٩ .. وحلايب تتبع شمال السودان قريبا من حدود مصر الجنوبية .

وكان لهذه الواقعة أثر خطير فى مصر التى لم تتوقع من حكومة السودان أن تصل فى علاقتها الى درجة التآمر مع الاستعمار الأمريكى لطعنها من الجنوب .

واتسعت الهوة مرة أخرى بين طبيعة الحكم فى مصر ... وطبيعته فى السودان ، عندما طبقت مصر القوانين الاشتراكية فى يوليو ١٩٦١ .. بينما الاستعمار الحديث يمرح ويسيطر فى السودان .

وتجمعت حوافز الثورة عند شعب السودان ... وانطلقت ثورة أكتوبر الشعبية ضد طغيان الديكتاتورية العسكرية .. وانتهى لأول مرة فى العالم الثالث حكم عسكرى بقوة الجماهير العزلاء ، المتعاونة مع العناصر التقدمية الوطنية فى الجيش .

وأبرزت ثورة أكتوبر الى السطح صفحات النضال الوطنى التقدمى الذى قامت به التنظيمات سرا خلال ظروف شديدة القسوة والضراوة .. ولحق ركب الثورة السودانية بركب الثورة المصرية .

ولكن سرعان ما أجهضت ثورة أكتوبر بقوة وتآمر الأحزاب التقليدية والرجعية الطائفية .

ووثبت الى الحكم فى السودان عناصر الأحزاب التقليدية من جديد .. وعادت الهوة الواسعة بين الفكر الثورى فى القاهرة والفكر المحافظ فى حكومة الخرطوم .

وحاولت القوى الرجعية الممثلة فى عناصر حزب الأمة أساسا توثيق صلتها بنظم الحكم فى الدول العربية الرجعية .. ومحاولة

ولكن جماهير الشعب السـودانى وحركاته الثورية وتنظيماته التقـدمية كانت تتطلع الى هـذه الخطوات بأمل كبير ، وترقب انتصارات مصر ، وأملها كبير فى حدوث تغيير .

وما عادت مصر تستطيع أن تسهم بإحداث أى تغيير فى السودان الا بضرب المثل فى كونها قاعدة صلبة للتحرر العربى ...

وفى هذه الفترة التى كانت تنتقل فيها الثورة المصرية من نصر الى نصر .. كانت الحكومة السودانية تنسحب خطوة وراء الأخرى أمام ضغط وتسرب الاستعمار الجديد .

وكانت الوحدة المصرية السورية ، والثورة العراقية أكثر مما تحتمله أعصاب الاستعمار فى عام واحد ــ ١٩٥٨ ــ وخشى أن تسرى هذه الموجة الى السودان فبادر الى تنفيذ انقلابه وتسليم حكومة حزب الأمة برئاسة عبد الله خليل زمام الحكم الى ابراهيم عبود الذى رأس حكومة الديكتاتورية العسكرية والمجلس الأعلى للقوات المسلحة حوالى ست سنوات كاملة .

ساد الأمور فى هذه الفترة برود شديد فى العلاقات بين القطرين الشقيقين .. واخفت الديكتاتورية العسكرية وجه السودان العربى الأصيل .. وفرضت حوله سياجا من العزلة المادية والفكرية ، أظن معالمه قد اتضحت فى صفحات هذا الكتاب .

ولكن الأمر لم يقف عند حدود البرود أو العزلة .. بل ان حكم العساكر المنهار كان يدبر الأمور لاعطاء منطقة حلايب للاستعمار الأمريكى لتصبح قاعدة حربية له كما أعلن الأميرالاى عبد الرحيم شنان فى دفاعه أمام المحكمة العسكرية التى شكلت له عقب محاولة

مع مصر ..

وهكذا أصبح واضحا بعد حصول السودان على استقلاله وتحرره من الوجود الاستعماري البريطانى فى أول عام ١٩٥٦ ، أنه يحكم بحكومات تختلف فى طبيعتها عن طبيعة حكومة الثورة فى مصر ..

وكان جمال عبد الناصر فى قيادته للثورة المصرية يحقق كل يوم انتصارا جديدا ... وبعد استقلال السودان تحققت الخطوات الآتية :

١ ـ تحقق الجلاء الكامل عن مصر أيضا فى ١٨ يونيو ١٩٥٦

٢ ـ أممت قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦

٣ ـ تعرضت مصر للعدوان الثلاثى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ثم تم الجلاء فى ديسمبر من نفس العام .

٤ ـ رفضت مصر محاولات التدخل الأمريكية لدراسة المصالح البريطانية والفرنسية ، وأعلن جمال عبد الناصر مقاومته للحصار الاقتصاد الأمريكى .

٥ ـ زادت العلاقات وثوقا مع الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية بعد تنفيذ مشروع السد العالى .

٦ ـ تحققت الوحدة مع سوريا فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨

٧ ـ قامت ثورة العراق فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ وبادر جمال عبد الناصر بالسفر الى موسكو للبحث فى مقاومة نزول الأسطول السادس الأمريكى فى لبنان .

كل هذه الخطوات الثورية كانت تؤكد عمق الهوة بين الفكر الثورى فى مصر .. والفكر التقليدى فى حكم السودان

الاساءة الى الدين باطلاق اسمه على دستور رجعى شديد التخلف ... ولم يخف ذلك محاولات التقرب العربى فى مؤتمرات القمة .. التى لا ينكر أحد أنها كانت تتم بحافز قومى أمام جسامة النكسة .. ولكنها أبدا لم تشكل تقاربا بين الفكر الثورى التقدمى فى القاهرة والفكر المحافظ الرجعى فى الخرطوم .

وكانت ثورة مايو ١٩٦٩

ووصل الكفاح المشترك المرير للشعبين المصرى والسودانى الى غايته ..

حكومة وطنية ثورية فى القاهرة

وحكومة وطنية ثورية فى الخرطوم .

اتجاه صريح الى بناء المجتمع الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة يتجسد فى قوانين يوليو ١٩٦١ ، والميثاق ، وخطب جمال عبد الناصر ، وكل الاجراءات التى اتخذت فى هذا السبيل

واتجاه صريح لبناء المجتمع الاشتراكى فى السودان ، يتضح منذ البيان الأول للثورة ، وفى كافة القرارات التى اتخذتها ، وفى خطب مجلس قيادة الثورة خلال الشهور السابقة

لم يعد هناك تناقض بين الفكر الثورى فى القاهرة .. والفكر الثورى فى السودان .

كما أنه لم يعد هناك تناقض فى الأهداف والاتجاهات بين كل من حكومة القاهرة وحكومة الخرطوم وشعبى مصر والسودان .

زالت كل التناقضات الرئيسية ، وتحققت لأول مرة منذ الاستعمار البريطانى صورة متجانسة من الحكم فى كل من القطرين الشقيقين ..

والتقى الشعبان لأول مرة على هدف بناء مجتمع اشتراكى ، بعد أن أثمر نهما الكفاح المشترك حكومتان ثوريتان أصيلتان .

واذا كانت الثورة فى مصر قد اتخذت موقف الرفض من ناحية التدخل فى شئون السودان الداخلية منذ حصل على استقلاله .. رغم ادراكها بتخلف حكومات السودان ، وأملها فى أن تنتصر القوى التقدمية والثورية هناك .. وملاحظتها ماتدبره الطوائف الرجعية وبعض الأحزاب التقليدية من مؤامرات مشتركة مع الامبريالية العالمية والرجعية العربية للاحاطة بالثورة من الجنوب ، وعزلها عن تأييد جماهير الشعب السودانى

وأقول أيضا إنه اذا كانت مصر قد اتخذت وطبقت هذا القرار القرار فانها تنسجم فى ذلك مع مبدأ أن « الثورة لا تصدر » .. وأن شعب كل دولة هو القادر على التغيير

وقد ثبت ذلك فى انتصار ثورتى اكتوبر ومايو .. فلم يدع أحد أن مصر قد أسهمت فى ذلك بنصيب أكثر من التأييد الايجابى الفورى

وأقول أيضا أنه اذا كانت مصر قد اتخذت وطبقت هذا القرار خلال فترة حكم الرجعية الطائفية والأحزاب التقليدية .. فانها سوف تكون أكثر حرصا على ذلك وهناك حكومة ثورية صديقة فى الجنوب .

وبعض عناصر الرجعية والثورة المضادة لا يمكن أن تهدأ أمام هذا التناسق الوثيق بين القوى الثورية والتقدمية الذى يمتد من ساحل البحر الأبيض الى قلب افريقيا .. لابد وأن تنشط وتحاول الوقيعة بين الشعبين

أذكر ماقامت به بعض عناصر الاخوان المسلمين فى زهوة انتصار ثورة أكتوبر عندما اتجهت الى السفارة المصرية وأشعلت فيها النيران ... فى محاولة للايقاع بين حكومة الثورة فى مصر ، وثورة الشعب فى السودان .. ولكن جمال عبد الناصر ضيع الفرصة على المخربين باعتباره أن هذا حدث عارض ، وأن السفارة المصرية ليست أكثر من دار سودانية .

خشيت الرجعية من التقارب الذى يمكن أن يحدث بين ثورة أكتوبر وبين حكومة القاهرة ، فبادرت بهذا العمل السخيف .

واذا كانت ثورة مايو قد أصلت الاتجاه التقدمى الاشتراكى فى السودان ، وحطمت العزلة التى حاول الاستعمار أن يفرضها حول حكومة الثورة فى القاهرة بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، فان الوضع الطبيعى أن يلتقى الرفاق على درب الثورة فى تعاون وصداقة وأخوة

وقد بادرت الثورتان معا الى تحقيق هذا اللقاء ، وخاصة بعد أن قامت أيضا ثورة ليبيا بعد ثلاثة شهور من ثورة السودان

وهنا يصبح التعاون فى شتى المجالات مسئولية وطنية فى خدمة الشعوب المصرية والسودانية والليبية .. فما أظن أن الذين ناضلوا من أجل الكفاح المشترك كانوا يقدمون تضحيات ليديروا ظهورهم لبعض بعد أن ينتصروا.

انتصار الكفاح المشترك ضد الاستعمار البريطانى ، هو مرحلة من مراحل الكفاح المشترك أيضا ضد الانستعمار الحديث .. وضد كل أنواع التدخل الامبريالى .

ويخطىء من يتصور أن الامبريالية العالمية سوف يصيبها اليأس ،

وتصرف النظر عن محاولة تحطيم النظم الثورية والتقدمية فى دول العالم الثالث .. بل وفى الدول الاشتراكية

وفى سبيل ذلك ، تسلك الامبريالية وأعوانها من الرجعية والثورة المضادة أكثر الطرق مكرا ودهاء .. ويمكن لها أن تجيد التمويه والتخفى وتغيير الأقنعة وأسلوب الحديث .. ولكنها تظل دائما على تركيز شديد فى محاولة الوقيعة بين لقاء القوى الثورية والتقدمية .. كما تحاول دائما تخريب المجتمع من الداخل .

ومنهج الثورة المضادة فى مصر ، يختلف بالتأكيد عن منهج الثورة المضادة فى السودان .. تماما كما يختلف أسلوب التطبيق الاشتراكى والعمل السياسى فى مصر عنه فى السودان .

لا يمكن القول لحظة بأن مانجح فى السودان يمكن أن ينجح فى مصر .. ولا أن ماينجح فى مصر يمكن أن ينجح فى السودان

النجاح الحقيقى فى تعاون الدولتين والحكومتين والشعبين هو فى أن يحقق كل نظام القاعدة الصلبة له بين الجماهير .. وأن يعمق الوعى بأن لقاء الثورات هو أحد الأسلحة الرئيسية فى مقاومة الامبريالية العالمية ، وخاصة الأمريكية .

والكفاح المشترك .. صورته قد تغيرت من تعبئة وحشدومظاهرات ضد الوجود الاستعمارى هنا أو هناك .. الى عمل وجهد وتعبئة من أجل دعم النظام الثورى وبناء المجتمع الاشتراكى .. وهذا الكفاح المشترك يفرض نوعا من التعاون تقدر كل دولة احتياجاتها منه .. ويصبح واجب الدولة الأخرى تقديم مايمكن لها تقديمه فى حدود مصلحة الشعبين المشتركين .

والنظم الاشتراكية فى طبيعتها لا تجنح الى الاستعمار أو الاستغلال .. ولا يجوز أن تنسحب بعض الأخطاء المحدودة لتصبح قاعدة عامة ..

وما يتم الآن من تعاون بين مصر والسودان وليبيا ، هو نوع من الكفاح المشترك ضد الامبريالية العالمية ..

والكفاح المشترك لا يجوز أن يهدأ أو يتوقف .. بل يجب أن ينمو ويتطور .. فان المؤامرات الاستعمارية لا تركن الى الهدوء .. وما تحقق فى المنطقة أمر يقرب من المعجزات .

وأى ضربة توجه الى دولة من الدول الثلاث لابد وأن تؤثر فى الدول الأخرى .. ولذا فان خطوات اللقاء والتعاون يجب أن تتم فوق أرض صلبة من الوعى والبحث والدراسة .. بعيدا عن الارتجال .. بعيدا عن العواطف السطحية .. فى حذر شديد مما يبذره الاستعمار وأعوانه من تشويهات

طريق الكفاح المشترك طويل .. وهو بعد الانتصار قد يكون مليئا بالاشواك والحساسية .. ولكن وعى الجماهير والحكومات وثوريتها هى الضمان الوحيد لاتصال الكفاح المشترك .

فان الجماهير تدرك أن الكفاح المشترك .. يعنى المصير المشترك

المراجع

العربية

- اقتصاديات السودان — محمد محمود الصياد
- تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته — نعوم شقير
- دراسات فى العالم العربى — دكتور جمال حمدان
- الزعيم على عبد اللطيف — عبد الحميد ابراهيم
- السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ الى ١٣ فبراير ١٩٥٣ — مطبوعات رياسة مجلس الوزراء
- السودان المعاصر ١٨٢١ ـــ ١٩٥٣ — دكتور زاهر رياض
- قضية السودان — أسعد حليم
- دراسات فى تاريخ مصر السياسى — فوزى جرجس
- مآسى الانجليز فى السودان — وفد السودان بالقاهرة
- المركز الدولى لمصر والسودان وقناة السويس — دكتور راشد البراوى
- الوضع القانونى للمسألة المصرية السودانية — دكتور زهير جرانة
- تطور الحركة الوطنية المصرية — شهدى عطية الشافعى

الاجنبية

The Egyptian Sudan, its loss and recovery **Al ford, H.S.L & Sward, W.D.**
Sudan today **Hyslop John**
The making of the modern Sudan New bold Douglas
The Sudan question **Mekki Abbas.**

فهرس

كتب للمؤلف

عسكرية :

١ ــ حرب العصابات ٤ طبعات
٢ ــ خواطر عن العرب
٣ ــ أسرار معركة بور سعيد

رحلات :

٤ ــ الدانوب الجديد
٥ ــ من طوكيو الى لندن
٦ ــ مصرى فى فيتنام وكوريا والصين

أدب :

٧ ــ كومبارس مجموعة قصص قصيرة
٨ ــ الأزمة مسرحية
٩ ــ الصمت «

مسرح :

١٠ ــ خمس سنوات فى المسرح
١١ ــ المسرح من الكواليس